موسوعة الاغتيالات ومحاولات الاغتيال في العالم

الجزء الثالث

د. سليم الياس

موسوعة
الاغتيالات ومحاولات الاغتيال
في العالم

سليم الياس

موسوعة

الاغتيالات ومحاولات الاغتيال في العالم

الجزء الثالث

مركز الشرق الأوسط الثقافي

الطبعة الأولى

1427 هـ 2006 م

مركز الشرق الأوسط الثقافي
للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع

الإدارة العامة:
بيروت ـ الحدث، هاتف: ٤٦١٨٨٨ ـ ٥ ـ ٩٦١
فاكس: ٤٦١٧٧٧ـ٥ـ٩٦١ـ خليوي: ٦٤٠٤٩٠ـ٣ـ٩٦١
Web site: www.lccpublishers.tk

The Middle East Cultural Center
For Printing, Publishing, Translation & Distribution

General Management:
Beirut - Hadath, Tel: 961 -5 -461888
Fax: 961 - 5 - 461777, Mobile: 961 - 3 - 640490
E-mail: lcc_pub@Yahoo.com

المقدمة

الاغتيال السياسي هو إحدى الوسائل التي لجأت وتلجأ إليها القوى المتصارعة عبر التاريخ. فمن يوليوس قيصر إلى جون كيندي مسيرة طويلة من عمليات التصفية حصلت في بلدان كثيرة ومنها لبنان.

فمن حسن كامل الصبّاح الذي قتل في 30 آذار/مارس 1935 إلى جبران غسان التويني الذي استشهد بتاريخ 12/12/2005، سبعون عاماً، تكاد تكون حافلة بعمليات الاغتيال، بعضها بقي مجهولاً، والبعض معروفاً، وفي كل الحالات كان معلوماً أنها عمليات اغتيال سياسي، ذات غايات واضحة تتعدد أهدافها وأساليبها ووسائلها.

على مدى 70 عاماً دفع لبنان ـ الذي أنجب أعلاماً في العلم والسياسة والأدب والإقتصاد ـ أثماناً غالية من رجاله الكبار، كانوا يُقتلون، وكأنه ممنوع على الوطن الصغير أن يكون لديه كبار، بأحجام كبرى، حتى ليخيل أن بعض الموت كان مدبراً، وإن بدا بفعل «القضاء والقدر».

فعل «القضاء والقدر»، أكثر ما أصاب العلماء ونذكر منهم وفاة:

حسن كامل الصباح، الأخوة أبو غيدا، وحتى رمال رمال، وفي هذه الخانة قد يأتي المصير المأساوي للنائب ورجل الإقتصاد والأعمال إميل البستاني.

واغتيل سياسيون كبار كان لهم حضورهم وتأثيرهم البارز محلياً وإقليمياً ودولياً من أمثال: رياض الصلح، كمال جنبلاط، ورشيد كرامي والرئيس رفيق الحريري.

كما اغتيل رئيسا جمهورية: بشير الجميل ورينيه معوض.

كذلك اغتيل علماء دين من أمثال المفتي الشهيد الشيخ حسن خالد، القاضي الشيخ حليم تقي الدين، الشيخ نزار الحلبي واغتيل نواب لبنانيون من أمثال طوني فرنجية، ناظم القادري والنائب السابق ايلي حبيقة. وكان للصحافة اللبنانية حصتها في الاغتيال السياسي، فقضى النقيب رياض طه، نسيب المتني، سليم اللوزي، ومحمد شقير، وسمير قصير، وأخيراً النائب والصحافي جبران تويني.

اغتيالات أو جرائم قتل، توجت بجريمة العصر باغتيال الرئيس الشهيد رفيق الحريري، تلتها ثلاث جرائم اغتيال هزّت الوطن الصغير. حبل من الدمار متى ينتهي؟ فماذا في وقائع هذه الاغتيالات؟

أسمهان
(1912 - 1944)

الظاهرة النادرة في الغناء العربي، حَمَلَت التناقضات والمواصفات التراجيدية التي قادتها إلى نهايتها، لم تعرف تلك الصبية الصغيرة أن القدر كان يخبئ لها كل تلك التناقضات التي يمكن أن يعيشها إنسان على هذه البسيطة. صحيح أن حياة كل منا مليئة بالحلو والمر، النجاح والفشل والأبيض والأسود وما بينهما، إلا أن أسمهان عاشت كل حلاوة الدنيا ومرارتها وكأنها عرفت في قرارة نفسها أن عمرها قصير.

اثنان وستون سنة مضت على غياب صاحبة «ليالي الأنس»، و«فرَّق ما بينّا» و«يا ليالي البشر» و«رجعتلك يا حبيبي»، و«أهوى»، و«ليت للبراق عيناً» و«أنا اللي أستاهل»، و«دخلت مرة في جنينة»، وما تزال دموع حجاج بيت الله، تنهمر في كل عام مع أغنيتها الأقرب إلى الدعاء «عليك صلاة الله وسلامه» بنبرة الخنوع والتوبة، باعثة الرهبة، والحنين إلى مرقد النبي ﷺ.

الصوت الحزين لما يزل يرن في الأذهان كلما استحضرنا

صورتها أو سيرتها أو مشهداً من أفلامها، إذ حيّر النقاد والموسيقيين والملحنين والمتذوقين والعشاق على حدّ سواء.

أسمهان، النبرة الشجية في عالم الأغنية العربية، والشخصية الغامضة الواضحة معاً. عاشقة الحياة والمال، البهجة والحزن، لطالما دفعتها مشاعر مجهولة، قوية لا تقاوَم، ولهفة إلى كل تجربة جديدة ومغامرة، مهما ذهبت بها، بعيداً أو قريباً، من دون أن تهاب موتاً، أو تردعها تقاليد أو قيود، وكأنها شاءت عن قصد وإصرار، أو عن غير قصد أن تكون حياتها شريطاً سينمائياً، أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع، حيث سطرت حياتها بقصص الفقر والألم النفسي والجسدي وسلسلة مغامرات، بدءاً باللهو والسهر والحب واللذة والألم معاً، وصولاً حتى الجاسوسية، بحيث لا تبتعد كثيراً عن قصص أغاثا كريستي الخيالية الشهيرة، وعاشت حياتها بكل ما هو مشوّق، وغريب، وغير معتاد من امرأة شرقية، عربية، وذات أصول نبيلة، لتبقى سيرتها مثالاً للمرأة المتمردة على كل شيء.

هل كانت بذلك تنتقم من تلك الحياة التي شاء لها القدر أن تبدأها بالترحال والهروب منذ لحظة ولادتها وحتى لحظة مماتها؟ وكأنها تقول لنفسها وللعالم أجمع: «إنكم لم تذوقوا طعم الذل والحرمان، ولم ترضعوا الخوف كما رضعته، ولم تجربوا المحن في أيام الطفولة السوداء، في أوقات لم أجد من يحنّ علي وعلى عائلتي بكسرة خبز».

ـ أسمهان في سطور:

اختلفت الدراسات حول تاريخ ولادة أسمهان. فحسب سعيد

الجزائري، في كتابه «أسمهان ضحية الاستخبارات» فإن أسمهان ولدت في 25 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1912 في الباخرة التي أقلتها ووالديها إلى بيروت برفقة أخويها فؤاد وفريد. كما يشير فيكتور سحاب في كتابه «السبعة الكبار» إلى أنها ولدت في 24 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1912، ولكن في مقالات صحفية أخرى نقرأ أنها ولدت في العام 1918.

اسمها الحقيقي أمل الأطرش، وهي أخت الفنان الراحل فريد الأطرش. ولدت على متن سفينة متجهة من اليونان إلى بيروت في العام 1912، والدها الأمير فهد فرحان إسماعيل الأطرش من جبل العرب في سوريا، ووالدتها علياء المنذر من بلدة حاصبيا في الجنوب اللبناني.

أراد أبوها الأمير فهد أن يسميها «بحرية» لأنها ولدت في البحر، حين كان يعود بعائلته سراً إلى الشام، بعد هزيمة عسكر السلطان الذين كان يقودهم في بعض الممتلكات العثمانية في أوروبا، في الحرب العالمية الأولى. لكن والدتها عالية المنذر أسمتها أمل لأنها ولدت مع أمل النجاة إثر ليلة كادت فيها الباخرة أن تغرق. أما زوجها الأمير حسن الأطرش فأحب أن يسميها آمال تفاؤلاً. لكن العرب عرفوها بالاسم الذي أطلقه عليها أستاذها الموسيقي العربي الكبير داود حسني: أسمهان على اسم مغنية عربية مجيدة من عصر غبر[1].

(1) **«السبعة الكبار في الموسيقى العربية المعاصرة»**. فكتور سحاب ص. 271. دار العلم للملايين. ط2. شباط/فبراير 2001 بيروت. لبنان.

كان لوالدها علاقة بالثورة السورية الكبرى التي قامت في العام 1922 ضد الاستعمار الفرنسي، فأبعد عائلته عن الأحداث إلى مصر.

ولدت أسمهان في جبل الدروز من عائلة آل الأطرش، وكان والدها آنذاك يفر بعائلته بحراً. وكان أول بر وطأته قدما الطفلة أرض بيروت ثم إلى مصر هي وأخواها فؤاد وفريد، فدخلوا هناك المدارس وارتسمت أمامهم مسالك النزوع الفني الذي ورثوه عن أخوالهم. وكان خالهم خليل المنذر الذي مات وهو شاب، صاحب صوت عذب، وأمهم تضرب العود وتغني. فغنت بأجر في روض الفرج، وأوكلت إلى علمين من أعلام الموسيقى العربية تعليم أبنائها الفن: داود حسني، وفريد غصن اللبناني الذي لمع في العود والتلحين في عصر العمالقة في مصر. وأخذ بيت الأطرش في القاهرة يتحول في أوائل الثلاثينات إلى موقع من مواقع تجمع الفنانين، يلتقون حيث البراعم والوعد.

عندما بلغت أسمهان 13 عاماً التحقت بشقيقها فريد في إحدى الصالات الغنائية في القاهرة، بعدها بثلاثة أعوام غنت أسمهان في دار الأوبرا المصرية.

وبعيداً عن الموهبة، كانت أسمهان مثال الأنوثة الطاغية والسحر الذي لا يقاوم. جمال وجهها الحزين كان سلاحاً تستمد منه القوة لتنال مرادها من العقول والقلوب. عقول وقلوب الرجال التي طالما ضعفت أمام شخصيتها المحيرة، حتى إن الصحافي محمد التابعي أقرب أصدقائها، قال إنها يمكن أن تبكي بدموع غزيرة في لحظة،

ومن ثم تضحك من قلبها في لحظة أخرى. امرأة استعصت على الوصف حقاً، وقد لا يملك امرؤ أن يتخذ موقفاً معيناً منها، لكثرة ما حوته شخصيتها من غرائب السلوك وتناقضاته.

جمالها وجسدها الناحل وشكلها العام قد يثير المواقف المتناقضة منها وقد يختلف البعض حول جمال وجهها أو جسدها، لكن في أي زمان وفي أي مكان لم يختلف اثنان على حلاوة صوتها، والقشعريرة التي يبعثها فينا حين نستمع إليه.

عرفت الفقر والغنى، لقبت بالفنانة أسمهان وعشقت لقب الأميرة آمال. أحبت الغناء وكرهت الإذلال، تألمت وهي بعد غضة، إذ اضطرها العوز أن تقف ساعات، تغني في صالات شارع عماد الدين، حيث كانت تطوي آلامها، وتغالب دموعها كي لا تسيل أمام جمهور من السكارى والثملين يقذفونها بنكات وألفاظ خاصة برواد تلك الصالات.

أحبت الغناء لأجل المزاج، لا من أجل المال، والغناء لنفسها ولوالدتها ولمن تحب ولمن ترتاح إليهم، لكن الغناء بالأجر مقتته إذ أصبح مهنتها التي لا تستطيع التخلي عنها، بل تعتبره مهنة أسرت موهبتها.

كانت تثور على هذا الوضع أحياناً، لكن ليس بيدها حيلة، فهي مضطرة للاستمرار كي تعيل نفسها وعائلتها. ولطالما رفضت الجلوس مع رواد الصالة بعد انتهاء وصلتها كما كان متعارفاً، وقد حرص شقيقاها فؤاد وفريد على أن لا تلزمها العقود مجالسة الزبائن.

وبعدما بدأت أسمهان تغني للكبار في دنيا اللحن أمثال القصبجي وحسني وغيرهما وهي لا تزال في الخامسة عشرة، استفاقت رواسب العمومة في صدر الشقيق الأكبر فؤاد وهو الذي تسنى له أن يعي أمجاد الزعامة السياسية، فثار على مسالك الخؤولة الذي أخذت أسمهان وشقيقها فريد يسيران عليه. فهرب ليلاً إلى جبل الدروز سنة 1933، وهو في السابعة والعشرين، ولم يلق أذناً صاغية لدى والده الذي انصرف إلى زوجة جديدة. لكن ابن عمه الأمير حسن لقيه بالترحاب وانتخى لنجدته. كان يجب أن تتزوج أسمهان قبل أن تمضي في طريق الفن إلى منتهاه. وطلق الأمير حسن زوجته، وتزوج ابنة عمه واستطاع فؤاد أن يُبعد عن بيت أمه في القاهرة حشود الفنانين وأن يُبعد أخته، إلى دمشق ثم إلى الجبل حيث يصان الشرف وتحفظ للإمارة حرمتها.

حاولت أسمهان الانتحار في دمشق أول مرة، ثم اغتنمت فرصة سفرها إلى القاهرة لزيارة أمها وطفلتها كاميليا من أجل الاستقرار في عاصمة الفن العربي. ولم تقو على معاندة ميلها وهواها إلى الفن، فمكثت في القاهرة تبيت أسبوعاً في بيت أمها وشهراً في الفندق.

ومضت حياتها في السنوات السبع الأخيرة على هذا المنوال: تصعد في عالم الفن لتسعد جمهوراً أحلها مكانة متقدمة في عصر العمالقة، فيما كانت تلهث وراء يوم تسعد فيه نفسها فلا تصادف إلا المآسي.

غنت أسمهان قبل زواجها، وهي بعد في التاسعة عشرة لحنين لداود حسني وألحاناً لمحمد القصبجي، لكن من

يسمع هذه الأغنيات وبخاصة لحن القصبجي لكلمات يوسف بدروس، صديق العائلة: «كنت الأماني»، يحس عدم نضوج هذا الصوت، إذا ما قورن بصوت أسمهان الذي يعرفه العامة على الرغم من البشائر الواضحة فيه.

أول أغنية غنتها أسمهان بعد عودتها إلى القاهرة سنة 1937 للقصبجي، لحنه الأصولي الكبير: «ليت للبراق عيناً» وهو لحن غناه قبلها إبراهيم حمودة، ثم حياة محمد في فيلم «ليلى بنت الصحراء». والقصبجي أعطاها طائفة أخرى من أجمل أغنياتها تراوحت من القصيدة:

«أسقنيها بأبي» وهي قصيدة الأخطل الصغير الشهيرة، و«يا طيور»، وقصيدة أحمد شوقي «هل تيّم البان»، وغيرها من الأغنيات الخالدة.

ويُؤثَر عن أسمهان أنها لم تغن للشيخ زكريا أحمد، مع أنها غنت له ثلاث أغنيات على الأقل: «هديتك قلبي»، وقصيدة أبي العلاء المعري «غير مجد في ملتي واعتقادي»، و«عذابي في هواك أرضاه»، غير أن هذه الأغنيات لم تحظ بشهرة. كذلك غنت لحناً من ألحان أستاذها فريد غصن فور عودتها من دمشق هي «نار فؤادي».

وعلى الرغم من أن أسمهان هي أكثر مطربة تعلمت من أساليب محمد عبد الوهاب في تجديد فنون الغناء العربي وأصوله، إلا أنها لم تغن من ألحانه سوى أغنيتين في فيلم لم تظهر فيه، فيلم «يوم سعيد»، والأغنيتان هما: «محلاها عيشة الفلاح»، التي عاود

عبد الوهاب غناءها بصوته فيما بعد، و«أوبريت قيس وليلى»، شعر أحمد شوقي ويعدها النقاد الجديون العرب ذروة الفن الموسيقي والغنائي العربي بلا منازع.

ـ تحليل صوت أسمهان:

يقول الفنان فيكتور سحاب: «إن صوت أسمهان من حيث مساحته الصوتية يضم من التصنيفات الأوروبية للصوت النسائي فئتي السوبرانو والمتسوسوبرانو، وهو يمتد على أكثر من ديوانين، إذا احتسبنا صوت الرأس الذي تجيده بإبداع. ولذا فهو صوت كبير».

«إن أسمهان كانت تستخدم صوت الرأس الأوبرالي المرتفع في منتهى الحنان والدفء الإنساني والدقة والذوق السليم، والتعبير الفني وبلا أي نبرة صراخ».

«إن خامة صوت أسمهان أي نبرته هي لا شك من أجمل الأصوات المعروفة شرقاً وغرباً، وفيه من الأنوثة والدفء الإنساني ما يجعله متفوقاً بالمعايير العالمية».

«غنت أسمهان غناء سمته أنه عصري، لكنه مؤسس على أصول الغناء التقليدي الأصيل. هذه الملامح هي نفسها ملامح عبد الوهاب الذي تعلمت عليه».

«إن التعبير الإنساني يبقى أعظم ما في غناء أسمهان، وهو تعبير يكاد لا يستثني حالة من حالات المشاعر والأحاسيس الإنسانية. ففي أغنية «ليالي الأنس» تنتقل أسمهان بسرعة من مزاج إلى مزاج آخر وفقاً للحن والمعاني».

وفي أغنية «يا حبيبي تعال الحقني»، أربعة مقاطع على لحن يتكرر، والعبارات «من بعدك» و«أتألم»، و«في يدّك» و«يلين قلبك» تقولها أسمهان بأحاسيس مختلفة تؤدي تعبيراً مختلفاً في كل مرة، وفقاً للمعنى المطلوب، على الرغم من أن اللحن هو نفسه في العبارات الأربع، وعلى الرغم من أن العبارات المذكورة قصيرة للغاية، ولا مجال فسيحاً فيها للتعبير الإنساني الزاخم، إذ إنها تتشكل من علامتين موسيقيتين فقط. وفي أغنية «عليك صلاة الله وسلامه» تضفي أسمهان بصوتها مسحة خشوع، بخاصة عند نهاية كل مقطع: «دي قبلتك يا نبي قدامه».

وارتفعت في التعبير المسرحي إلى مستوى محمد عبد الوهاب، في المغناة المسرحية الخالدة «قيس وليلى»، في المحاورة وتصوير الحالات المسرحية الدرامية والنفسية المختلفة، كمثل حالة الحب، حين تناديه «قيس»، فيرد عليها: «ليلى بجانبي كل شيء إذن حضر»، وما تشحن به هذا النداء من حرارة عاطفية مشبوبة، وكمثل حالة التوتر والقلق والانفعال النفسي لدى مرأى النار: «ويح قيس ما أرى»، ثم «ويح قيس تحرقت راحتاه».

ـ مسيرة أسمهان الفنية:

سبع سنوات حافلة سبقت وفاتها، تعتبر من أفضل سنوات حياتها، نالت فيها الشهرة والمال، بعد تعرفها إلى طلعت حرب باشا، الذي قدمها مع شقيقها فريد إلى الموسيقيين والملحنين والإذاعة وشركات الأسطوانات، فأصبح منزل العائلة في ذلك الوقت، في حي غاردن سيتي يستقطب الملحنين والشعراء

والمنتجين والمخرجين، الذين كانوا يمطرون أسمهان بمشاريع غزيرة للسينما والمسرح، والجميع مأسور بشبابها وجمالها وأنوثتها الطاغية وصوتها المبدع.

أي سرّ في هذا الصوت المتلألئ الذي يأسر القلوب بشحناته القوية، وانحناءاته المفعمة بالدفء والحنان والشجن، بل قدرته على بصم أي لحن ببصمته، وتغليف الأنغام بخصوصيته، وإسباغ الصفة الدرامية الشجية عليه. صوت حمل كمّاً من الصفات التي كان يوصف بها صوت متكامل العناصر، وموهبة إلهية قلّما يهبها الله لحنجرة ما.

المستمع العادي يستطيع أن يشعر بأوتار الصوت المشدودة، الأقرب إلى صفاء الذهب، في رنينه ولمعانه. صوت أنثوي بالغ الإحساس، مرهف، يتلون مع كل أغنية، حسب مضمونها، ونوعية الدور المسند إليها في السينما، كما في الحياة.

ظهرت أسمهان في زمن العمالقة، في أوائل الثلاثينات. أصوات كبيرة راسخة في الآذان العربية وأذهانها ووجدانها، حين كانت مواصفات معينة في الصوت لم يمكن أن يخترقها أو تخرق قواعدها أي موهبة لا تتقيد بها، إلا أن ذهبية الصوت، أسمهان ـ كما وصفها الملحن محمود الشريف ـ لم يتجادل اثنان على جمال صوتها وعظمته وقدرته على سلب المشاعر. ليس بأنوثته ودفئه فحسب بل بمساحته التي هي هبة من الله في المرتبة الأولى حيث ضم صوتها أكثر من أوكتافين «ديوانين»، أي أكثر من خمس عشرة درجة على السلم الموسيقي. إضافة إلى قدرتها على التصويت من

الرأس، حسب أسلوب الغناء الأوبرالي الغربي المتعارف لدى مغنيات السوبرانو، وقد نستمع إلى بعض المغنيات العربيات يستخدمن هذه الطريقة وبخاصة اللواتي من أصول مغاربية: تونس والمغرب والجزائر، إلا أن أسمهان تميزت عنهن بصوت ينثني انثناءة الحرير الأصيل، وكان صوتها يأتي صافياً عريضاً واضحاً رناناً شجياً لا صارخاً حاداً، بل يتدفق في غاية الحنان والسلاسة والرقة.

ولو عدنا إلى أغنية «يا طيور» التي لحنها محمد القصبجي لوجدنا فيها كل مواصفات الصوت الأوبرالي الدرامي، تضاف إلى مواصفات الصوت الشرقي المعتق بأنغام الأصالة والملوّح بحرارة النبرة المقامية المشرقية بدقتها ورهافتها. فالمعروف في الأصوات العربية ذات المساحة الكبيرة إنها إما أن تكون متقنة للنغمات الغربية على حساب الشرقية، أو العكس، أما إتقان الأسلوبين معاً في الصوت الواحد فهو من النوادر وينطبق على أسمهان وفيروز، وأم كلثوم في بداياتها، والراحلة نور الهدى، وإلى حدّ ما على المطربة التونسية الراحلة ذكرى.

صوت أسمهان كان الوحي، والملهم لأنغام الملحنين الذين تعاونوا معها، وخبروا الصوت بتعابيره الدرامية، لا في مساحته الكبيرة فحسب، وبخاصة محمد القصبجي الذي لحن لها «يا طيور» وغيرها، وشقيقها الراحل فريد الأطرش الذي استوحى من صوتها أجمل الألحان، بدليل أن ألحانه لصوته ولغيره من مطربات ومطربين لم تصل إلى مستوى ألحانه لأسمهان، إذ وضع أكثر الجمل اللحنية تناسباً مع موهبتها الفذة وأكبر مثال على ذلك،

«ليالي الأنس»، إضافة إلى غنائها ضمن أسلوب الطرب التقليدي الذي كان متبعاً في تلك الفترة. إلا أن أسمهان وبسبب هذا الصوت الموحي بالتجديد والدراما جذبت الأسماع من خلال الألحان التي سبقت عصرها.

ـ حكايات الفقر والبؤس:

قصص أسمهان بدءاً بالفاقة في صغرها، تصلح بحد ذاتها لأن تكون مادة غنية لفيلم سينمائي من أكثر الأفلام تراجيدية، بقيت تقض مضجعها حتى وفاتها، إلى حدّ القيام بأي شيء أو عمل كي لا تعود إليها.

حين تتذكر تلك الفترة وترويها لصديقها التابعي تتألم كثيراً، وبخاصة أيام حيّ الفجالة وتعرّضها لسوء التغذية. في إحدى المرات نضب مورد الأسرة بعد سفر المليونير الأميركي الذي كان يمدهم شهرياً بما يوازي مئة دولار. في تلك الأيام عرفت أسمهان الجوع والحرمان إذ تذكر أن بيتهم خلا من أي طعام فأرسلتها والدتها لاقتراض بعض المال من الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، أحد الزعماء السوريين، وهو مقيم في القاهرة وعلى معرفة بأسرة أسمهان، وكانت قطعت مسافة بعيدة مشياً على الأقدام، وحين قابلته وأبلغته رسالة والدتها عن سوء حالهم قدم لها ريالاً واحداً، عادت به إلى أمها، وعندما رأته والدتها بكت وبكت معها أسمهان وقدّرت في ذلك الوقت بأنهم أوشكوا أن يتسوّلوا.

وفي قصة أخرى تذكر أسمهان أنها كانت تزور أسرة الأميرالاي محسن بك، وكانت دارهم في شارع الشيخ ريحان بالقرب من

ميدان عابدين. كانت تظن أنهم سيقلّونها بسيارتهم إلى منزلها في حيّ الظاهر، لكن السماء أمطرت بغزارة فعدلوا عن الخروج بالسيارة، وحين أقبل المساء والمطر لا يزال ينهمر خرجت بكبريائها وكأنها تريد أن تستقلّ سيارة أجرة، وقد خجلت أن تقول لهم إنها لا تملك قرشاً واحداً، فسارت تحت المطر وفي الوحول من عابدين حتى الظاهر وبعدها بقيت طريحة الفراش عشرة أيام.

وفي حكاية أخرى، تقول أسمهان:

«بدأت والدتي تعمل في خياطة الملابس للسيدات وكان ما تحصل عليه قليلاً لكنه يقي شر الجوع والفاقة. وذات يوم شاءت المصادفة أن تلتقي أمي في دار صديقة سورية بالأستاذ داود حسني وهو من الملحنين القدماء، وسبق أن تعاون مع العائلة فنياً، وهنا المفاجأة حيث سمع الملحن حسني صوت الوالدة عالية المنذر وهي تغني عند صديقتها وتنقر على الدف، فسألها لماذا لا تحاول استغلال موهبتها هذه مثل ولديها أمل وفريد خصوصاً أنها تملك الجمال والصوت الأصيل الذي ورثه فريد وأسمهان عنها وكانت والدتها تعرفت إلى سامي الشوا عازف الكمان المعروف وهو سوري الأصل من مدينة حلب، وهذان الموسيقيان ساعدا والدة أسمهان فنياً وأخذت تحيي الحفلات الخاصة عند بعض العائلات. واتسع رزق العائلة قليلاً حيث أمكنها إدخال فريد وأسمهان إلى المدرسة وإتمام الدراسة التي توقفت في بيروت.

وكانت عالية المنذر تعاقدت مع شركة «بيضافون» لتسجيل بعض أغنياتها على أسطوانات فتوسط الملحن داود حسني عند الشركة

نفسها كي تسجل أسمهان بعض أغنياتها على أسطوانات أيضاً وتقبض بعض المال.

ـ ملحنون وشعراء:

غنت أسمهان للعديد من الملحنين إلا إن أكثر الألحان التي غنتها كانت من نصيب شقيقها فريد الأطرش، «نويت أداري آلامي» عام 1937، «عليك صلاة الله وسلامه» كلمات بديع خيري، وفي فيلم «إنتصار الشباب» عام 1941، لحن لها: «يللي هواك شاغل بالي، يا ليالي البشر»، كلمات يوسف بدروس، و«كان لي أمل» لأحمد رامي، «يابدع الورد» لحلمي الحكيم، «إيدي ف إيدك»، «الشمس غابت أنوارها» لأحمد رامي، كذلك «أوبريت إنتصار الشباب» لأحمد رامي. وفي فيلم «غرام وانتقام» غنت لفريد «ليالي الأنس» كلمات أحمد رامي، «أنا أهوى» لمأمون الشناوي، وموال «يا ديرتي» لبيرم التونسي.

وفي العام نفسه غنت لفريد «رجعت لك يا حبيبي». وغنت له «أنا بنت النيل»، وكذلك «نويت أداري آلامي» و«الليل».

غنت لمدحت عاصم أغنية «دخلت مرة ف جنينة» كلماته وألحانه، «يا حبيبي تعال الحقني».

ولمحمد القصبجي غنت: «يا طيور» يوسف بدروس، «إمتى حتعرف» لمأمون الشناوي و«أنا اللي أستاهل» من فيلم «غرام وانتقام» عام 1944. «أسقنيها» 1940 للأخطل الصغير، «أين الليالي» عام 1944، «فرق ما بينّا» مطلعها ليوسف بدروس وبقيتها لعلي

شكري، «في يوم ما اشوفك»، «كنت الأماني»، «كلمة يا نور العيون»، «ليت للبراق عيناً» 1938، «هل تيم البان» لأحمد شوقي.

لرياض السنباطي: «أيها النائم» عام 1944، و«نشيد الأسرة العلوية» 1944 في فيلم «غرام وانتقام»، وقصيدة أحمد فتحي «يا لعينيك ويا لي»، وقصيدة لابن زيدون «أقرطبة الغرّاء» و«الدنيا ف إيدي والكل عبيدي». ولفريد غصن «يا نار فؤادي»، زكريا أحمد: «هديتك قلبي»، «عذابي في هواك أرضاه» وقصيدة أبي العلاء المعري «غير مجدٍ في ملّتي واعتقادي».

لمحمد عبد الوهاب غنت أسمهان أوبريت «قيس وليلى» للشاعر أحمد رامي، و«محلاها عيشة الفلاح» لبيرم التونسي.

ـ التابعي وأسمهان:

نشر محمد التابعي، كتاباً يحكي فيه قصته الكاملة مع أسمهان. ومحمد التابعي صاحب ورئيس تحرير مجلة «آخر ساعة» المصرية كان صديقاً أميناً وصدوقاً لأسمهان، وكان الشخص الوحيد الذي تسرّ له بالكثير من حكاياتها أيام الفقر وتخوفها الدائم من عودة تلك الأيام، وتشكو له كلما فاضت بها المشكلات.

التابعي سمع صوت أسمهان للمرة الأولى، حين مرّ بالصدفة بصالة ماري منصور، في شارع عماد الدين، وهناك تذكر أنه وعد منصور بالمرور عليها، فقرر هو ونفر من أصدقائه دخول الصالة، فلم يجد مكاناً، فتوقفوا لبضع دقائق للاستماع إلى صبيّة تغني على المسرح بصوت رقيق حزين. كانت نحيلة ترتدي ثوباً أسود اللون،

وقد لفت رأسها بإزار أسود، وكانت تغني وهي ساهمة تنظر أمامها من دون الالتفات يميناً أو يساراً، ومن دون أن تلقي بالاً إلى صيحات المعجبين. تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها التابعي أسمهان، ليلتها تركت في نفسه شعوراً بأنها إنسانة تبعث الرحمة في الصدور.

لم يعد التابعي إلى صالة ماري منصور ولم يسأل عن أسمهان حتى قرأ خبراً في الصحف عن زواج المطربة أسمهان من ابن عمها الأمير في جبل الدروز حسن الأطرش وأنها أصبحت أميرة فاستغرب، أو عزّ عليه أن يصدق أن فتاة من أسرة عريقة تحترف الغناء في شارع عماد الدين.

حتى كان العام 1939 رآها صدفة في الجامعة الأميركية في القاهرة، حين كان يهم بالدخول إلى قاعة بورت لسماع أم كلثوم، لم يتعرف إليها لكن صديقاً له قال له هل رأيت أسمهان ونحن ندخل؟ وفجأة تذكر التابعي ذلك الوجه بالإزار الأسود الذي رآه منذ ثماني سنوات في صالة ماري منصور، وعرف يومها أنها طُلقت من زوجها الأمير الدرزي، فقال: إذن لم تعد أميرة في جبل الدروز. فأجابه الصديق: كلا وعادت كما كانت المطربة أسمهان. وفي اليوم التالي اتصل به الصحافي أحمد حسن وقال له: إن أسمهان تريد أن تتعرف عليك؟

اللقاء لم يتم يومها، بل بعد أسبوعين وبطلب من محمد عبد الوهاب، حيث دعاه التابعي للمجيء إلى منزله فوراً من دون إعلامه بسبب استعجاله.

هنا يصف المؤلف سعيد الجزائري في كتابه «أسمهان ضحية الاستخبارات» أول لقاء بين التابعي وأسمهان: «. . . وحين وصل التابعي منزل عبد الوهاب، وجده ممسكاً بعوده، وأمامه أسمهان وكان الاثنان يراجعان أوبريت «قيس وليلى» وكانت أسمهان تغني لحظة دخول التابعي: «وما فؤادي حديد ولا حجر.. لك قلب فسله يا قيس ينبئك بالخبر»..

تسلل التابعي بهدوء وجلس في المقعد الخالي الوحيد، بجانب أسمهان، وبينما كانت أسمهان مشغولة عنه بالغناء، وهي التي طلبت أن تتعرف إلى التابعي قبل أسبوعين، أخذ ينظر إليها ويتأمل وجهها وهو مأخوذ بحلاوة صوتها الحزين، لكن الأذن ترتاح إليه، فوجهها ليس فيه جمال حسب المقاييس المعروفة، لكنها كانت جذابة وكلها أنوثة، أما أنفها فكان مرتفعاً أكثر بقليل مما يجب وطويلاً أكثر بقليل مما يجب، وفمها كان أوسع بقليل مما يجب وذقنها بارزة إلى الأمام أكثر بقليل مما يجب. أما عيناها (والكلام لا يزال للتابعي) فكان فيهما السحر والعجب والسرّ، لونهما أخضر داكن مشوب بزرقة، وتحميهما أهداب طويلة تكاد من طولها أن تشتبك، وقد لاحظ أنها كانت تجيد استعمال سحر العيون عند اللزوم. انتهت بروفة أوبريت «قيس وليلى» فقدم عبد الوهاب الأستاذ التابعي لأسمهان فمدت يدها بتثاقل وتكلف ساذج وظاهر... تشرفنا... ثم جلس الجميع، فأخذت تصلح من وضع الفراء الذي كان يحيط بعنقها وتتعمد إظهار الخاتم في أحد أصابعها وفيه فص ألماس، وقد احتارت أي ساق تضع على الأخرى، وكانت جميع حركاتها متكلفة وغير طبيعية، وأدرك التابعي أنها تريد أن تحدث أثراً طيباً

في نفسه، ومرة ثانية وبعد ثماني سنوات وجد أمامه الفتاة نفسها التي بحاجة إلى الرحمة في الصدور بل وتستحق العطف والرثاء».

وبعد ذاك اللقاء صار التابعي من أقرب أصدقائها بعد صديقتها ماري قلادة التي لقيت حتفها معها غرقاً.

الكل أحب أسمهان، وأسمهان أحبت من؟

لقد عرف عن كثيرين إعجابهم بأسمهان، واشتهرت قصص غرام بعضهم الآخر بها في الأوساط السياسية والفنية، هذا عدا عن رجال كثيرين عشقوها لكنهم لم يحظوا بكلمة منها أو حتى التفاتة أو اهتمام، حتى الرئيس الفرنسي شارل ديغول أبدى إعجابه بأسمهان إبان عملها مع الحلفاء.

كان الملك فاروق على رأس لائحة المعجبين، ومنذ أن بدأت الأضواء تسلط على أسمهان وبدأ اسمها يلمع في سماء الأغنية في مصر، وضعها ضمن اهتماماته وكان يرسل لها من يسأل عنها في محاولة لكسب ودها. وفي إحدى المرات أرسل لها مبعوثين خاصين مع تعليمات بأنه سوف يمنحها لقب «أميرة» رسمياً، لكن أسمهان ابتعدت عن طريق الملك بذكائها وتحاشت شباكه وسهامه، ليس تعففاً منها ـ حسب المؤلف ـ إذ لو كان ذا مرتبة أدنى كرئيس مجلس وزراء مثلاً أو وزير لما تأخرت في الاستجابة، لكن ابتعادها كان تقديراً منها للذات الملكية وخوفاً من التورط.

أما الملك فاروق فلم يستطع القيام بشيء حيال رفض أسمهان له، ذلك أنها فنانة معروفة ومحبوبة لدى الجماهير وأي إجراء قد يتخذه ضدها ربما يعرضه إلى افتضاح أمره.

أما أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي وحامل ختم الملك فكان الأكثر حظوة لدى أسمهان. كان يقابلها بشكل دائم في مكان إقامتها في جناح خاص في فندق «ميناهاوس»، لوجود هاتف يسهل عليها الاتصالات، وذلك رغم علاقته الحميمة بالملكة نازلي.

كان رجلاً وسيماً يفتن النساء ويلفت النظر في أي حفلة أو مكان بسبب أناقته ومظهره الرجولي واسمه المدوي وتاريخه المليء بالمغامرات الحالمة ومنصبه الخطير وحديثه الساحر وخبرته العميقة بالنساء وطباعهن. استلطفته أسمهان وأعجبت به، بل وشعرت تجاهه بالحب، فهو حامل كل صفات الرجولة والاحترام والكياسة وهذا ما تطلبه المرأة في الرجل غالباً.

أما أحمد حسنين باشا فقد اندفع نحوها بشكل كبير وتودد إليها كما أسلفنا وأصبح الأمر معروفاً لدى الجميع وقالوا إنه غارق في حبها.

إلا أن الغريب في الأمر أن باشا آخر كان يتردد على أسمهان في الوقت نفسه هو مراد محسن باشا، وكان مدير الخاصة الملكية ويقال إنه أحب أسمهان كثيراً لكنه كان أكثر تحفظاً واحتياطاً من أحمد حسنين باشا، وكانت هناك منافسة وغيرة بين الاثنين إلا أن مراد باشا أنهى علاقته بأسمهان بعد أن وصل إليه خبر علاقتها بأحمد حسنين باشا.

رغم العلاقة الوطيدة التي ربطت أسمهان بالصحافي الشهير محمد التابعي إلا أن التابعي يصرّ على أنها لم ترقَ إلى رابطة الحب أو الغرام، رغم أنه كان يذهب إليها في القدس في كل مرة تطلبه

فيها، وبخاصة تلك المرة التي تعرضت فيها إلى التهاب رئوي حاد فلم يتركها بل جلس يمرّضها ليلاً نهاراً حتى شفيت وبعد أكثر من عشرة أيام عاد إلى القاهرة، ويومها أرسل إليها ماري قلادة لكي تكون إلى جانبها لشهرين حتى تشفى تماماً لكنها بقيت معها ثمانية أشهر، وبعد ذلك لم تفارقها حتى غرقت معها في النيل.

التابعي نفسه قال بأنه كان يرتاح للجلوس معها، وهي كانت تطمئن إليه وتثق به وتلجأ إليه كلما نزلت بها شدة أو حرج كما حدث في أحداث عدة، واعترف التابعي أن أسمهان لم تحبه كما لم تحب أي رجل آخر بالمعنى الصحيح للحب، حتى أزواجها الشرعيين، ولكنها أحبته محبة من نوع خاص بها، (محبة أسمهانية) حيث إن قلبها كان يحمل للتابعي شيئاً أقوى من الصداقة والودّ، وقد اعترفت بذلك لبعض صديقاتها اللواتي سألنها عن حقيقة حبها له، ولكن ذلك لم يؤكد. أما التابعي نفسه فهو يؤكد أنها لم تُكنّ له أي حب، وهو ليس بمغرور كي يدّعي وهم حب لا حقيقة له ويقول: «نعم كانت تضمر لي وداً وصداقة وثقة وتقديراً ولكن هذا كل ما في الأمر».

ـ هل أغرم عبد الوهاب بأسمهان؟

كانت الراحلة في أثناء فترة ارتباطها بالأمير حسن الأطرش تزور القاهرة من فترة إلى أخرى، وفي هذه الزيارات تجتمع بالأصحاب ومنهم الفنانين كونها على معرفة ببعضهم وصداقة مع آخرين، وكونها من المعجبات بالموسيقي الكبير عبد الوهاب فتعرفت إليه وبادلها الإعجاب وكانت تزوره في داره وقيل إنهما تبادلا الغزل،

إلا أن الأمور لم تتطور أكثر من ذلك وتوقفت عند هذا الحد، والسبب، يقول الجزائري في الكتاب نفسه:

«. . . ـ حسب أسمهان نفسها ـ إن عبد الوهاب لم يعجبها، فهو في مجلس الغناء والطرب يعجب ويفتن أي أنثى، لكنه في مجلس العشق والغزل شيء آخر لا يعجب ولا يفتن وأكثر من ذلك وصفته بأنه رجل مغرور يريد من المرأة التي يحبها أن توفر له كل عناء الحب، عليها أن تكون لها جرأة الرجل وأن تترك لعبد الوهاب حشمة المرأة وحياءها وخفرها، أي أن الأوضاع الطبيعية بين الرجل والمرأة تنقلب مع عبد الوهابفهو يجلس مطرقاً برأسه وعلى المرأة أن تزحف إليه وعلى ركبتيها وليس عليه بعد ذلك إلا أن يتفضل ويقبل منها حبها وخضوعها وقبلاتها، وبعدها يبدأ بالمغازلة كيفما يشاء بعد أن يجد بين يديه امرأة مستسلمة له بكل جوارحها وعلى استعداد تام لأن تقبل منه أي تصرف سيادي أو جنسي، لذلك لم يعجب أسمهان لأنه حاول بطريقته الخاصة هذه أن يخضعها لحبه فلم يفلح، وحاول عبد الوهاب أن يعيد الكرة ويفرض الحب على أسمهان بعد طلاقها وعودتها إلى مصر فلم يوفق».

ـ زيجات أسمهان:

بدأت شهرة أسمهان في القاهرة منذ أن كانت في السادسة عشرة حيث بدأت تحيي الحفلات والأفراح وتتقاضى الأجور. وتحسنت حال العائلة مادياً، فانتقلت إلى شقة في منطقة غاردن سيتي، وبعدها زارهم ابن عمها الأمير حسن الأطرش من أجل طلبها للزواج. والدتها رفضت في البداية، ذلك أن أسمهان بدأت تعيل

العائلة وتدر عليها بعض الأموال، حسبما صرحت الراحلة فيما بعد. في ذلك الوقت كانت أسمهان ضعيفة ووالدتها تتحكم بآرائها وقراراتها. وبعد ذلك جيّش الأمير حسن الأطرش العشيرة ضد عالية المنذر، والدة أسمهان، وأبلغهم بأنها تغني في الملاهي وأن ولديها فريد وآمال يحترفان الغناء، فثارت ثائرة العشيرة، وخشيت الوالدة من العاقبة ومن بطش العائلة. وهكذا عاد العريس إلى مصر مرة ثانية ورتب الأمور وسجل لوالدتها منزلاً في دمشق ودفع لها مبلغ خمسمائة جنيه من الذهب تعتبر ثروة في ذلك الوقت وتوجهت أسمهان وابن عمها مع شقيقها فؤاد إلى جبل الدروز وتم الزواج وأصبحت تحمل لقب الأميرة آمال الأطرش.

وبعد أن أنجنت ابنتها كاميليا عام 1937 بسنتين، تم الطلاق بينهما، ثم تزوجت من المخرج المصري أحمد بدرخان في العام 1941.

كانت أسمهان تعمل بإدارة أحمد بدرخان في فيلم «إنتصار الشباب» مع شقيقها الراحل فريد الأطرش، وبديهي أن يلتقيا يومياً ويتبادلا الآراء والأحاديث وتشكو ما تتعرض له من حسنين باشا والملك فاروق وغيرهما من المعجبين وكانا يجتمعان إما في أحد المطاعم أو في استديو لبيب مصور الفيلم الفوتوغرافي. وكان بدرخان رقيقاً ولبقاً يحدثها حول خصوصياته أيضاً وحياته المضطربة وكان أن طلب منها الزواج في إحدى المرات وهي كانت بحاجة إليه لأسباب عدة، منها التخلص من بيت الأسرة حيث كانت تتعرض إلى معاملة سيئة من شقيقها فؤاد، إضافة إلى أن

أحمد بدرخان كان مخرجاً معروفاً في الوسط الفني، والأهم أنها كانت تعتبر أجنبية في القاهرة وزواجها من مصري يسهل لها الحصول على الجنسية المصرية. وبذلك كان زواجها العرفي من أحمد بدرخان، الذي لم يكمل الشهرين، ثم أنهاه الطلاق.

وفي العام 1942، تزوجت من المطرب المصري فايد محمد فايد في القدس، وانتهى أيضاً بالطلاق بعد ثلاثة أسابيع من عقد الزواج. وكانت تهدف من وراء هذه الزيجة إلى الحصول على تأشيرة دخول إلى مصر، بعدما منعها الإنكليز من العودة إليها.

كانت أسمهان قد التقت بالمخرج المصري أحمد سالم حين كانت تعمل في فيلم «إنتصار الشباب»، حيث كان يساعد في إدارة الفيلم، فنشأت بينهما صداقة، ما لبثت أن تطورت إلى زواج في العام 1944، لكنه لم يدم سوى أشهر معدودة. إذ بدأت أسمهان تتململ من الارتباط ومن غيرة أحمد سالم الشديدة عليها وهي التي اعتادت الحرية فدبرت اتصالاً له من تحية كاريوكا لكي يكون نواة خلاف بينهما، لكنه أحس بالظلم وحاول الانتحار مرتين وفي كل مرة كان يتم إنقاذه. وفي إحدى المرات حاول قتلها حين أطلق عليها النار من مسدسه ولم يصبها، هربت وطلبت البوليس فأصاب أحد الضباط بعيار ناري وأصيب هو أيضاً بعيار من مسدسه وبعد أن شفي قُدِّم للمحاكمة وسميت قضيته بمأساة أحمد سالم وأسمهان.

ـ عملها مع الاستخبارات:

يوم الجمعة 23 أيار/مايو عام 1941 اتصلت أسمهان هاتفياً بالتابعي وأبلغته أنها ستزوره في المساء، وهكذا كان. ففي هذه

الجلسة استحلفته بالقرآن أن لا يبوح لأحد بكلمة مما ستقوله له. وحينها أفشت له سرّ معرفتها ببعض ضباط الاستخبارات البريطانية وأنهم اتصلوا بها خلال اليومين الماضيين لتكليفها بمهمة في الشام. وأنها سبق وزودتهم بمعلومات حصلت عليها من بعض السياسيين المصريين واكتشفت بذلك إنها الطريقة المثلى للحصول على المال.

وكشفت أسمهان بذلك الكثير من أسرار الاستخبارات الألمانية «الغوستابو» في القاهرة، وألحقت بعملائهم وعملياتهم الجاسوسية أضراراً كبيرة، ولقي بعضهم مصرعه على أيدي الاستخبارات البريطانية، ونتيجة ذلك أصدروا حكماً بالتخلص منها، وعندما علمت الاستخبارات البريطانية بأن عميلتها مهددة بالإعدام قرروا تهريبها من مصر بتكليفها بمهمة جاسوسية جديدة في الشام عن طريق القدس.

وتحت تأثير الدهشة والذهول حذّرها التابعي خشية عليها، لكنها طمأنته بمعرفتها كيفية التصرف مع كبار الرجال، فكيف بضباط الاستخبارات الذين كما وصفتهم، يحترمون المرأة وعملها معهم!

كانت بريطانيا تود من أسمهان أن تبذل جهودها لإقناع زوجها الأمير حسن الأطرش وعشيرته بالتعاون مع قوات بريطانيا التي تنوي الدخول إلى سوريا ولبنان لطرد قوات فيشي التي سلمت زمامها إلى الألمان.

وبذلك منحت بريطانيا أسمهان رتبة فخرية «ميجر» أو «رائد»

لكي تنال إمتيازات خاصة مالياً واستشفائياً لدى المستشفيات البريطانية كأي ضابط بريطاني عند الحاجة.

البداية كانت في الأول من أيار/مايو عام 1941، حين التقاها نابيير يوغن ـ الذي كان يشغل منصب قنصل بريطانيا في دمشق، ثم انتقل إلى سفارة القاهرة في قسم الدعاية، وفي الوقت نفسه هو رئيس فرع الاستخبارات ـ وطلب منها لقاء والتر سمارت، حيث تناولت الشاي معه بحضور الجنرال البريطاني كلايتون، الذي طلب منها بصراحة السفر إلى القدس بالطائرة حيث سيقابلها أحد عملائهم ويعطيها التعليمات ثم تسافر إلى عمان ثم سوريا. ودفع لها كلايتون مبلغ خمسة آلاف جنيه على أن يدفع لها في فلسطين أربعين ألف جنيه لتوزعها على رؤساء العشائر في سوريا.

وحين عاتبها التابعي قالت له:

«أريد أن أخدم بلدي». وأضافت: «قل لي في مصر أعمل إيه وأعيش منين؟ لقد سمعت كلام الناس عني بالحق والباطل. والحبة عملوها قبة. وأجري من إذاعة القاهرة لا يكفيني وما جمعته من السينما صرفته وأنا لا أحب الغناء في الأفراح والحفلات العامة. ولقد كنت أرجو بعد نجاح فيلم «إنتصار الشباب» أن يقتصر عملي على السينما وحدها لكن العقد المبرم بيني وبين الدكتور بيضا يمنعني من العمل في أي فيلم آخر لمدة عامين وقد مضى منهما عام. بمعنى أن علي أن أدبر معيشتي عن طريق آخر غير السينما فماذا أفعل؟ هل أبقى في مصر وأرفض عرض الإنكليز؟

كانت أسمهان تعي قوة الدروز في ذلك الوقت وتأثيرهم

المعنوي والعددي والسياسي في الواقع السوري، ولما كان الحلفاء ينوون الزحف إلى سوريا ولبنان فمن الهام أن تنضم قوة أولئك إليهم، وأسمهان هي أنسب صلة وصل والأكثر تأثيراً بهذه القوة بسبب حب ابن عمها وزوجها الأمير حسن الأطرش لها، ومن هنا كانت هي واثقة من نجاح مهمتها.

وهذا ما كان حيث نجحت في إقناع عشائر الدروز من خلال الأمير حسن الأطرش بالانضمام إلى الحلفاء. ولكنها خلال جولاتها ورحلاتها بين القدس وجبل الدروز شعرت بمدى الخطر الذي أوقعت نفسها فيه وتمنت لو تستطيع العودة إلى القاهرة وتترك هذه المغامرة، لكنها كانت وصلت في منتصف الطريق الذي لا يمكن العودة إلى أوله، وكانت تقبض مخصصات ورواتب رؤساء العشائر وتدفعها لهم بانتظام وبخاصة بعد أن تزوجت الأمير حسن الأطرش مرة أخرى واستقرت في السويداء. وهكذا هددتها الاستخبارات الألمانية والسلطات الفيشية بالتوقف عن مهمتها لكنها استمرت، مما اضطرها تحت الضغوط والخطر أن تغادر سوريا هرباً، وتحت جنح الظلام وعلى صهوة جواد، وقد دهنت وجهها باللون الأسود وارتدت لباس أحد العبيد بصحبة الأمير فاعور، الذي غادرها ما أن وصلا الحدود الفلسطينية. ومن هناك وصلت إلى فندق الملك داود، وحصلت نتيجة مهمتها على عشرين ألف جنيه، عاشت منها حياة بذخ ملأت بها ليالي القدس ولائم وسهرات.

وكانت النتيجة زحف القوات الفرنسية قوات ديغول والحلفاء نحو سوريا ولبنان وقضوا على القوات الفيشية واحتلوا البلاد.

كان على الاستخبارات البريطانية أن تنتهي من أسمهان لأسباب عدة أولها إن أسمهان لم تلتزم بالصمت، إذ كانت تذيع الأسرار بعد أن يستبد بها المشروب في السهرات والأمسيات، ثم أنها أثارت الشكوك حول بذخها والأموال الهائلة التي كانت تصرفها وهي معروف عنها قلة أعمالها الفنية سواء في الغناء أم في السينما، وإن كانت زوجة أحد الأمراء. إضافة إلى تورطها بالسفر مع العميل الألماني فورد، حين أعادتها السلطات البريطانية من الحدود السورية ـ التركية، وهذه هفوة سجلت في ملف أسمهان المهني، الاستخباراتي.

ـ أفلامها:

لم يتسن لأسمهان تثبيت أقدامها كممثلة ومغنية في عالم السينما، لانشغالها طوال سنوات، بزواجها المتذبذب من ابن عمها حسن الأطرش، وعملها مع المخابرات وهذان الأمران تطلبا منها تنقلات دائمة بين دمشق وبيروت والقدس والسويداء والقاهرة، في فترة تعتبر طويلة نسبة لحياتها القصيرة.

لو تسنى لها العيش مدة أطول، لاستطعنا أن نشهد إمكانات أكثر وأفلام أخرى، ربما، ولتمكنت أسمهان من إثبات موهبتها في التمثيل أيضاً ولنافست بذلك ليلى مراد التي احتلت عرش السينما الرومانسية والاستعراضية فيما بعد. فحياة أسمهان المليئة بالعذابات تركت أثرها على ملامح الوجه، وأودعت الحزن في عيونها الواسعة المتلألئة دوماً بالدمع وغياب البسمة عن ثغرها، وجسدها الناحل المتعب، كل ذلك يضاف إليه إن أول أدوارها في السينما، هو نفسه أول أدوار حياتها الحقيقية، مثلت في «إنتصار الشباب» من دون أن

تمثل، لأنها عاشت اللحظات نفسها مع شقيقها فريد الأطرش، فكان فيلمها الأول الذي أخرجه أحمد بدرخان ولحن فريد أغنياته، وشاركهما التمثيل حسن فايق وبشارة واكيم.

كان «غرام وانتقام» فيلمها الثاني والأخير الذي لم تنهه بنفسها بل القدر أنهاه بغرقها.

في العام 1944 كتبه وأخرجه الراحل يوسف وهبي، ولحن أغانيه فريد الأطرش، شاركها التمثيل أنور وجدي ومحمود المليجي.

ـ أقوال في صوت أسمهان:

الملحن الكبير داود حسني الذي كان له صيته يومذاك، أطلق عليها اسم أسمهان، إذ استقبله فريد المطرب الناشئ، غنى أغنيات من ألحان حسني، ومن ثم سمع آمال تغني في غرفتها فطلب إحضارها وغنت أمامه فدمعت عيناه وقال: «كنت أرعى فتاة تشبه آمال وصوتها الجميل إلا أن الموت كان أسبق لها من الشهرة، لذلك فأنت من الآن ستحملين اسمها الفني (أسمهان)».

محمد القصبجي زار عائلة أسمهان في حي الفجالة، وسمع صوتها وقال: «هذا صوت من الجنة».

رياض السنباطي قال: «إن أسمهان هي المطربة العربية الوحيدة التي وصلت إلى مرتبة منافسة لأم كلثوم، رغم قصر عمرها الفني.

الشيخ محمود صبح سمع أسمهان تغني لأم كلثوم فقال: «عندما ينضج صوتك يا أسمهان سيكون لك شأن عظيم».

محمد عبد الوهاب قال: «إن أسمهان فتاة صغيرة لكن صوتها صوت امرأة ناضجة».

محمد محمود خليل، الوزير السابق ورئيس مجلس الشيوخ في مصر أيام الملك فاروق، بعد أن سمعها للمرة الأولى تغني قال: «البنت دي تقدر تكتسح عالم الغناء في مصر فهي جميلة ومهذبة ومتعلمة وبنت أصل وصوتها جميل».

حسب الموسيقي سليم سحاب، فإنه لم يكن ثمة جدل في عظمة صوت أسمهان. لكن الجدل كان في المفاضلة بينها وبين أم كلثوم، سيدة الغناء العربي بلا منازع.

فريد الأطرش قال إنها ربما تنافس أم كلثوم عبر ألحان القصبجي، لو تسنى لها العيش سنوات أطول.

فيما يخالفه الرأي الناقد المصري كمال النجمي في كتابه «الغناء المصري»، حيث قال إنه لو قدّر لأسمهان أن تعيش عمراً أطول لما كان في مقدورها أن تنافس أم كلثوم، على رغم عظمة صوتها وإحساسها وأدائها، لأنها كانت تحيا حياة صاخبة، فلا تُعنى بصحتها وسلامة حنجرتها، والدليل جهد صوتها في أغنيات فيلم «غرام وانتقام».

ـ النهاية:

أحست أسمهان بالإرهاق إبان تصويرها لفيلم «غرام وانتقام» فأخذت إجازة من مخرجه يوسف وهبي لتذهب إلى منطقة رأس البر ترتاح فيها بضعة أيام على شاطئ البحر مع صديقتها ماري قلادة.

استقلت السيارة في الثامنة من صباح الجمعة 14/ 7/ 1944 وجلست مع قلادة في المقعد الخلفي، وحين وصلت السيارة إلى منطقة بين قرية طلخا ومدينة المنصورة، أوهم السائق الذين يشاهدونه والضحيتين بأنه فقد سيطرته على السيارة وانحرفت بسرعة وسقطت إلى يمين الطريق حيث الترعة، فرع من النيل، وهي نهر عمقه ثلاثة أمتار وفي هذه اللحظات استطاع السائق أن يقفز من السيارة ولم يصب بأذى في حين سقطت السيارة بأسمهان وماري في الماء بسرعة وغمرتها المياه قبل أن يتمكن أحد من إنقاذهما.

وساد الاعتقاد بعد ذلك وحتى الآن، إن السائق تم تدريبه من قبل الاستخبارات البريطانية لأجل إنهاء حياة أسمهان بهذا الشكل المفجع، إذ تمت تصفية الكثير من الأسماء المعروفة بهذه الطريقة. رغم أن أسمهان تعرضت إلى محاولات اغتيال سابقة، أو حوادث قد تكون صدفة لكنها كانت قاتلة نجت منها بأعجوبة. وقد أشارت أصابع الاتهام إلى جهات عدة أخرى، منها شقيقها فؤاد الذي كان غاضباً منها والملك فاروق الذي رفضته ولم تستجب لنزواته، والملكة نازلي بسبب تحديها الدائم لها وأخرى لأم كلثوم التي أشيع أنها كلفت السائق بالتخلص من أسمهان، لأنها كانت منافستها على قمة الغناء، ثم زوجها أحمد سالم رغم توقيفه بتهمة محاولة قتلها.

يذكر أن أي ذكر للسائق لم يرد في التحقيقات أو المقالات أو الاتهامات ولم يعرف مصيره حتى اليوم.

يوم ماتت أسمهان انتحر شاب عراقي في بغداد كان من عشاق صوتها، إذ ألقى بنفسه في نهر دجلة. وفي دمشق حاول شاب آخر

الانتحار متناولاً كميات من الدواء وأنقذ في المستشفى، وفي بيروت انتحرت فتاة لبنانية ملقية نفسها من أعلى صخرة الروشة.

دفنت في أرض النيل كما دفن إلى جوارها فيما بعد الراحل فريد الأطرش حسب وصيته. وهكذا سميت فيما بعد عروس النيل وهي التي غنت «أنا بنت النيل» لتنهي بغيابها رحلة قصيرة، شاقة، تاركة صوتها يرن في أرجاء المعمورة.

يذكر أن مواقع الكترونية خصصت لها في الآونة الأخيرة على الإنترنت من قبل عشاقها، بعد أن كتبت عنها كتب عديدة، ومقالات لا تحصى، في الصحافة اليومية والأسبوعية العربية، وكاسيتاتها تملأ الإذاعات، والفضائيات تستعيد بعضاً من مشاهدها الاستعراضية القليلة في فيلميها.

صوتها ما يزال المدرسة التي تنهل منها عاشقات الغناء في الشرق في محاولات منهن بلوغ ذروة هذا الصوت من دون الوصول إلى هذا الهدف، وكم من محاولات سينمائية لإنتاج قصة حياتها فشلت حتى الآن ولم نعرف أسباب الفشل، لكن يبقى التمني أن يرى فيلماً عن أسمهان النور ليكون عبرة للأجيال وليوثق لحياة فنانة تركت أثراً في الغناء العربي الجميل.

تنبأ لها أحد الفلكيين المعروفين الأسيوطي بأنها ستكون ضحية حادث وستنتهي في الماء. وهذا ما حدث. تلك هي أميرة الجبل، الفرس الشقراء التي لم تطق قيداً والتي سميت فيما بعد بـ «عروس النيل».

اللورد موين
(... ـ 1944)

ـ المحاربون لأجل إسرائيل «شتيرن»:

عرف تاريخ الدولة الإسرائيلية قبل العام 1948 العديد من المنظمات الصهيونية، غير أن منظمة «لحمي حيروت إسرائيل» أو «المحاربون من أجل حرية إسرائيل» ـ المعروفة اختصاراً بالاسم العبري «ليحي» أو «شتيرن» نسبة إلى مؤسسها ـ كانت واحدة من أكثر المنظمات الصهيونية خطورة وشهرة، إذ ارتبط اسمها باغتيال الوزير البريطاني المقيم في الشرق الأوسط اللورد موين عام 1944 ونسف سرايا يافا عام 1947 والإشتراك في اغتيال الكونت برنادوت في سبتمبر/ أيلول 1948.

ـ النشأة:

بعد موت المفكر والسياسي اليهودي جابوتنسكي عام 1940 حدث انشقاق في منظمة «الأرغون» فخرج أبراهام شتيرن ليؤسس مجموعة أطلقت على نفسها «لحمي حيروت إسرائيل» أي «المحاربون من أجل حرية إسرائيل» وتسمى

اختصاراً «ليحي» ثم اشتهرت أكثر باسم «شتيرن» نسبة إلى مؤسسها.

ـ أسباب الانشقاق:

كانت منظمة «شتيرن» تميل إلى العمل المستقل بعيداً عن وصاية المنظمة الصهيونية العالمية وحتى عن «الهاغاناه» نفسها التي كانت تصطدم معها أحياناً في بعض المواقف السياسية. وتلخصت أسباب انشقاقها عن الأرغون في النقاط التالية:

- إصرار المنظمة على استمرار الحرب ضد قوات الإنتداب البريطاني حتى ولو كانت بريطانيا تحارب ألمانيا النازية.
- رفض التطوع في الجيش البريطاني رغم أن جابوتنسكي كان ميالاً إلى هذا الاتجاه.
- رغبتها في التعاون التكتيكي مع أي شخص يقف بجانبها في عملياتها العسكرية ضد الإنتداب البريطاني التي رأت فيه ـ رغم تعاون سلطات الإنتداب مع العديد من المنظمات الصهيونية الأخرى ـ عائقاً أمام الإسراع بتحقيق حلم قيام الدولة الإسرائيلية.

ـ الأهداف:

تبنت شتيرن أهدافاً شديدة التطرف وسعت إلى تطبيقها بشتى الطرق، ومن هذه الأهداف:

- تحرير فلسطين ممن أسمتهم المحتلين العرب.
- إقامة مملكة يهودية حرة وديمقراطية من النيل إلى الفرات.

- الدعوة إلى إنشاء جيش يهودي مستقل.
- محاربة بريطانيا حتى ترحل بجيوشها عن فلسطين تمهيداً لإقامة المملكة اليهودية.
- تأليف لجنة وطنية تكون أشبه بحكومة مؤقتة خلال الحرب.
- تبني خطة للهجرة الطوعية والمنظمة إلى فلسطين.
- وجود تمثيل يهودي موحد في مؤتمر الصلح.

- أهم عملياتها:

- اغتيال اللورد موين:

لقي أبراهام شتيرن مصرعه على يد القوات البريطانية عام 1942 بعدما تعقبته وتمكنت منه، فقرر أنصاره في منظمة «شتيرن» الثأر له فاغتالوا الوزير البريطاني المقيم لشؤون الشرق الأوسط اللورد موين في القاهرة يوم 6/ 11/ 1944.

- قاتلو اللورد موين:

أحياناً يدخل التاريخ من بوابة الخروج.. وربما خرج من بوابة الدخول.. ساعتها لا يعرف الفرق بين ساعة الإقلاع وساعة الوصول.. بين الفاعل والمفعول.. بين القاهرة وسيول.. بين خطوط العرض وخطوط الطول.. لكن..

المؤكد أنه في تلك اللحظة سينتقل التاريخ من مجهول إلى مجهول.. من مقتول إلى مقتول.. من لا معقول إلى لا معقول.. سيتحول من حيوان وديع أليف إلى غول.

لا تصدق أن التاريخ هو دائماً شخصية عظيمة تستهويها فقط الأحداث الجسيمة.. والتحولات الكبيرة.. إنه في كثير من الأحيان يتوقف عند تصرفات امرأة جميلة.. مريبة.. يدفعها إلى سباق مسافات طويلة.. يساعدها في تحقيق أهداف بدت مستحيلة.. بخيلة.. لا تنفع معها حيلة.

لقد توقفت أكثر من مرة عند قراءة قصة «جونسون وماتيلدا» وهي قصة مجهولة لم تنل شهرة قصة «روميو وجوليت» فلا رسائل غرام.. ولا غزل في كلام.. ومن ثم لم تسجل القصة في كتاب الحب.. لكنها وجدت نفسها في كتاب الحرب.

إن جونسون هو ليندون جونسون الرئيس الأميركي الأسبق القادم من تكساس.. بقعة الأرض العنيدة.. ناشفة الرأس التي ينتمي إليها الرئيس الحالي جورج بوش.. أما ماتيلدا فهي ماتيلدا كريم.. عجينة الأنوثة التي طلبت رأس جمال عبد الناصر مهراً لها لتعطي كل ما عندها.. على طريقة سالومي التي رقصت عارية لزوج أمها الملك هيرودوس مقابل رأس يوحنا المعمدان.

شيء ما في تكساس على ما يبدو جعلها لا تبلع العرب.. إن تلك الأرض التي تفجر النفط تفجر العنف.. ولا تميل إلى التفاهم.. شعارها الخالد: «من ليس معنا فهو علينا».. من ليس معنا هو عدو مطلوب حياً أو ميتاً، وطبقاً لهذا القانون وقعت حرب الخليج الثانية.. والثالثة.. وقبل ذلك هزيمة يونيو.. وحكاية جونسون وماتيلدا.

في حرب أيار/مايو 1967 كان جمال عبد الناصر قد أغلق خليج

العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية وطلب من قوات الأمم المتحدة أن تترك مواقعها على خطوط الهدنة.. في ذلك الوقت أيضاً كان ليندون جونسون يرقد بملابس السباحة في مزرعته الواقعة على نهر بدرناليس، وكانت ترقد بالقرب منه ماتيلدا كريم عارية تقريباً، وقد تناثرت على الأرض برقيات وتقارير هيئة الأمن القومي الأميركي عن البركان الذي بدأ يفور ويغلي في الشرق الأوسط.. ووسط كومة الأوراق كانت هناك علبة من القطيفة الزرقاء مبطنة بحرير من اللون نفسه يضاعف من بريق ساعة من البلاتين مرصعة بالماس.. وعندما مد جونسون يده إليها وفتحها وقدمها إلى ماتيلدا رفضت قبولها.. إنها حورية من حوريات البحر.. لا يغريها الماس.. إن رشوتها مستحيلة.. إنها تريد بحار الفيروز في سيناء التي تاه فيها من تعتبرهم أجدادها بعد خروجهم من مصر.. لا تريد سواها مهراً لها.. وكان على الكاوبوي العجوز أن يستجيب لينال الرضا والقبول.

في دراسته الهامة والجادة والمتأنية والمدعمة بالوثائق عن حرب حزيران/ يونيو يقول الباحث الأميركي دونالد ديف: «إن من سوء الحظ أن الرئيس جونسون أسلم نفسه لمشاعر امرأة متحيزة هي ماتيلدا كريم في ساعات عصيبة ومعقدة بعوامل وأجواء أزمة دولية خطيرة»[1].

إنها الاعتبارات الشخصية التي لا نتصورها كثيراً ونحن نقرأ التاريخ أو نكتبه.. إن معظم النار من مستصغر الشرر.. وهناك من

---

(1) «الانفجار»، محمد حسنين هيكل، صفحة 600.

يؤكد أن بوش الابن يريد بضرب العراق تسوية حسابات عائلية قديمة بين صدام حسين وبوش الأب.. وهناك من يؤكد أن كراهية بوش الابن لياسر عرفات مسألة شخصية أيضاً.. لقد قرأنا مؤخراً حواراً على لسان رئيس وزراء تركيا الأسبق سليمان ديميرل قال فيه: «إن ياسر عرفات رفض استقبال بوش الابن في العام 1998 عندما قام بجولة تمهيدية لانتخاباته الرئاسية في الدولة العبرية والضفة الغربية.. وقد استقبله الإسرائيليون بكامل أحزابهم وهيئاتهم لكن.. الفلسطينيين الذين كانوا يراهنون على منافسة آل جور تهربوا منه.. ولم يقابلوه.. فكان أن تصرف فيما بعد على طريقة التكساسيين.. وترك عواطفه الشخصية تقود مواقفه السياسية». وهو ما سبق أن فعله تكساسي أكثر صرامة هو ليندون جونسون الذي كان دمية بين أصابع ماتيلدا كريم.

ولدت ماتيلدا كريم في العام 1927، كانت في الأربعينيات من عمرها يوم طلبت من جونسون أن يعلق شواطئ سيناء عقداً من الفيروز حول رقبتها.. لكنها في ذلك الوقت كانت تبدو أصغر من ذلك بكثير.. الأب كاثوليكي سويسري.. الأم يهودية إيطالية.. وقد أخذت من الأب العقلية الدقيقة المنظمة.. وأخذت من الأم الفتنة والجاذبية والدماء الساخنة التي رشحتها للعمل في هوليوود لمنافسة صوفيا لورين.. لكنها رفضت.. وفضلت أن تعيش حياة مختلفة.

ويقول هيكل: «يبدو إن تأثير الأب والأم معاً منحها جاذبية لا تقاوم بشهادة الذين عرفوها عن قرب». ويستطرد: وكانت حياتها

حافلة.. فقد انفصل والدها عن أمها أثناء طفولتها وألحقت هي مدرسة داخلية كاثوليكية.. ولم تقض غير سنوات في هذه المدرسة حتى غادرتها وظهرت في روما.. ثم اختفت من روما لتظهر في إسرائيل ملتحقة بمعهد «وايزمان» لعلوم الطبيعة وواقعة في غرام شاب من أعضاء جماعة «شتيرن» الإرهابية.

الشاب اسمه ديفيد دانون كان الرأس المدبر لحادث اغتيال اللورد موين وزير الدولة البريطاني لشؤون الشرق الأوسط ومقره في القاهرة والمسؤول عن توفير احتياجات قوات الحلفاء في المنطقة أثناء الحرب العالمية الثانية وكان الهدف من اغتياله إجبار بلاده على التسليم بالمطالب الصهيونية في فلسطين وعلى رأسها فتح الأبواب أمام أعداد متزايدة من المهاجرين اليهود، لقد ساهم ديفيد دانون في تخطيط عملية الاغتيال وفعل ذلك بتكليف مباشر من إرهابي محترف سيصبح فيما بعد رئيساً لوزراء إسرائيل هو إسحق شامير.

نفذ العملية شابان كانا من أقرب الأصدقاء إلى قلب دانون هما إلياهو حكيم ـ وانتحل اسم بورنشنين ثم موسى كوهين ـ وإلياهو بن تسوري ـ وانتحل اسم حبان ـ، وقد تسللا من فلسطين بأوراق جنديين بريطانيين مزورة.. ووصلا في أول تشرين الثاني/ نوفمبر 1944 إلى القاهرة.. وفي صباح 6 تشرين الثاني/نوفمبر من العام نفسه، استأجرا دراجتين، انطلقا بهما إلى بيت اللورد موين في الزمالك ووقفا بجانب الباب الخارجي للحديقة وفي يد كل منهما مسدس.. وفي الساعة الواحدة والربع تقريباً جاءت سيارة الوزير البريطاني يقودها العريف أرثر فوللر وبمجرد أن وقفت السيارة بدأ

إطلاق النار، وفي المستشفى بعد ساعات مات اللورد موين متأثراً بجراحه وبواسطة رجل بوليس شجاع اسمه محمد عبد الله أمكن القبض على الجناة بعد مطاردتهما في ضاحية الزمالك التي كانت هادئة وحوكم القاتلان. . وأعدما شنقاً.

أصيب دانون بصدمة نفسية حادة بعد إعدام صديقيه جعلته يعتزل العمل الإرهابي السري ويتفرغ للدعاية السياسية الصهيونية.

ويقول هيكل: «وفي ظروف حرب 1948 عاد دانون إلى الخدمة في قوات الهاجاناه وفي ذلك الوقت تزوج ماتيلدا التي تركت الكاثوليكية وأصبحت يهودية متحمسة للصهيونية». . ولكن دانون مات في ظروف غير معروفة وبعد سنوات ظهرت ماتيلدا في نيويورك وقد استقرت هناك وتزوجت من رجل أعمال أميركي يكبرها سناً هو أرثر كريم وتحولت المقاتلة الجميلة إلى سيدة مجتمع وبدأ نجمها يلمع في نيويورك وواشنطن. . وتعرف جونسون عليها وعلى زوجها في الفترة التي كان فيها نائباً للرئيس جون كيندي وربما كان أول ما جمع جونسون وماتيلدا هو الحماس الزائد لإسرائيل، وقد روت مرة أن جونسون قال لها في أول مرة قابلها بعد اغتيال كيندي: «إنني أعرف أنكم تعتبرون كيندي صديقاً لإسرائيل وهذا صحيح ولكن قولي لأصحابنا إن إسرائيل فقدت صديقاً في البيت الأبيض وربحت صديقاً أفضل منه في نفس المكان».

ولم يتضح عمق العلاقة بين جونسون وماتيلدا إلا عندما أصبح جونسون رئيساً وتركزت الأضواء عليه وعلى حركاته وسكناته وعلى

الذين يقابلهم ويختلط بهم باعتبار أن الرئيس هو بؤرة الاهتمام وملتقى الأضواء في العاصمة الأميركية، وكانت ماتيلدا تقترب من الأربعين في وقت وصل فيه جمالها إلى ذروته وفي الوقت نفسه أكسبتها التجارب المتنوعة خبرة مذهلة في سرعة ترويض الرجال مهما كانت صلابتهم ودرجة مقاومتهم، لقد وصفها الذين يعرفونها بأنها امرأة مباشرة مثل الرصاص، متوهجة كالسيف.. لا يعرف الرجل الذي يهواها متى تعانقه ومتى تخنقه.. ووصفوها بأنها مزاجية متسلطة لا تقبل أن تعيد كلمتها مرتين، وكانت هناك أوصاف أخرى نترك للخيال الإمساك بها.

وكان أصدقاء جونسون وكذلك صفوة معاونيه يعرفون تأثير ماتيلدا عليه وكانت هي وزوجها معه على الغذاء أو العشاء أكثر من مرة في الأسبوع في البيت الأبيض، كما أن إجازاته ـ بما فيها أيامه التي كان يقضيها في مزرعته في تكساس ـ كانت جميعها في صحبة ماتيلدا، وكان مغرماً بركوب الخيل معها، وكان يقوم بنفسه بإعداد الباربكيو (الشواء) ويترك نفسه على طبيعتها.

وكان مكتب الاتصالات في البيت الأبيض وكل العاملين فيه يعرفون أن تليفونات ماتيلدا للرئيس لا يمكن ردها أو تأجيلها مهما كانت مشاغل الرئيس. وتسجل دفاتر المحادثات التليفونية في البيت الأبيض أن تليفونات ماتيلدا كان لابد من تحويلها إلى الرئيس حيث هو حتى لو كان في إجتماعات مجلس الأمن القومي، وكذلك كانت هي الشخص الوحيد ـ إلى جانب مستشار الأمن القومي ـ تملك سلطة إيقاظ الرئيس من نومه لو طلبت ذلك.

وفي معظم الليالي التي كان جونسون فيها غير مرتبط بعشاء رسمي فإنه كان يفضل تناول العشاء معها، وعندما كانت تقتضيه الظروف أن يذهب إلى نيويورك فقد كان يذهب كل ليلة ليكون في صحبة ماتيلدا في الشقة الفاخرة التي كانت تعيش فيها مع زوجها في مانهاتن[1].

وفي البيت الأبيض كانت زوجة جونسون لا تعترض على تصرفات زوجها، فهي لا تصدق أنها السيدة الأولى، لا تصدق أنها أخطر وأقوى امرأة في بلادها، وقد قالت عن نفسها: إنها مثل متفرجة حملوها إلى خشبة المسرح لتؤدي دور البطولة في مسرحية لم تتدرب عليها، بل ولم تقرأ نصها.. ويكشف أنيس منصور في كتابه «السيدة الأولى» ما يضيف إلى هذه الصورة الكثير من الأضواء والظلال، يقول: «إنها عندما ولدت وصفها الأطباء بأنها صغيرة الحيوية كالخنفساء، والتصق بها هذا الاسم: ليدي بيرد.. ولكنها كانت تكتبها كلمتين بدلاً من كلمة واحدة ليدي.. بيرد.. وعندما أصبحت السيدة الأولى ندمت على أنها لم تغير شيئين: اسمها وأنفها».

كان لا بد لنا من التطرق إلى هذه القصة القصيرة والمشوقة من حياة هذه المرأة ـ ولو خرجنا قليلاً عن موضوعنا الأساسي وهو اغتيال اللورد موين ـ لنرى ماهية الحكم وأنواع الحكام في أميركا، والذين اليوم يحاولون السيطرة على العالم.

(1) هيكل، المصدر السابق، صفحة 601 ـ 602.

أحمد الخازندار
(... ـ 1948)

اغتال اثنان من الإخوان المسلمين في 22 آذار/مارس 1948 المستشار أحمد بك الخازندار، وذلك بسبب إصداره حكماً قاسياً على أحد أعضاء الجماعة سبق أن اتهم بالهجوم على مجموعة من الجنود الإنجليز في أحد الملاهي الليلية، واكتشف البوليس الصلة بين الشابين وبين مجموعة المقطم وبين جهاز سري مسلح داخل جمعية الإخوان المسلمين، وقبض لوقت قصير على المرشد حسن البنا نفسه، ولكنه لم يلبث أن أفرج عنه لعدم توافر الأدلة.

الشابان هما محمود سعيد زينهم، وآخر. وقد قبض عليهما وسيقا إلى المحاكمة وحكم عليهما بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة.

ويقول الشيخ يوسف القرضاوي في مذكراته عن الحادث: «لم يكن للأستاذ حسن البنا المرشد العام علم بهذه الحادثة، ولا أذن فيها، ولا أخذ رأيه فيها. إنما الذي تولى كبرها، وحمل

تبعتها هو النظام الخاص ورئيسه عبد الرحمن السندي، الذي دبر العملية وخطط لها، وأمر بتنفيذها، ولما سئل: كيف تقوم بمثل هذا العمل، دون أن تأخذ أمراً صريحاً من المرشد العام؟

قال: إني سمعت من المرشد ما يفيد جواز قتل هذا القاضي، وإن لم يكن تصريحاً.

قيل له: وماذا سمعت من المرشد؟

قال: عندما أصدر القاضي الخازندار حكمه على بعض شباب الإخوان في إحدى الحوادث بالحكم سبع سنوات، في حين حكم في قضية أخرى من أخطر القضايا على المتهم بالبراءة، قال: ربنا يريحنا من الخازندار وأمثاله.

قيل له: وهل مثل هذه الكلمة تعطيك فتوى بشرعية قتله، مع أن مقصود الأستاذ: ربنا يريحنا منه بتعيين القضاة العادلين الصالحين، أو بالموت أو بالعزل، وليس بالقتل. فالقتل لا يحل المشكلة قط.

ولقد سمعت من الأخ الكبير الأستاذ محمد فريد عبد الخالق، وكان رئيساً لقسم الطلاب في ذلك الوقت، وكان من القريبين من الأستاذ البنا، يقول: إنه دخل على الأستاذ البنا، بعد نشر وقوع الحادثة، فوجده أشد ما يكون غضباً وحنقاً، حتى إنه كان يشد شعره من شدة الغضب، وقال له: أرأيت ما فعل إخوانك يا فريد؟ أرأيت هذه الجريمة الحمقاء؟ إني أبني وهم يهدمون، وأصلح وهم يفسدون. ماذا وراء هذه الفعلة النكراء؟

أي مصلحة للدعوة في قتل قاض؟ متى كان القضاة خصومنا؟؟ وكيف يفعلون هذا بدون أمر مني؟ ومن المسؤول عن الجماعة: المرشد العام أم رئيس النظام الخاص؟

هؤلاء سيدمرون الدعوة. إلى آخر ما قال الأستاذ حسب رواية الأستاذ فريد، وقد سمعت منه هذه القصة أكثر من مرة.

لقد كان هذا خطأ، بل خطيئة ارتكبها النظام الخاص، وهو الذي يتحمل وزرها، وقد شعر الأستاذ البنا في الآونة الأخيرة أن النظام بدأ يستقل بنفسه، ويتمرد على سلطانه، ويجعل من نفسه جماعة داخل الجماعة، أو دولة داخل الدولة، بل يرى أن كلمته يجب أن تكون هي العليا، وهي مشكلة عويصة يبدو أن الأستاذ بدأ يفكر في حلها، ويسر إلى بعض المقربين منه بخصوصها، وإن لم يهتد سبيلاً إلى حلها، أو لم يمهله القدر حتى يجد طريقاً لعلاجها».

ويضيف القرضاوي: «لقد اتخذت هذه الحادثة حجة لاتهام الإخوان بالعنف، ووصمهم بالإرهاب، وقد ناقشت تهمة «الإخوان والعنف» في كتاب «الإخوان المسلمون سبعون عاماً في الدعوة والتربية والجهاد» وفندت كل الشبهات المطروحة، وخصوصاً شبهة قتل الخازندار، التي كانت حادثة فريدة لم تتكرر في تاريخ الإخوان، على كثرة ما صدر ضدهم من أحكام قاسية من قضاة مدنيين وعسكريين، ولم يفكروا يوماً في الانتقام من أحد منهم.

بل إن الإخوان قد رأسهم وتولى زمامهم بعد مرشدهم الأول أحد كبار القضاة، وهو المستشار حسن بك الهضيبي المرشد الثاني للإخوان. وهو مستشار بمحكمة النقض الكبرى. وكان وكيله بعد ذلك أحد القضاة المرموقين، وهو القاضي الفقيه عبد القادر عودة، صاحب الموسوعة الجنائية الإسلامية «التشريع الجنائي الإسلامي» في جزءين.

عبد القادر الحسيني
(1908 ـ 1948)

هو عبد القادر موسى كاظم الحسيني، ولد في استانبول في 8/ 4/ 1908م، توفيت والدته بعد مولده بعام ونصف فكفلته جدته لأمه، وما لبثت هي الأخرى أن فارقت الحياة، فنشأ في كنف والده.

والده شيخ المجاهدين في فلسطين موسى كاظم الحسيني، شغل بعض المناصب العالية في الدولة العثمانية متنقلاً في عمله بين أرجاء الدولة العثمانية، فعمل في اليمن والعراق ونجد واستانبول ذاتها بالإضافة إلى فلسطين.

ونظراً لخدماته الجليلة للدولة العثمانية، أنعمت عليه الحكومة بلقب (باشا)، وعندما انهارت الدولة العثمانية إبان الحرب العالمية الأولى، ووقعت فلسطين في قبضة بريطانيا كان موسى كاظم (باشا) الحسيني يشغل منصب رئاسة بلدية القدس، كما تم انتخابه رئيساً للجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني الفلسطيني.

كان الأب موسى أول من رفع صوته في وجه الإنتداب البريطاني، وأول من دعا أهل فلسطين إلى الاحتجاج والتظاهر

وإعلان السخط والغضب ضد وعد بلفور، فتولى قيادة أول مظاهرة شعبية في تاريخ فلسطين عام 1920م، وبسبب ذلك عزلته سلطات الإنتداب البريطاني عن رئاسة بلدية القدس، فلم يكترث واستمر في نضاله الدؤوب، واشترك في الكثير من المظاهرات، كانت آخرها المظاهرة الكبيرة في يافا في 27/ 10/ 1933، حيث أصيب فيها بضربات هراوات قاسية من قبل الجنود الإنجليز ظل بعدها طريح الفراش أياماً، حتى فارق الحياة سنة 1934م.

تربى الابن عبد القادر منذ نعومة أظفاره في بيت علم وجهاد، حيث كان هذا البيت بمثابة الحضن الأول له والذي كان يجتمع فيه رجالات العرب الذين يفدون إلى القدس، لأن والده موسى الحسيني كان رئيساً لبلديتها.

تعلم عبد القادر القرآن الكريم في زاوية من زوايا القدس، ثم أنهى دراسته الأولية في مدرسة (روضة المعارف الإبتدائية) بالقدس، بعدها التحق بمدرسة (صهيون) الانجليزية، والتي كانت تعتبر المدرسة الوحيدة في القدس التي من الممكن أن يتناول منها العربي زاده الحقيقي من المعرفة، وأثناء فترة دراسته عكف على قراءة كتب التاريخ، وسير الأبطال والفاتحين.

أتم عبد القادر دراسته الثانوية بتفوق، التحق بعدها بكلية العلوم في الجامعة الأميركية في مصر، وهناك التقى بالعديد من الشباب العربي وتوثقت صلته بهم، وتحول بيته إلى ناد نضالي، يناقش فيه مختلف القضايا القومية والدينية، وأثناء سنوات دراسته التي قضاها في الجامعة، استطاع عبد القادر أن يكشف الدور المريب الذي

تقوم به الجامعة الأميركية في مصر، ذلك الدور المقنع بالعلم والمعرفة، والذي يحمل وراءه بعض أوبئة الاستعمار الخبيثة.

بعد عودته للقدس، تلقفته السلطات البريطانية حين وصوله، ووضعت بين يديه عدة وظائف رفيعة المستوى وعليه انتقاء ما يلائمه منها ـ محاولة بذلك أن تضمه تحت جناحها ـ إلا أنه آثر العمل في مجال أكثر رحابة يستطيع به ومن خلاله أن يعبر عن آرائه، فالتحق بسلك الصحافة محرراً في جريدة «الجامعة الإسلامية»، وكان الاتجاه الوطني الذي نهجته الجريدة من أهم العوامل التي دفعته للعمل بها.

انضم عبد القادر إلى «الحزب العربي الفلسطيني» بالقدس، وتولى فيما بعد منصب السكرتير في هذا الحزب، وبدأت نشاطاته تبرز في الأفق الفلسطيني، مما أثار عليه حفيظة سلطات الإنتداب، فأعادت عليه عرضها لشغل وظيفة (مأمور لتسوية الأراضي) بهدف إشغاله في شؤون الأرض والزراعة، وإبعاده عن مجال السياسة.

ارتضى عبد القادر هذه الوظيفة بعد أن أيقن بأهميتها، حيث استطاع تحت ستارها أن يتصل بإخوانه المواطنين في القرى الفلسطينية المختلفة، الذين يمثلون القاعدة الارتكازية للثورة، فتعرف عليهم وانتقى منهم خيرهم فاستقطبهم، وشكل منهم خلايا سرية، وبث فيهم روح الحمية والجهاد، وجمع الأموال من موسريهم، واشترى أسلحة ومعدات، وخزنها في أماكن أمينة، وتدرب بعض الشباب على استعمالها.

بعد أن تمادت بريطانيا في معاداتها للعرب، واستفحل الخطر

اليهودي على فلسطين، وتنادى الشعب الفلسطيني بضرورة مواجهة المخططات الاستعمارية بصورة فعلية وعلنية. . . استقال عبد القادر من وظيفته الحكومية، ووهب الثورة جهده وشبابه.

بأمر من سماحة الحاج محمد أمين الحسيني تشكّلت منظمة واحدة من معظم التنظيمات السرية الفلسطينية، أُطلق عليها «منظمة الجهاد الإسلامي» كي يتسنى للمجاهدين تنظيم شؤونهم النضالية، ومواجهة المستعمر بصورة أكثر دقة وشمولاً، واختير عبد القادر الحسيني قائداً لهذه المنظمة.

قرر عبد القادر ولأسباب عديدة أن يتخذ بلدة بير زيت مقراً لقيادة الجهاد المقدس، كما قسم فلسطين إلى مناطق قتالية، وولى على كل منطقة منها قائداً من قادته، أما الخلايا السرية وقياداتها فظلت تابعة له مباشرة.

كان عبد القادر أول من أطلق النار إيذاناً ببدء الثورة على بطش المستعمر في 6 أيار/مايو 1936، حين هاجم ثكنة بريطانية ببيت سوريك شمالي غربي القدس، ثم انتقل من هناك إلى منطقة القسطل، بينما تحركت خلايا الثورة في كل مكان من فلسطين. . . وبلغت الثورة الفلسطينية أوج قوتها في تموز عام 1936، حيث انضم إليها من بقي من رفاق الشهيد عز الدين القسام، وبلغت أنباؤها العالم العربي كله، فالتحق بها المجاهدون العرب أفواجاً، وخاض الثوار العرب معارك بطولية ضد المستعمرين البريطانيين والصهاينة، ولعل أهم هذه المعارك كانت معركة الخضر الشهيرة في قضاء بيت لحم، وقد استشهد في هذه المعركة المجاهد العربي

السوري سعيد العاص وجرح عبد القادر جرحاً بليغاً، وتمكنت القوات البريطانية من أسره، لكنه نجح في الفرار من المستشفى العسكري في القدس، بعد مغامرة رائعة قام بها المجاهدون من رفاقه فهاجموا القوة البريطانية التي تحرس المستشفى وأنقذوه وحملوه إلى دمشق حيث أكمل علاجه. عاد عبد القادر إلى فلسطين مع بداية عام 1938، وتولى قيادة الثوار في منطقة القدس، وقاد هجومات عديدة ناجحة ضد البريطانيين والصهاينة، ونجح في القضاء على فتنة دينية كان الإنتداب البريطاني يسعى إلى تحقيقها ليوقع بين مسلمي فلسطين ومسيحييها.

وفي خريف عام 1938، جُرح عبد القادر ثانية في إحدى المعارك، فأسعفه رفاقه في المستشفى الإنجليزي في الخليل، ثم نقلوه خفية إلى سورية، فلبنان. ومن هناك نجح في الوصول إلى العراق بجواز سفر عراقي يحمل اسم محمد عبد اللطيف.

وفي بغداد عمل عبد القادر مدرساً للرياضيات في المدرسة العسكرية في معسكر الرشيد، وفي إحدى المدارس المتوسطة، ثم التحق بدورة لضباط الاحتياط في الكلية العسكرية.

أيد عبد القادر ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق عام 1941، وشارك مع رفاقه في قتال القوات البريطانية، لكنه بعد فشل الثورة أُلقي القبض عليه مع رفاقه من قبل السلطات العراقية، وصدر عليهم الحكم بالسجن، وتحت ضغط الرأي العام العراقي والرموز الوطنية العراقية، استُبدل السجن بالنفي عشرين شهراً إلى بلدة زاخو في أقصى شمال العراق.

كما مثُلت أمام المحكمة السيدة (وجيهة الحسيني) زوجة عبد القادر بحجة مساعدتها وإيوائها للثوار، وتحريضهم على القتال، وحكم عليها بالإقامة الجبرية في بيتها ببغداد مدة عشرين شهراً.

وعلى أثر اغتيال فخري النشاشيبي في شارع الرشيد ببغداد، اتُهم عبد القادر بتدبير خطة الاغتيال هذه، فبقي موقوفاً في بغداد قرابة السنة بهذه التهمة.. ثم نقل إلى معتقل العمارة، وهناك أمضى ما يقرب من سنة أخرى، حيث أفرجت الحكومة العراقية عنه في أواخر سنة 1943، بعد أن تدخل الملك عبد العزيز آل سعود ملك العربية السعودية، فتوجه إلى السعودية وأمضى فيها عامين بمرافقة أسرته.

وفي مطلع العام 1944 تسلل عبد القادر من السعودية إلى ألمانيا، حيث تلقى دورة تدريب على صنع المتفجرات وتركيبها، ثم انتقل وأسرته إلى القاهرة وهناك وبسبب نشاطه السياسي وصلاته بعناصر من حزب مصر الفتاة وجماعة الإخوان المسلمين، وتجميعه الأسلحة، وتدريبه الفلسطينيين والمصريين على صنع المتفجرات، أمرت حكومة السعديين المصرية بإبعاده.. لكن الضغوط التي مارستها القوى الإسلامية المصرية حالت دون تنفيذ ذلك الإبعاد.

عندما علمت الهيئة العربية العليا نية الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين، سارعت الهيئة برئاسة المفتي أمين الحسيني إلى الانعقاد، وقررت مواجهة الخطط الاستعمارية الصهيونية بالقوة المسلحة، وتقرر إنشاء جيش فلسطين لممارسة الجهاد الفعلي، واختير المفتي قائداً أعلى لهذا الجيش وأعاد تموين منظمة الجهاد المقدس،

ثم حولها إلى جيش الجهاد المقدس الفلسطيني. وأسند قيادته العامة إلى عبد القادر الحسيني، بالإضافة لمهمة الدفاع عن القدس ورام الله وباب الواد.

وعندما أصدرت الأمم المتحدة قرارها القاضي بتقسيم فلسطين عام 1947، تسلل عبد القادر إلى فلسطين سراً مع بعض رفاقه، وفي نفس الوقت اجتاز الحدود الفلسطينية عدد من المجاهدين القادمين من سورية ولبنان، والتقوا جميعاً بعبد القادر، وأخذوا يرسمون خطة جديدة للبدء في المرحلة القادمة من الجهاد. فأعادوا تشكيل قوات الجهاد المقدس، واتخذت بلدة (بير زيت) مقراً رئيسياً لتلك القوات، وتألفت في حيفا والناصرة وجنين وغزة قوات أخرى تابعة لها.

تعتبر هذه القوات طليعة العمل النضالي العربي التي انبثقت تنظيماتها من صميم الشعب الفلسطيني، وكانت في الحقيقة أول مظهر من مظاهر القوات الشعبية التي تحمل في جوهرها صفة الجيش الشعبي في بلد كان يرزح تحت نير الاستعمار البريطاني.

قامت هذه القوات بتنفيذ جزء كبير من واجباتها، فقد تمكنت من إجبار 115 ألف يهودي على الاستسلام في مدينة القدس نتيجة حصارهم بإحتلال مضيق باب الواد وإقفاله، وقاموا بعدة معارك محلية، ونصبوا مئات الكمائن للقوافل اليهودية والإنجليزية، كما قامت فرق التدمير بنسف العديد من المنشآت والمباني مثل معمل الجير، عمارة المطاحن بحيفا، وعمارة شركة «سولل بونيه» اليهودية.

كما خاضت هذه القوات بقيادة عبد القادر أروع ملاحم البطولة والفداء مثل معركة بيت سوريك، ونسف شارع ابن يهوذا، ونسف مقر الوكالة اليهودية، ومعركة الدهيشة... وقد تكبد اليهود في هذه المعارك الخسائر الفادحة في الممتلكات، وقتل العدد الكبير منهم، وغنم المجاهدون الكثير من الأسلحة والعتاد والتي ساعدتهم على الاستمرار في نضالهم.

تكللت جميع معاركهم التي خاضوها ضد العدو الصهيوني والبريطاني بالنجاح، إلى أن كانت معركة القسطل التي دامت أربعة أيام بكاملها من 4 ـ 8 نيسان/ أبريل عام 1948، وانتهت بأن تمكن المجاهدون من انتزاع البلدة العربية من أيدي الصهاينة، إلا أنهم لم يمكثوا فيها سوى بضع ساعات، تمكن الصهاينة بعدها في خضم ذهول المجاهدين وتضعضعهم بسبب استشهاد قائدهم عبد القادر، من شن هجوم معاكس وإحتلال البلدة من جديد.

استشهد عبد القادر صبيحة 8/ 4/ 1948، حيث وجدت جثته قرب بيت من بيوت القرية فنقل في اليوم التالي إلى القدس، ودفن بجانب ضريح والده في باب الحديد... وسمي بطل القسطل، وقد استشهد رحمه الله وهو في الأربعين من عمره، أي في أوج عطائه الجهادي.

الكونت فولك برنادوت
(... ـ 1948)

منذ البداية أدرك العاملون على قيام الدولة الإسرائيلية استحالة قيامها دون الاعتماد على السلاح، وبرروا تلك الضرورة في كافة كتبهم وخطبهم بدءاً بكتاب «ثيودور هيرتزل» مؤسس الدولة الصهيونية والذي دعا إلى حمل السلاح ضد بحر المشاكل التي سوف تثيرها محاولات منع إقامة الدولة الصهيونية، ومن بعده نادى فلاديمير جابوتنسكي أستاذ الإرهاب الإسرائيلي، الذي تتلمذ على يديه كبار الإرهابيين من أمثال مناحيم بيجين وإسحاق شامير باعتناق العنف المطلق وملء وجدان شباب الصهاينة بالروح العسكرية.

وعندما قامت إسرائيل دعا حاييم وايزمان ـ أول رئيس لها ـ إلى العنف والإرهاب ثم زاد عليه ديفيد بن جوريون أول رئيس وزراء إسرائيلي برسم سياسة لهذا الإرهاب ووضع له خطة مؤكداً أن إسرائيل لا تستطيع العيش إلا بقوة السلاح، وبفعل هذه الآراء ترسخت نزعة فاشية عسكرية داخل قطاع لا بأس به من المجتمع الإسرائيلي وتفشت فيه حتى صارت المحور الذي تدور حوله الحياة الصهيونية.

وبسبب هذه النزعة إلى العنف تكونت العصابات الصهيونية الإرهابية في الأربعينيات لتحرير الدولة الصهيونية وإقامة دولة مستقلة، وكان من أبرزها منظمة «الأرجون» التي تولى زعامتها مناحيم بيجن رئيس وزراء إسرائيل الأسبق، ومنظمة «شتيرن» التي تولى زعامتها رئيس وزراء إسرائيل الأسبق أيضاً إسحاق شامير وقد تفننت هذه العصابات قبل توحيد الجماعات العسكرية الصهيونية بعد إعلان دولة إسرائيل في آذار/مارس عام 1948 تحت قيادة جيش موحد في تنفيذ العمليات الإرهابية ضد العرب والحامية البريطانية قبل مغادرتها الأراضي الفلسطينية.

ومن أبرز هذه الأعمال والتي يفخر بها بيجين في كتابه «التمرد ـ قصة الأرجون»: مذبحة دير ياسين وتفجير فندق الملك داوود والذي راح ضحيته 200 شخص من الأبرياء وأعمال أخرى دموية لا تحصى ولا تعد، يدعي بيجين أنها كانت الوسيلة الوحيدة لتحقيق الغاية الصهيونية، ولذلك كان حادث اغتيال الكونت السويدي فولك برنادوت الوسيط الدولي الذي عينته الأمم المتحدة لحل النزاع العربي ـ الإسرائيلي يوم 17 أيلول/سبتمبر عام 1948 حلقة طبيعية في سلسلة الإرهاب الصهيوني الرافض لمنطق السلام.

وقد أصبح الكونت برنادوت، وهو أحد أفراد العائلة المالكة السويدية ورئيس الصليب الأحمر السويدي في ذلك الوقت هدفاً للتصفية بعد عدة أحداث تاريخية بدأت في 29 تشرين ثاني/نوفمبر عام 1947، عندما اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة بأغلبية الأصوات قرار التقسيم، الذي نص على تقسيم فلسطين إلى دولتين

مستقلتين واحدة يهودية وأخرى عربية، مع تدويل القدس. وقد قبل معظم اليهود هذا القرار في حين رفضه العرب في فلسطين والدول العربية واستعدوا لمحاربته بقوة السلاح وأعلنت بريطانيا أن هذا المشروع يفتقر إلى احتمالات النجاح وأنها لن تشارك في تطبيقه.

وحينما نشبت الحرب بين الدول العربية وإسرائيل في 15 آذار/ مارس عام 1948 بعد انسحاب القوات البريطانية من فلسطين أوفدت الأمم المتحدة الكونت برنادوت إلى فلسطين كوسيط دولي للتوصل إلى تسوية سلمية للنزاع بين الطرفين على أساس قرار تقسيم فلسطين إلى دولتين. وقد بدأ برنادوت مهمته يوم 21 آذار/ مارس عام 1948، خلال فترة توقف القتال تقدم برنادوت إلى طرفي النزاع بمقترحاته حول التسوية السلمية، وتناول مسألة الهجرة اليهودية إلى فلسطين وقال أن فتح باب الهجرة اليهودية يبرر مخاوف العرب في فلسطين والدول المجاورة من مخاطر التوسع الصهيوني في الشرق الأوسط ولذلك اقترح قبول الشعب اليهودي لنوع من التنظيم الدولي للهجرة في سبيل مصلحة السلم مع جيرانه العرب وهي كما قال مصلحة حيوية.

ثم اقترح إجراء بعض التعديلات على الحدود بين الدولتين العربية واليهودية كما يرسمها قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة، ومن بين هذه التعديلات ضم منطقة النقب للدولة العربية وضم منطقة الجليل للدولة اليهودية، كما اقترح إدخال القدس بأكملها ضمن الدولة العربية مع منح الطائفة اليهودية فيها إستقلالاً

ذاتياً لشؤون البلدية، مؤكداً أن القدس يجب أن تظل تحت السيادة العربية.

وما كادت هذه المقترحات تصل إلى علم اليهود حتى ثارت ثائرتهم واعتبروا الكونت عقبة في سبيل تحقيق أهدافهم التوسعية وبصفة خاصة مقترحاته بشأن ضم القدس للدولة العربية وفرض قيود على الهجرة إلى فلسطين، وكانت معارضة جماعة «شتيرن» بزعامة شامير هي الأكثر عنفاً، وبدأت الجماعة التي كانت لها وحدات مستقلة داخل القدس في تنظيم المظاهرات ضد الوسيط السويدي، ثم قرر زعماء الحركة في القدس وهم إسرائيل الداد وجوشوا زتلر وماشولام ماكوفر تقديم مشروع اغتيال وسيط الأمم المتحدة إلى زعماء المنظمة ناثان مور واسحق شامير بمقرهم في تل أبيب وقد أكدت رواية الداد ـ المرشد الروحي للمنظمة والتي أبلغها إلى شارل أندرلين مؤلف كتاب «حرب أم سلام ـ أسرار المفاوضات الإسرائيلية ـ العربية، 1917 ـ 1997»، ـ أن شامير ناقش تفاصيل تنفيذ عملية الاغتيال بنفسه.

ويوم الجمعة 17 أيلول/ سبتمبر عام 1948 وصل الكونت برنادوت ومساعده الفرنسي الكولونيل بيير أندريه سيرو إلى مدينة القدس قادمين من سوريا وكانا يجلسان في المقعد الخلفي في سيارتهما بعد أن انتهيا من بعض الإجراءات المتصلة بمهمتهما في القدس حين اعترضت طريقهما سيارة جيب مكتظة بعدد من المسلحين وفتح ثلاثة منهم النار على الكونت ومساعده وبعد ذلك عاد القتلة إلى سيارتهم. وهكذا في لحظات نفذت عملية الاغتيال،

ويومها سقطت أيضاً ضحية أخرى هي السلام في الشرق الأوسط وظلت تفاصيل الحادث غامضة حيث قرر مرتكبوه الاعتراف في الذكرى الأربعين لاغتيال الكونت.

وحادث الاغتيال حسم مبكراً نيات اليهود تجاه التعايش السلمي مع العرب وأثبت أن السلام لم يكن ولن يكون هدفاً إسرائيلياً لأنه يتنافى مع أهدافها وأطماعها وهذا أكبر برهان على أن الإرهاب منهج صهيوني لابد أن يجد طريقه إلى التنفيذ، بل إن المنفذين تبوأوا مراكز حساسة في الدولة الصهيونية، ومع أن الجريمة السياسة لا تسقط بالتقادم إلا أن المجتمع الدولي لم يحاول معرفة الحقيقة لمدة أربعين عاماً، وبعد أن تكشفت التفاصيل لم يطالب بأي إجراءات لمحاكمة المتهمين. ولكن الأمر لا يبدو عجيباً بالقياس إلى جرائم أفظع تمادت إسرائيل في ارتكابها بعد ذلك في الشرق الأوسط دون أن يعبأ المجتمع الدولي بمنعها أو حتى استنكارها.

المهاتما غاندي

(1869 ـ 1948)

- «كلُّنا غاطسون في مصرف الماء، لكن بعضنا ينظر إلى النجوم».
- «لا حاجة للحقيقة إلى أيِّ ترويج خارج ذاتها».

رجل ضئيل البنية عجيب، أقرب إلى الدمامة، يكاد مرآه، للوهلة الأولى، أن ينتزع ابتسامة! أنفه الكبير المدبَّب يطلُّ من فوق شاربين متمرِّدين، أذناه الناتئتان أكبر من أن تتناسبا ورأسه المستدير الأصلع، نظَّارتاه الرخيصتان تضفيان على عينيه البراقتين المشعَّتين فطنة، مظهراً أشبه ما يكون بالبومة.

كان دائم التدثُّر بالدهوتي، وهو ثوب ما كان ليستر ركبتيه المعقودتين وفخذيه النحيلين. كل ما كان يملك من هذه الدنيا الفانية كان يتسع له منديل صغير، ونذره للفقر، بنظر مواطنيه المتواضعين، كان سمة قداسة عنده لا ريب فيها. وهذا ما دفعنا في الاسترسال في وصف هذا الرجل عنوة عن سِيَر باقي الرجال في هذا الكتاب والتعمق في سيرة حياته، لأن المهاتما غاندي وضع

أكثر من علامة استفهام على مبادئه التي ناضل من أجلها وعلى طريقة عيشه المتواضعة إلى حد القداسة.

والهند المستقلة كما هي عليه اليوم، ما كانت لترى النور لولا جهاد هذا الرجل الناحل التقي. فقبل أن يصبح موهنداس كرمتشند غاندي «المهاتما» ـ الروح العظمى ـ معبود الهند الحديثة، لم يكن «حزب المؤتمر الوطني الهندي» يعدو كونه جمعية من الملتقيات المتناقضة، يختلف إليها مثقفون من الطبقة الوسطى، تلقوا تعليماً بريطانياً، يسعون وَجِلين إلى تضييق الخندق الفاصل بين مبادئ العدالة والحرية النبيلة للبريطانيين وبين مسلكهم اليومي في الهند.

تقوم منزلة غاندي الرفيعة على كونه حقَّق معادلة ـ كانت ممكنة في التاريخ القديم وتكاد تصير متعذرة اليوم ـ الجمع بين مقاميْ الحكيم والمرشد الروحي، من ناحية، والرائي السياسي الملهَم، من ناحية ثانية. أجل، كان غاندي نبياً اجتهد طوال حياته في بلوغ مثال الحقيقة واختباره، كما انكشف له عبر هندوسية منفتحة على الأديان والملل كافة. وكان يردد أنه رجل خبرة روحية أصلاً، وليس رجل سياسة: «أنا مثالي عملي، أحاول أن أُدخِل الدين في مجال السياسة»، كما كان يحلو له أن يقول في مناسبات عديدة. لكنه، مع ذلك، كان رجل الأفعال بقدر ما كان رجل التأمل. وهذه الثنوية التي تمكَّن من اجتراح معجزة اختزالها إلى وحدة تستند إلى كشفين حاسمين من الكشوف التي رسمت مسار حياته الداخلية: «الله هو الحقيقة»، والكشف الثاني الأعمق: «الحقيقة هي الله». فالكشف الأول ينفي الحقيقة من العالم إلى المطلق، المتعالي على

العالم، بينما الكشف الثاني يعيد الله إلى دروب الحياة اليومية، مثلما يمكن للمرء أن يغرف من ماء الغانج المقدس براحتي يديه، أو أن يعرف بتذوُّقه حبة رز واحدة فيما إذا كان الرز كلُّه ناضجاً أم لا (راماكرشنا).

لقد جمع المهاتما في مذهبه الحياتي بين المنظورين الإسلامي، حيث يجمع الله بين صفتي الحق والعدل، والمسيحي، حيث يمكن للألوهة أن تتجسَّد في حياة إنسان فرد. فمن يصبح الحقُّ والعدلُ قوامَ حياته يتألَّه، وعلى التبادل، من يتوق إلى التألُّه، مخلصاً للحكمة الأزلية، حيث «لا وجود إلا لله، ولا لشيء سواه»، يجب أن يعمل بموجب الحق (العدل) وأن يسري في شرايينه شوقٌ لافح إلى إحقاقه.

ولا ينال من منزلته الروحية السامية قولنا إن هذا القديس كان يخفي في جعبته أكثر من سهم. في قيادته البشر كان لطفُه ينطوي على عزيمة فولاذية، ومع أنه كان لا يلين فيما يخص الأمور المبدئية فإنه كان يتحلَّى بمرونة فائقة في الأمور التكتيكية، كان طاهر الطويَّة، لكنه قادر بذكائه على النيل من خصمه في نقطته الأضعف، لجوجاً في مطالبته بالحق، لكنه يعرف كيف يتحيَّن الساعة المناسبة للعمل. لقد تسبب تنقُّله تباعاً بين المواقف الوطنية الصلبة والتسويات المرحلية المهادِنة في إحراج مؤيِّديه وفي شماتة خصومه التي وصلت أحياناً إلى حدِّ تخوين معارضي نهجه له وطعنهم في مصداقية جهاده الوطني.

كما قال غاندي تعبير شائع في الهند المعاصرة. فالحكومة كثيراً

ما تورِد اسمَه لتبرير سياساتها، والمعارضة تستخدمه كلما احتجّت على الحكومة. الإشارات إلى مذهبه اللاعنفي لا تتم غالباً إلا من أطراف الشفاه، لكن كلما دافع الزعماء الهنود عن المنبوذين، أو وضعوا برامج لتنمية الريف، أو قاوموا إغراء قمع متمردين بقوة السلاح، فإنهم يصغون إلى صوت غاندي. لقد صار المهاتما أكثر من مجرد زعيم مبجّل: صار ضمير أمة.

فمن هو هذا الرجل الذي اختير رجل القرن العشرين؟ والذي قال عنه أينشتاين في كتابه كيف أرى العالم: «إنه أعظم عبقرية سياسية عرفتها حضارتنا».

ـ الميلاد والنشأة:

ولد غاندي يوم 2 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1869 في بوربندر، البلدة الساحلية في شبه جزيرة كاثياوار شمال مومباي، والإمارة الصغيرة في ولاية كوجارات، حيث كان أبوه كرمتشند غاندي، وجدُّه من قبل، رئيس وزراء راجا (أمير) على ثلاث مدن. كانت أسرته هندوسية متديِّنة، وكانت تنتمي إلى طائفة الموده بانيا، وهي طائفة متفرعة عن طائفة الفايشيا المخصصة للتجار (اسم غاندي يعني باللغة الكوجاراتية بقّال).

كان موهن طفلاً ضئيل الجسم، يمقت الرياضة، متوسط النتائج في المدرسة. واعترافاته، الصريحة صراحة تكاد تكون محرِجة، تخبرنا أنه لم يكن مستثنى من عيوب الضعف البشري. فقد انتهك، وهو بعدُ صبي، المحرَّمات المفروضة على الهندوس بأكله سراً لحم الماعز، فكان قصاصه كابوساً مروِّعاً رأى فيه معزاة حية تثغو بإلحاح

في معدته. وبمقتضى العرف الهندوسي تزوج في الثالثة عشر فتاة في سنّه بدون علم مسبق بالأمر، وظل زوج كاستورباي الوفية طوال 62 سنة. لكنه ظل طوال حياته يشعر بالعار كلما تذكر شبقه في صباه. وقد روى في سيرته الذاتية أنه كان في فراشه مع كاستورباي عندما توفي والده، وهي وصمة لم يستطع أن يمحوها أو يتناساها قط. كان طموح موهن الفتى أن يدرس الطب، لكن بما أن هذا كان يُعتبَر تدنيساً لطائفته فقد أصر عليه أبوه أن يدرس الحقوق.

ذهب غاندي إلى إنكلترا للدراسة في أيلول/سبتمبر 1888. مكث في لندن مدة ثلاث سنوات، طالباً معوزاً يحضِّر لإجازة في الحقوق ويجتهد في الالتزام بنذره في عدم مساس اللحم والخمر والنساء. فقبل أن يغادر الهند، وعد أمه بأنه لن يقرب اللحم، فصار نباتياً متحمساً في غربته أكثر منه في الوطن. ومع أنه لم يستطع أن يتكيف تماماً مع نمط الحياة الإنكليزي فقد واتته رغبة عابرة في أن يصير جنتلمان بريطانياً بتلقي دروس في الرقص، لكنه سرعان ما انصرف عنها إلى اهتمامات أكثر انسجاماً مع طبيعته العميقة. اطَّلع آنذاك على الإنجيل، فأخذت موعظة المسيح على الجبل بمجامع قلبه. وقرأ كتاب توماس كارلايل في البطل وعبادة البطولة، وأعجِب من خلاله بخصال نبي الإسلام أيما إعجاب. كما تعرَّف إلى صديقين ثيوصوفيين أقرآه «البْهَكَفَدغيتا»، كتاب الحكمة الهندوسية الخالد (القرن الثالث ق م)، الذي اعتبره غاندي بمثابة قاموسه الروحي الرئيسي والمرجع الذي ظل يستلهم منه أفكاره حتى استشهاده. في لندن أيضاً قرأ مفتاح الثيوصوفيا للسيدة بلافاتسكي الذي دفعه إلى التعمُّق في الهندوسية ورسَّخ فيه قناعة بأن الأديان،

وإن اختلفت في تجلّياتها التاريخية، فهي واحدة في ينبوعها الأصلي.

في 10 حزيران/ يونيو 1891 رُسِمَ غاندي محامياً وعُيِّن في محكمة الاستئناف، فأبحر عائداً إلى مومباي. وإثر عودته إلى الهند بحث غاندي عن فرصة عمل مناسبة تسمح له بممارسة المحاماة وبالمحافظة في الوقت نفسه على المبادئ التي نشأ عليها. كانت بداياته صعبة، زاد من مشقتها حياؤه الشديد واستقامته القصوى، لذا لم يصب إلا نجاحاً محدوداً في ممارسة المحاماة في راجكوت ومومباي، ثم خدم لفترة وجيزة محامياً لأمير بوربندر.

ـ البداية من جنوب أفريقيا:

تسنَّى لغاندي عام 1893 أن يذهب إلى جنوب أفريقيا ممثِّلاً قانونياً لأصحاب شركة مسلمين في قضية تعويضات عن خسائر في بريتوريا، عاصمة الترانسفال في إتحاد جنوب أفريقيا. ما كان للوضع في جنوب أفريقيا، في تلك الفترة من الطفرات الإقتصادية التي تحتدم فيها الصراعات الإجتماعية والعرقية، أن يترك غاندي غير مبالٍ. هناك بدأ المحامي الحَيِيُّ الشاب باكتشاف نفسه. فبينما كان مسافراً ذات مرة في مقصورة درجة أولى في ناتال أمره رجل أبيض بالمغادرة. امتثل غاندي للأمر ونزل من القطار، ثم صرف الليلة كلها في محطة قطار متفكِّراً، وخرج عازماً على العمل لاستئصال التمييز العرقي. لقد راعته كيفية معاملة الجالية الهندية التي كانت آنذاك تعاني التمييز نفسه الذي يعاني منه سكان البلاد الأصليين السود، فشنَّ حرباً لا هوادة فيها على صعيدين: صعيد

العمل السياسي، وصعيد الجهاد ضد المظالم الإجتماعية، مطالباً للهنود بالاعتراف بالحدّ الأدنى من الكرامة الإنسانية والمدنية، محارباً التمييز بوجوهه القانونية والإقتصادية والإجتماعية ـ يصحُّ هذا أيضاً على جهاده اللاحق في الهند ـ. وهذه القضية استبْقته في جنوب أفريقيا ليس سنة، كما كان يفترض، بل حتى عام 1914.

بعيد حادثة القطار دعا غاندي إلى عقد أول إجتماع لهنود بريتوريا حمل فيه على نظام التمييز العرقي. وقد أصاب، بمرافعاته عن قضية الهنود المظلومين في الناتال والترانسفال، نجاحاً ملموساً أمام المحاكم. وفي عام 1896 ذهب إلى الهند ليصطحب كاستورباي وابنيه إلى أفريقيا. وقد تسربت أخباراً عن خطاباته هناك إلى أفريقيا، لذا عندما عاد غاندي إلى جنوب أفريقيا رجمه الغوغاء وحاولوا إعدامه إعداماً تعسفياً.

ـ النمو الروحي:

كانت الفترة التي أمضاها غاندي في جنوب أفريقيا من أهم مراحل تطوره الروحي والفكري والسياسي، حيث أتيحت له فرصة تدقيق قناعاته وثقافته الروحية وتعميقها، والاطلاع على ديانات وعقائد مختلفة، ووضعِ نهج أصيل في العمل السياسي، وتطبيق قناعاته الأخلاقية والسياسية، حتى على صعيد الحياة الأسرية.

هكذا وضع غاندي فن مقاومة جديداً كلَّ الجدة، يرتكز إلى مقومات روحية وإقتصادية وسياسية في آن معاً. ففي عام 1907 حرَّض كافة الهنود في جنوب أفريقيا على تحدي ما يُعرَف بـ«المرسوم الآسيوي» الذي يفرض على كل الهنود تسجيل أسمائهم

وبصماتهم في سجلات خاصة. وقد عوقب على هذا النشاط بالحبس مدة شهرين، ثم أُطلِق سراحه بعد أن وافق على التسجيل الطوعي. وقد قرأ وهو يصرف عقوبته الثانية في السجن مقالة الفيلسوف الترانسندنتالي الأميركي هنري دافيد ثورو (1817 ـ 1862) العصيان المدني التي أثرت فيه تأثيراً عميقاً وعززت قناعته بضرورة رفض الانصياع لنظام جائر. كما قرأ أيضاً كتاب الروائي الروسي العظيم ليون تولستوي «خلاصكم في أنفسكم»، الذي رسَّخ معارضته لتبشير أصدقائه المسيحيين ـ ولاسيما الكويكرز منهم ـ، ومقالاته التي كان يدعو فيها إلى المقاومة اللاعنفية للسلطة الفاسدة، فكانت بين الرجلين العظيمين مراسلة هامة بين عامي 1909 و1910. قرأ كذلك كتاب المصلح الإنكليزي جون رَسْكن «حتى آخر رجل» الذي بشَّر فيه المؤلِّف بكرامة العمل اليدوي ونادى بالعودة إلى الروح الجماعية والحياة البسيطة.

لكن ما من شك في أن التراث الروحي الهندوسي هو الذي زوَّد غاندي بالأدوات الفكرية والنفسية والعملية للعمل الداخلي. إن نهجه الحياتي يندرج فيما يُعرَف في الهند ـ بالكرما يوغا - karma yoga ـ يوغا العمل، وقوامه رياضة يومية دائمة تستهدف سيادة المرء على حواسه وأهوائه وشهواته، بواسطة الاكتفاء بالقليل طعاماً ولباساً، والصيام البدني والنفسي، والطهارة ـ طهارة القلب والبدن ـ والصلاة، وجميع الحواس، والصمت الداخلي ـ نذر غاندي يوم الاثنين من كلِّ أسبوع يوم صمت ـ، وعدم التعلق بنتائج العمل، نجاحاً أو فشلاً، والزهد في ثماره، بل تقديم هذا العمل قرباناً للإله. فمن شأن هذه الرياضة أن تشحذ الملكات الفكرية والنفسية

والبدنية للمرء، وتُحرُرها من ربقة الأنانية، بما يجعلها أداة حاضرة طيِّعة لاستقبال التحول الروحي الداخلي وإنفاذ إلزاماته القاهرة في الحياة العملية. ومع ذلك فقد ترك غاندي هامشاً للضعف البشري: «المحبة والاستئثار بالملكية لا يجتمعان. الجسم هو آخر ما نملك. لذا فإن المرء لا يقدر أن يحب محبة كاملة وأن يزهد في كلِّ ملكية ما لم يكن مستعداً لقبول الموت والتضحية بجسمه في سبيل الإنسانية. لكن هذا يصحُّ نظرياً وحسب. أما في الواقع فلن نقدر أن نحب محبة كاملة لأن الجسم، باعتباره ملكيَّتنا، سيبقى معنا. سيظل الإنسان ناقصاً، وسيكون قدرُه دوماً أن يتشوَّق إلى الكمال».

يبقى أن نذكر، بهذا الصدد، أن غاندي تأثر بشخصين كان لهما بالغ الأثر في حياته الروحية: بوتليباي، أمه، التي طبعت سمتها في تديُّنه منذ صباه، ورايتشاندبهاي، الصائغ الثري في مومباي، الذي كان لغاندي، بثقافته وتديُّنه العميق ومعرفته المدهشة بالمذاهب الهندوسية، بمثابة مرشد روحي حقيقي.

هكذا تكلَّم غاندي إنطلاقاً من مبادئ الأخلاق، والضمير، والدين مستبعداً كل ألوان المذهبية والتعصب. وقد ألهمته هذه التعاليم بكتابة مؤلَّف شخصي باللغة الكوجاراتية بعنوان الحكم الذاتي للهند - هند سواراج، 1908 -، معيداً فيه النظر منهجياً في قيم المدنية الغربية - سيادة الآلة، التنظيم الإجتماعي والمهني، مناهج العمل السياسي -، وعاكساً صدى الأفكار التي شغلته حتى مماته. هذا لا يعني أن أفكار غاندي جامدة، بل هي على العكس ديناميَّة، متجددة على الدوام.

أطلق غاندي على برنامج المقاومة اللاعنفية الجماهيرية الذي وضعه اسم «ساتياغراها» satyāgrāha (ساتيا = حقيقة، وأغراها = قبض)، وهذا المصطلح بالسنسكريتية يعني تقريباً «الاستمساك بالحقيقة» (ترجمه غاندي بالقوة النابعة من الروح). وبما أن الكذب والظلم الناجمين عن الأنانية البشرية يحجبان بعنفهما الحقيقة التي فُطِر عليها الإنسان، فإن الساتياغراها لن تقاوم العنف بعنف مماثل. هنا يأتي دور مفهوم «أهمسا» ahimsā (أ = أداة نفي، وهمسا = أذى) الهندوسي القديم - النابع من المفهوم الأول - الذي تبنّاه غاندي والذي، برأيه، هو أول قوانين الحياة. أهمسا هو، بالدقة، كفٌّ الأذى عن كل المخلوقات، وهو، تعميماً، الرحمة أو المحبة. وحده اللاعنف، بنظر غاندي، قادر على استعادة الحقيقة. وقد كتب بهذا الصدد: ساتياغراها ليس العصيان المدني حصراً، بل سعي هادئ لا يقاوَم إلى الحقيقة. لقد كانت الحقيقة طوال حياة غاندي كلها هاجسه الأوحد، كما يعكس عنوان سيرته الذاتية: سيرة حياة: «قصة تجاربي مع الحقيقة». والحقيقة بنظر غاندي لم تكن مطلقاً مجرداً مبهماً، بل مبدأ ينبغي اكتشافه اختبارياً في كل حالة على حدة. الحقيقة في خبرته، هي الغاية واللاعنف هو وسيلتها.

من هنا فقد اهتم بصفة خاصة بالوسائل المستعمَلة لبلوغ الغاية، مؤكداً أن الوسائل تصنع الغاية بالضرورة. لذا يتخذ اللاعنف عدة أساليب لتحقيق أغراضه، منها الصوم، والمقاطعة، والاعتصام، والعصيان المدني، والترحيب بالسجن إذا حصل، ورباطة الجأش أمام الموت. كتب أيضاً: «اللاتعاون ليس حركة تبجح

ولا هو تظاهُر. إنه امتحان لإخلاصنا. على أتباعه أن يعقدوا العزم على التضحية بأنفسهم. إنه نداء موجَّه إلى صدقنا وإلى مقدرتنا على العمل من أجل الأمة وحركة تهدف إلى ترجمة الأفكار إلى أفعال. من يمارس اللاتعاون يسعى إلى لفت الانتباه، وتقديم القدوة الحسنة، ليس بالعنف لكنْ بالتواضع الراغب عن الظهور. فهو يترك عمله المكين ينطق عن إيمانه، وقوته تكمن في ثقته بعدالة قضيته. الكلام خاصة إذا نطق عن غرور، يشي بنقص في الثقة. لذا فإن التواضع هو مفتاح النجاح السريع». هذا مردُّ دعوة غاندي أتباعَه إلى الإنتصار بالمحبة، لأن من شأنها وحدها أن تعطي الساتياغراهي المنعة الروحية، والتواضع، والإقدام، والاستعداد للتضحية من أجل رفع الظلم = (الظلمة) عن الذات وعن الخصم. صحيح أن غاندي يشترط لنجاح هذا النهج تمتُّع الخصم ببقية من ضمير وحرية تمكّنه في النهاية من فتح حوار موضوعي مع خصمه، لكنه لم يفقد لحظة إيمانه بأنه لا يوجد إنسان واحد على الأرض يعدم هذه الصفات تماماً.

من هذه المنطلقات قرر غاندي إنشاء تعاونية مشاعية مؤلفة من المقاوِمين المدنيين، أطلق عليها اسم «مزرعة تولستوي»، تيمُّناً بمعلّمه الكبير، مستبدلاً بثيابه الأوروبية زياً هندياً. وهناك عكف على القيام بأشغال يدوية من أجل العمال غير المأجورين من الطوائف الخارجية وشجّع كاستورباي على القيام بذلك أيضاً. ويعود إلى تلك الفترة تمرُّسه على الصيام. وفي عام 1906 نذر وزوجَه العفة بعد أن رُزِقا أربعة أبناء، وأشاد ببراهماتشاريا (نذر العفة) وسيلة لضبط النسل وللطهارة الروحية، وبدأ أيضاً يحيا حياة

فقر إرادي. وعلى الصعيد السياسي، أسَّس صحيفة «الرأي الهندي» التي صارت لسان حاله.

في جنوب أفريقيا تعرض غاندي مراراً للضرب وسُجِن وأوشك أن يُعدَم إعداماً تعسفياً. ومع ذلك كلِّه فقد طبَّقت الجالية الهندية هناك مبدأ القوة النابعة من الروح بنجاح اضطر الحكومة إلى رفع مظالم كثيرة عن رقاب الهنود. فكان من إنجازاته القانونية الأخرى في أفريقيا إصدار قانون يرخِّص الزيجات الهندية ـ بعد أن كانت الزيجات المسيحية وحدها مرخَّصة ـ، وإلغاء ضريبة كانت مفروضة على العمال المتعاقدين الهنود، ومحاربة مشروع قانون يحرم الهنود من حق التصويت، مؤسِّساً بذلك عام 1894 «مؤتمر ناتال الهندي» الهادف إلى الدفاع عن حقوق العمال الهنود، وكذلك مشاريع القوانين الخاصة بتحديد الهجرة. صحيح أنه حصل للهنود من الجنرال سْمَتْس على إلغاء العديد من القوانين الجائرة، لكن أهم إنجازاته إطلاقاً كانت إعادة الثقة إلى أبناء الجالية الهندية المهاجرة، وتنمية إحساسهم بكرامتهم الإنسانية، وتخليصهم من عقدتي الخوف والنقص.

وعلى التوازي، اهتم غاندي بالتهذيب المعنوي والخلقي بادئاً بنفسه. لقد كان يعتبر بأن أحد أسباب العداء والنظرة الدونية اللذين يكنُّهما البيض للهنود هو نوع من الصفاقة وعدم الاكتراث بالهندام، وحتى القذارة البدنية، لدى قسم من الجالية الهندية. من هنا كان اهتمامه الشديد بالطهارة، خلقية كانت أم بدنية. لقد قرَّب طريقة البيض التمييزية في معاملة الهنود من طريقة الهندوس الطائفيين في معاملة المنبوذين.

وعلى الرغم من مناوئته للحكومة، إلا أنه لم يستنكف عن مناصرتها وقت الأزمات والشدائد، إذ نظَّم مجموعات من المتطوعين الهنود خدموا كممرضين إبان الحرب ضد «البوِر» والحرب العالمية الثانية، لأنه كان يرى بأن الهنود لم تكن تحق لهم المطالبة بحقوق الرعايا البريطانيين ما لم يتحمّلوا واجباتهم ومسؤولياتهم كاملة كمواطنين. وقد كتب بخصوص الواجب: «المصدر الحقيقي للحقوق كلّها هو الواجب. إذا قام كل منا بواجبه فإن الحقوق سوف تتوطد من تلقاء ذاتها. العمل هو الواجب، والحق هو ثمرته».

ـ المصلح الإجتماعي:

في كانون الثاني/ يناير من عام 1915، وبعد إنجازه مهمتَّه في جنوب أفريقيا، عاد غاندي إلى الهند بعد إقامة قصيرة في بريطانيا. وقد أطلق عليه رابندرانات طاغور لقب «مهاتماجي»، والذي عُرِف به مذ ذاك. وإبان السنوات الأولى التي تلت هذه العودة انخرط غاندي في نشاطات متعددة. لقد كان وضع الهند مزرياً يعجُّ بالمظالم الإجتماعية: بؤس يكاد يكون معمّماً ولاسيما في الريف، الوضع الإجتماعي والتعليمي المتدنّي للمرأة، وضع المنبوذين، والتعصُّب الديني الأعمى الذي يغلب على العلاقات بين الهندوس والمسلمين.

بدأ غاندي أولاً ـ 1916 ـ 1917 ـ بمسح ميداني شامل للريف الهندي، كان من نتائجه أنه ناضل لتحسين المصير البائس للفلاحين الذين كانوا يزرعون النيلة لحساب المُلاك الأوروبيين في منطقة

تشامباران، وتصدى للدفاع عن اليد العاملة في صناعة النسيج في أحمد آباد. في كلتا الحالتين استعمل غاندي اللاعنف والعصيان المدني والصوم، ولاسيما في إضراب أحمد آباد الذي استهدف الضغط على أرباب العمل، بمخاطبة قلوبهم، وعلى العمال، الذين كانت عزيمتهم قد بدأت تلين، وفي كلتا الحالتين تُوِّج جهاده بالنجاح. في أثناء ذلك كان الناسك الوديع، مرتدياً الدهوتي وطاعماً كأفقر الفقراء، معلناً أن العمل اليدوي لا غنى عنه لمن يريد أن يسير على صراط الحق، يكسب ملايين القلوب في فترة جَيَشان عظيم، حاثاً إياهم على المقاومة وعلى التجدد الروحي. قال: «إن استغلال الفقراء لا يُزال بالقضاء على بضعة أثرياء، بل بتعليم الفقراء الذين يجب تلقينهم عدم التعاون مع سادتهم. فمن شأن هذا أن يوقظ السادة أيضاً. لا بل إني أتنبأ بأن هذا الإجراء سوف يؤدي إلى جعلهم جميعاً شركاء متساوين. رأس المال ليس شراً بحدِّ ذاته، إنما استعماله الشرير هو الذي يجعل منه شراً». لقد وجَّه كلامه لفرد هندي حُرّ جديد، وقال للهنود بأن الأصفاد التي تكبِّلهم هي من صنعهم، وأمَّلهم بالفوز بحرية أكبر. وقد أنشأ، كما فعل إبان حرب «البوور»، فرقة إسعاف من الطلاب الهنود لمساعدة الجيش البريطاني.

لكن البريطانيين، رغم تقديمهم بعض التنازلات لمطالب الوطنيين، فرضوا في الوقت نفسه إجراءات قمعية جديدة. ففي آذار/ مارس عام 1919، سنَّت بريطانيا مرسوم «رووْلات» الذي مدَّد إلى فترة ما بعد الحرب قمع حريات الكلام والصحافة والإجتماع. عندئذٍ فإن غاندي - الذي ظل حتى ذلك الوقت موالياً للراج

(السلطان) البريطاني في عام 1918 ـ، شارك بناءً على طلب نائب الملك، في مؤتمر الحرب في دلهي، ما لبث أن بدأ يناوئه وقاد الحركة الوطنية بفعالية لم يبلغها أسلافه. كان هدفه المباشر معارضة القوانين الجائرة بنهج الساتياغراها.

ولكن حتى قبل أن يتخطى الساتياغراها الشوط التمهيدي ـ ألا وهو القيام بيوم صلاة يعلّق خلاله كل نشاط إقتصادي ـ، تسببت دعوة غاندي إلى المقاومة اللاعنفية في أعمال عنف، حيث اندلعت أعمال شغب في دلهي، ومومباي، في البنجاب ومقاطعات أخرى، بلغت ذروتها في إحراق مخفر للشرطة. وقد بلغ شعور غاندي بالأسى مبلغاً جعله يحمّل نفسه مسؤولية كل ما جرى، فأجّل الساتياغراها، وإذ لام نفسه على عدم تبصُّره بأن الشعب لم يكن مستعداً بعد لإدراك مبادئه، فرض على نفسه ثلاثة أيام صوم تكفيراً عن هذا الذنب.

إبان هذا الأسبوع نفسه وقعت حادثة في البنجاب كانت نقطة انعطاف في تاريخ الهند. كانت الحكومة قد منعت لتوّها كل شكل من أشكال التجمع العام، لكن حشداً من 10,000 شخص ونيف تجمهر في 13 نيسان/أبريل 1919 في باحة مغلقة في أمريتسر، تحدياً لهذا القرار وربما جهلاً به. وصل يومئذٍ الجنرال ريجينلد داير، الضابط البريطاني من المدرسة المتشددة، على رأس مفرزة، وطلب من رجاله أن يتخذوا مواقعهم عند المخرج الوحيد للباحة وأمرهم بإطلاق النار على الجمهور. كان تبرير فعلته للمحققين بعد الحادثة أن نيّته كانت إحداث وقْعٍ كافٍ. استشهد يومئذٍ 379 شخصاً

على الأقل وجُرِحَ أكثر من 1,200 . وقد زايدت الحكومة على هذه الفعلة بإعلان الأحكام العرفية وبإذلال فاضح لسكان أمريتسر، إذ أُمِرَ سكانُ المدينة، على سبيل المثال، بالتجول زحفاً على البطون.

وإذ شعر الهنود بعجزهم المادي أمام البطش البريطاني، وجد من كان منهم ذا حسٍّ سياسي ناضج أن برنامج غاندي في المقاومة اللاعنفية أضحى أملهم الوحيد. كان واحد من هؤلاء هو الشريف الشاب جواهرلال نهرو الذي انتسب إلى «المؤتمر الوطني الهندي» بعيد عودته من إنكلترا. وبهذه الحركة ساعد نهرو هنوداً كثيرين متشرِّبين للثقافة الغربية على حسم ترددهم أمام البعد الروحي الصريح للمذهب الغاندي.

كان لمنزلة غاندي في قلوب الناس دور حاسم في ريادته للمؤتمر ـ ائتلاف من مختلف الجماعات الوطنية ـ في جلسة عام 1919 . كانت أحداث 1919 في نظره حاسمة، فشعر بضرورة أن يكرس جميع قواه للعمل السياسي من أجل الإستقلال، متسلحاً بثلاث حجج: مرسوم روؤلات، مجزرة أمريتسر، وحركة الخلافة ـ حركة احتجاج المسلمين الهنود الذين تخوفوا من فرض الحلفاء على تركيا شروطاً قاسية للسلام ـ. وفي عام 1920 صوَّت المؤتمر والرابطة الإسلامية ـ التي تأسَّست لكي تقطع الطريق على انفراد المؤتمر بتمثيل الحركة الوطنية ـ متبنِّيين البرنامجَ الغاندي في اللاتعاون اللاعنفي ابتغاء نيل السواراج swarāj (الحكم الذاتي، الإستقلال). وبذلك أصبحت الحركة الوطنية حركة جماهيرية. لقد خَلُصَ غاندي بعد لأيٍ إلى أن الصلة مع الإنكليز جعلت الهند

أعجز مما كانت عليه في أي يوم مضى، سياسياً وإقتصادياً. لكن حرية الهند لم تكن في نظره مجرد مسألة سياسية، لأنه ساعة تتطهر الهند تصبح حرة، وليس قبل ذلك بلحظة. كما كتب: «يودّ البريطانيون أن يجري القتال بطلقات الرشاشات. لذا فإن الوسيلة الوحيدة لضمان إنتصارنا هي أن نفعل ما من شأنه أن ينقل المعركة إلى مجال نملك نحن السلاح فيه فيما هم يعدمونه».

وهكذا ردَّ غاندي على تعنُّت بريطانيا باللاتعاون مع المحاكم والمحلات والمدارس البريطانية، الأمر الذي اضطر الحكومة إلى إعلان إصلاحات مونتاغو ـ شلمسفورد. وفي عام 1922 حوكِم غاندي وحُكِم عليه بالسجن مدة 6 سنوات، ثم أطلِق سراحه لإجراء عملية عاجلة لاستئصال الزائدة الدودية، وتلك كانت آخر مرة يُحاكَم فيها.

شهد العالم في ربع القرن الذي أعقب هذه الأحداث أغرب مواجهة عرفها التاريخ قط: فمن جهة، وقف عملاق الإمبراطورية البريطانية الجبار، يمثله نائب الملك محاطاً بقوة عسكرية ذات طَوْل، ومن جهة أخرى، المهاتما اللطيف، كما مثَّله رسامو الكاريكاتير، منكباً على دولاب مغزله، عاري الصدر، مؤتزراً بحِقائه، تشكُّل موضوعة الإنسان مقابل الآلة ركناً آخر في فلسفة غاندي العملية. ذلك كان المبدأ المحرِّك للخادي (القماش القطني المحلّي) ولحركة السواديشي (الاعتماد على الذات) التي دعا فيها غاندي الهنودَ إلى غزل ثيابهم ونسجها بأنفسهم بدلاً من الاعتماد على البضائع الإنكليزية.

لقد كان قصده ضرب عصفورين بحجر واحد، إصابة بريطانيا في تجارتها الخارجية، والترويج لتصنيع وبيع المنتوجات اليدوية المحلية. كان هذا الهدف يتضمن مزايا عدة: تحسين مستوى المعيشة في القرى بإيجاد عمل للملايين من الفلاحين الهنود إبان شهور الخمول الطويلة، وإيجاد تضامن بين المدن والأرياف بتشجيع أهالي المدن على شراء الخادي، وإعادة الاعتبار للعمل اليدوي. وفي هذا أظهر غاندي نجابة فذَّة كتلميذ لرَسْكِن. لقد استحسن غاندي مثال الاكتفاء الإقتصادي للقرية. وقد واحَد ما بين التصنيع والمادية، شاعراً أنه خطرٌ يهدد بسلب الإنسان إنسانيتَه ويحكم عليه بالعقم الروحي. من هنا كان الإنسان الفرد - وليس المردود الإقتصادي - هو مناط همِّه المركزي، إذ لم يفقد قط إيمانه بالخير الذي فُطِرَت عليه الطبيعة الإنسانية.

- الصوم ومسيرة الاحتجاج:

كان التكتيك الآخر الذي استعمله غاندي هو الصوم. لقد كان راسخ الإيمان بأن الوحدة الوطنية بين الهندوس والمسلمين أمر طبيعي، فقام صائماً مدة 21 يوماً لتقريب الملَّتين، كما صام أيضاً لدى إضراب عمال المطاحن في أحمد آباد.

بحلول عام 1930، نظَّم غاندي، برفقة 78 مريداً، مسيرة ملح مدتها 24 يوماً نحو البحر احتجاجاً على احتكار الحكومة لتصنيع الملح وفرضها ضريبة على الملح الذي يستعمله الهنود، الأمر الذي كان يشكل عبئاً باهظاً على الفلاحين الفقراء. وقد سار عدة آلاف من السائرين مسافة 241 ميلاً حتى بلدة دَنْدي الساحلية، حيث قبض

المهاتما على حفنة ملح ورفع يده بها عالياً متحدياً الحكومة. وقد أطلقت هذه الحركة الرمزية انتفاضة وطنية شاملة قام فيها فلاحون كثر بإنتاج الملح إنتاجاً غير مشروع، بينما قام متطوّعو المؤتمر ببيع الملح المهرَّب في المدن.

لقد كان من آثار المسيرة أنْ تعزّز اعتقاد الوطنيين في إمكان الاستهانة بالحكم الأجنبي والاستغناء عنه. فكان ردُّ الحكومة اعتقال 60,000 منهم، بمن فيهم غاندي نفسه. لكن غاندي في السجن لم يكن يقل إحراجاً للسلطات البريطانية منه طليقاً. ولقد شلَّت الانتفاضة المتنامية الإدارة، بما اضطر الإنكليز الذين وعَّتهم الحركة أكثر إلى أي حدٍّ كانوا يخضِعون الهند، وتم الإفراج عن غاندي وغيره من زعماء المؤتمر وإلى التفاوض معهم.

لقد تحلَّى غاندي بمرونة سياسية لم تخلُ من تقديم بعض التنازلات التي تخفف الحرج عن الخصم وتيسِّر له شيئاً من حرية الحركة لمراجعة نفسه. ففي أيلول/ سبتمبر عام 1931 تفاوض غاندي في دلهي مع نائب الملك، اللورد إروِن، على ميثاق يلغى بموجبه العصيان المدني ـ ولم تتقيد الهند بهذا التنازل في الواقع ـ، ويُفرَج عن السجناء، ويجاز تصنيع الملح على الساحل، ويحضر حزب المؤتمر المائدة المستديرة الثانية في لندن. وقد حضر غاندي بوصفه الممثِّل الوحيد عن المؤتمر. وفي إنكلترا أعلن ونستون تشرشل، المتزلِّف المرموق للإمبراطورية البريطانية، رافضاً لقاء غاندي. وكان من المنذر وحتى من الباعث على السخط رؤية السيد غاندي، المحامي المشاغب البريء، منتحلاً الآن شخصية الفقير الذائعة

الصيت في الشرق، يصعد شبه عارٍ سلالم قصر نائب الملك، لكي يتحادث مع ممثل الملك محادثة الندِّ للند. مع ذلك فقد توالت المحادثات، وللمرة الأولى ـ رغم الفشل الذريع الذي تمخَّضت عنه المائدة المستديرة ـ اضطرت بريطانيا إلى مخاطبة الهند أو بالأحرى أحد الهنود على قدم المساواة معها.

من القضايا الأخرى التي اعتنقها غاندي تحسين حال المنبوذين ـ أعضاء طوائف الدنيا ـ الذين أطلق عليهم اسم هارِجان Hārijān (أبناء الله) واعتبر وضعهم المزري سُبَّة في جبين الهند، لا تليق بأمة تسعى لتحقيق الحرية والإستقلال والخلاص من الظلم، فالسواراج، برأيه كان متعذراً ما دام هذا التمييز موجوداً. وقد تصاعد جهاده عندما قررت بريطانيا بعد المائدة المستديرة الثانية تسجيل الخمسين مليوناً من المنبوذين في قائمة انتخابية على حدة. ففي 20 أيلول/ سبتمبر 1932، بعد فشل مراسلته مع الحكومة وتبنيها القانون، وبينما كان في سجنه، شرع في صيام حتى الموت احتجاجاً على قرار الدولة، هذا الذي رأى فيه تكريساً نهائياً لمنزلة المنبوذين الإجتماعية المتدنية، وبهذا واجه زعيمهم د. بهيمراو أمبدكر الذي كان يؤيِّد انتخابات منفصلة كضمانة سياسية لتحسين حالهم. وفي اليوم السابع بينما كانت الهند بأسرها مشدودة صامتة، تتابع تدهور حالة غاندي الصحية، وبعد أن تمكَّن القادة والزعماء الدينيون بصعوبة من ثني أمبدكر عن موقفه، قَبِل البريطانيون بالتنازل الذي وضع حداً لخطر التمييز السياسي بين المنبوذين وهنود الطوائف وتم التوصل إلى «ميثاق بونا» الذي قضى بزيادة عدد المقاعد المخصصة للنواب المنبوذين وإلغاء نظام التمييز الانتخابي. وكنتيجة لصوم

غاندي فُتِحَت بعض المعابد لطوائف خارجية للمرة الأولى في تاريخ الهند. وقد تواصل جهاد غاندي هذا: رمزياً عبر مقالاته في إسبوعيَّته «هارجان»، وفعلياً بضغطه، إعتباراً من عام 1937، على الوزراء لكي يلغوا قانونياً التشريعات التي تحدُّ من تحسين وضع المنبوذين.

كان نفوذ غاندي بين الهنود يقوم على التماسه للمُثُل القديمة للحكمة الأزلية، كما تجلَّت في الهندوسية. لكن هذه القوة كانت تنطوي على خطر ما لبث أن ظهر، أثار تأثير الأغلبية الهندوسية على المؤتمر شكوك ومخاوف المسلمين الذين توجَّسوا ـ بإيعاز من البريطانيين كما نظن ـ من القوة المتعاظمة للهندوسية المجاهدة المستيقظة من سباتها. فاعتباراً من عام 1916، اقتصر الإتفاق بين الرابطة الإسلامية وبين المؤتمر على الإجماع على مسألة الإستقلال الذي كان كلاهما يطالب به، وعلى مسائل ثانوية، مثل إلغاء الخلافة الإسلامية.

غير أن الوفاق ما كان ليدوم. فمنذ عام 1920، يوم وافق المؤتمر على برنامج اللاعنف الغاندي، استقال من المؤتمر الزعيم الإسلامي محمد علي جناح الذي كان من قدامى المنتسبين إليه. كان جناح الذي تلقى تعليماً بريطانياً تقليدياً محامياً في مومباي، كالحاً، متغرِّباً، لامعاً، ظاهر العنجهية أحياناً. ومع أنه لم يكن مسلماً متزمتاً، ولا حتى متديناً ورعاً بصفة خاصة، فقد آلت إليه زعامة «الرابطة الإسلامية»، وسرعان ما صار المنافس السياسي لغاندي.

قبل حلول عام 1924 كانت مسألة الخلافة محسومة، فالزعيم التركي الشاب مصطفى كمال أتاتورك كان قد أبطل هذه المؤسَّسة، وتلاشت معها الآمال في الوحدة الوطنية بين المسلمين والهندوس. وفي عام 1928 أصدر المؤتمر مشروعاً يوصي بإنشاء إدارة مركزية، ففسَّر بعض المسلمين بنوده تفسيراً مفاده أن حقوقهم لم تكن مأخوذة فيه بالحسبان بما يرضيهم. وقد رأى جناح في هذا المشروع ما يؤكد مخاوفه بأن يصير 80 مليون مسلم هندي أقلية مضطهَدة لا يؤبه بها في هند جَلَتْ بريطانيا عنها، فيها 250 مليون غير مسلم. من هنا طالب جناح بالاستمرار في النظام الانتخابي المعمول به الذي يصوِّت بمقتضاه كل من الهندوس والمسلمين على حدة، ونادى بإقامة نظام فدرالي تتمتع فيه المقاطعات ذات الأغلبية المسلمة بنوع مخفَّف من الحكم الذاتي. وقد فنَّد المؤتمر رأيه بقوله إنه ينسجم مع تكتيك البريطانيين (فرِّق تَسُدْ).

جرى تغيير سياسي عميق في الهند إبان السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية. فقد بيَّنت حركة غاندي والنقاشات الحادة التي حرَّضها في لندن مشروع قانون 1935 الذي منح الهنود حكماً ذاتياً محدوداً، لأن الإمبراطورية لم يكن لها من المنعة بما كان يُظَن. وهكذا بدأ الوطنيون الهنود رويداً رويداً يفكرون ليس في كيفية إجلاء الإنكليز عن بلادهم وحسب، بل وفي كيفية حكم الهند بعد جلائهم عنها. فكان من نتائج هذا التغير في المنظور تصدُّر الخلاف بين الهندوس والمسلمين للنقاش الدائر آنذاك. ففي عام 1936، عندما حصلت ست مقاطعات هندية من أصل إحدى عشرة

على حكومات مؤتمرية فإن الرابطة الإسلامية ندَّدت بها جميعاً بوصفها دكتاتوريات هندوسية.

كذلك في قلب المؤتمر نفسه كانت خطوط القوى تنزاح. فمع تزايد احتمالات الإستقلال واقترابه ترك غاندي انطباعاً بأنه ينسحب إلى الكواليس. وهكذا قرر عام 1934 الاستقالة من «حزب المؤتمر»، وبقي حتى العام 1939 يكرس جلَّ طاقته للتخفيف من بؤس الجماهير، لمساعدة المنبوذين، للترويج للغزل وللتعليم الأساسي، ولتكريس اللغة الهندية لغة وطنية - مع أن لغته الأم كانت الكوجاراتية -، كما عمل على تحسين نظام الرعاية الصحية وطرائق الزراعة ووضع مشروعات للتربية الريفية والنهوض بالريف. إبان تلك السنين كان التعاون لصيقاً بين المهاتما وبين جواهرلال نهرو في إطار اللجنة العاملة للمؤتمر. وفي عام 1937 شجع الحزب على المشاركة في الانتخابات معتبراً أن الدستور الذي تم التوصُّل إليه عام 1935 يشكل ضمانة كافية وحداً أدنى من المصداقية والحياد.

كان نهرو، بين معاوني غاندي في «حزب المؤتمر»، من الشخصيات المرموقة، بخطابته المفوَّهة وشخصيته الآسرة. كان نهرو براهمنياً من طبقة رفيعة، كشميري الأصل، وهاضماً للثقافة الغربية. والده موتيلال نهرو كان من أغنى وألمع المحامين الهنود ومعجباً أشد الإعجاب بطراز الحياة والتقاليد البريطانية. وفي بيت آل نهرو الفخم في الله آباد نشأ جواهرلال وشقيقاته في جوٍّ عالمي: كانوا مطَّلعين على الثقافة الإسلامية، يتلقون تعليم مدرِّسين إنكليز، ويقرأون كتباً إنكليزية. وبمثل هذه المزايا التي عزَّزتْه دراساتٌ

جامعية في هارُّووْ وكمبردج كان نهرو أقرب إلى البريطانيين من أن يعجب بهم إعجاباً طائشاً. كان متشوقاً إلى هند متحررة من الإمبريالية البريطانية ومن الهندوسية المتزمتة على حدٍّ سواء. ومع أنه كان أقل اهتماماً من غاندي بالأسس الروحية للأخلاق إلا أن ذلك لم يَحُلْ بينه وبين أن يكون من أنصاره المخلصين، فسُجِن مرات عديدة إبان حملات المقاومة اللاعنفية الأولى، واعتبره غاندي ابنه الروحي وخليفته، قائلاً فيه ذات مرة: «أعرف شيئاً واحداً، هو أنني بعد أن أغيب سوف يتكلّم لغتي».

كانت الحرب العالمية الثانية إيذاناً ببلورة المعارضة بين بريطانيا والوطنيين الهنود، وكذلك بين غاندي وقسم من المؤتمريين. ففي عام 1939 أعلن نائب الملك ـ بدون الرجوع إلى لندن ـ، أن الهند في حالة حرب ضد المحور. وقد ردَّ الوطنيون مطالبين بالإستقلال في مقابل التعاون، متذرّعين بأنْ وحدها هند مستقلة يمكنها أن تشارك مشاركة حرة في الحرب على قوى المحور، لكن لندن رفضت مطلبهم. وهكذا للمرة الأولى تنصّل قسم من المؤتمريين من آراء معلّمهم، موافقين على استخدام العنف المسلّح، بينما ظل هو وفياً للمقاومة اللاعنفية. وفي أواخر عام 1940 احتجَّ آلاف الهنود ـ يقودهم غاندي ـ على الحرب احتجاجاً فردياً وقاموا بحملة عصيان أدَّت إلى اعتقالهم. وقد اتسع هذا العصيان واستمر حتى عام 1941 حيث كانت بريطانيا مشغولة بالحرب ويهمها استتباب أوضاع الهند حتى تكون لها عوناً في المجهود الحربي. ولكن عندما زحفت اليابان على آسيا قامت بريطانيا، الحريصة على ضمان تعاون الهند النشط، بالإفراج عن الزعماء الوطنيين وبدأت تتفاوض

معهم، فأرسلت عام 1942 بعثة لهذا الغرض عُرِفَت باسم «بعثة كريبس»، لكن جهودها، كما توقع غاندي، باءت بالفشل. لقد كان المؤتمر على استعداد لقبول عرض بريطانيا بنقل كافة السلطات إلى الهنود ما عدا الشؤون العسكرية، ما دامت الحرب مندلعة. لكن كلا المؤتمر والرابطة الإسلامية رفض المشروع البريطاني في هند مستقلة، لكنْ بعد انتهاء الحرب. لقد رأى المؤتمر بأن تنازلات بريطانيا لم تكن كافية، وبأن وحدة الهند لم تكن مضمونة بما يكفي، بينما تخوَّف المسلمون من ناحيتهم من المصير الذي ينتظرهم في ظلِّ هند موحَّدة. وفي آب/أغسطس 1942 اقترح غاندي حملة لا تعاون شاملة وخاطب الإنكليز بجملته الشهيرة: «اتركوا الهند وأنتم سادة». وقد صوَّت المؤتمر على قرار «غادروا الهند» Quit India مطالباً بالإستقلال الفوري. وفي لندن زمجر ونستون تشرشل علناً بأنه لم يكن قد صار رئيس وزراء جلالة الملك لكي يرأس تصفية الإمبراطورية البريطانية.

كان ردّ البريطانيين عنيفاً جداً، إذ شنت السلطات البريطانية عام 1942 حملة اعتقالات جديدة وأودعت السجن غالبية القادة الوطنيين، بمن فيهم غاندي ونهرو وغيرهما من زعماء المؤتمر، الأمر الذي ألهب أعمال العنف في كل أنحاء الهند احتجاجاً على الممارسات القمعية غير المسبوقة ضد الجماهير. وعندما حاول البريطانيون إلقاء اللوم على غاندي صام ثلاثة أسابيع في السجن، لكنه أصيب بالملاريا، مما أرغم السلطات على الإفراج عنه في نيسان/أبريل 1944، وبذلك يكون قد أمضى من حياته في السجن ما مجموعه ست سنين.

عندما فاز «حزب العمل» بانتخابات 1945 في بريطانيا لاح إستقلال الهند فجأة مرتسماً في الأفق، لكنْ في الآفاق الأبعد كانت مشكلة كيفية توصل الهنود ـ هندوس ومسلمين ـ إلى التفاهم على مشروع حكومة مستقلة. عندما خرج غاندي من السجن لم يألُ جهداً في الحيلولة دون قيام دولة إسلامية منفصلة في باكستان كان محمد علي جناح مصراً على قيامها. وقد نصحت بعثة وزارية بريطانية في آذار/ مارس 1946 بعدم التقسيم، واقترحت عوضاً عنه هند موحَّدة ذات برلمان فدرالي. وفي آب/ أغسطس أجاز نائب الملك ويفل لنهرو أن يشكِّل حكومة مؤقتة. واقترح غاندي يومها أن يشغل جناح منصب وزير الدفاع، بل ذهب حتى الطلب من نهرو أن يتنحَّى لجناح عن رئاسة الوزراء، مقابل أن يوافق على الحفاظ على وحدة البلاد، لكن جناح رفض وأعلن بدلاً من ذلك في 6 آب/ أغسطس يوم عمل مباشر. ولقد أسفر ذلك اليوم وأيام الشغب التي تلته في كلكتّا وحدها عن سقوط أكثر من 5,000 قتيل و15,000 جريح. ومن هناك انتشر العنف إلى البلاد كلِّها.

أصاب المهاتما من جراء ذلك غمٌّ شديد، فمضى إلى البنغال قائلاً: «لن أغادر البنغال حتى يخمد آخر بصيص للشغب». لكن 4,500 آخرين لقوا مصرعهم في بيهار، وهو ما يزال في كلكتّا. عندئذٍ، أنذر غاندي البالغ من العمر آنذاك السابعة والسبعين، أنه سيصوم حتى الموت حتى يعود البيهاريون إلى رشدهم. فذهب إلى نواخلي، إحدى مدن البنغال ذات الأغلبية المسلمة، وقال إنه سيضع مقولة «افعل أو مُتْ» على المحك. فإما أن يتعلم الهندوس والمسلمون أن يحيوا معاً وإما أن يموت كفارة عنهم. ولقد هدأ

الوضع هناك، لكن أعمال الشغب تواصلت في أماكن أخرى.

ـ خيبة الإستقلال:

بحلول عام 1947 أعلن وزير الخارجية البريطاني كلمنت آتلي بأن بريطانيا ستغادر الهند في آب/أغسطس 1948 كأقصى حدٍّ. ولكي يمهِّد لانتقال السلطة عيَّن آتلي في منصب آخر نائباً للملك في الهند اللورد ماونتباتن الذي وصل إلى الهند في آذار/مارس ولعب وزوجَه دوراً غامضاً جداً في تلك الفترة. وقد تشاور نائب الملك مع الجانبين، وعندما أعلم نهرو وغيره من قادة المؤتمر أن «الرابطة الإسلامية» تفضل الثورة على قبول حكومة واحدة تشمل الهند بأسرها، أجابه زعماء المؤتمر، والأسى يحزُّ في نفوسهم، بأن باكستان منفصل خير من العماء، من ناحية، وخير من استمرار الحكم البريطاني، من ناحية ثانية. وهكذا جرى. أُعلِنَت الهند وباكستان دولتين مستقلتين منفصلتين في 15 آب/أغسطس 1947.

كان الإستقلال بهذه الشروط هزيمة حقيقية بنظر غاندي، حيث وصف التقسيم بأنه أشبه بـ«تشريح كائن حي». فقبل ذلك بوقت طويل، يوم كان ما يزال في جنوب أفريقيا، أعلن بأن الامتحان الفاصل لعمله هو تعزيز الوحدة الوطنية بين المسلمين والهندوس. أما الآن فكانت الطائفتان تغليان حقداً، ولم يعد يستمع إلى ندائه من أجل السلام والتآخي إلا ثلة من المريدين المخلصين. لذلك نعت الانفصال بـ«المأساة الروحية» ورفض المشاركة في احتفالات الإستقلال. وللمرة الأولى في حياة غاندي، بدأ أناس عاديون يتعرضون له، فكان الهندوس يسبُّونه زاعمين أنه يفضل عليهم

المسلمين. لأنه طالبهم بتقديم تنازلات كبيرة للأقلية المسلمة ضماناً لحقوقها، وكان المسلمون يتهمونه بأنه يعرقل قيام دولة باكستان المستقلة.

بتر الإستقلال حوالي ربع أراضي الهند، وقسّم كلاً من البنجاب في الشمال الغربي والبنغال في الشرق إلى شطرين. لقد كانت الاضطرابات بين الهند والمسلمين، والتي اصطلح البريطانيون على تسميتها فوضى طائفية، أمراً شائعاً في الهند، لكن تاريخ الهند لم يعرف يوماً ما يشبه حرب الإبادة الأهلية المروِّعة التي نشبت في أعقاب جلاء البريطانيين. فمن جراء الانفصال اقتُلِع 12 مليوناً من البشر من جذورهم وهُجِّروا، وتسبب نزوحهم في مجزرة متبادلة قلما فاقتها مجازر أخرى وحشية وهمجية. أصبحت سواقي الهند حمراء من دم الهندوس والمسلمين، وفاق عدد القتلى الـ 500,000، فيما لم يُعرَف قط عدد الجرحى والمنتهكات أعراضهن أو المخطوفين إلى الآن.

عندما احتفلت نيودلهي بجلاء البريطانيين من الهند في 15 آب/ أغسطس، كان غاندي في كلكتّا حيث ذهب في محاولة لوقف المذبحة. كان يومئذٍ في الثامنة والسبعين، وقد رأى بأمّ عينه أن عمله على تكريس التآخي بين الهنود الذي دام 32 سنة صار يوطَأ بالأقدام، وأن خيانة تعليمه في اللاعنف قد أجهضت عملية الإستقلال كما كان يتمناه. لكن جماهير الهند ظلت على حبِّها له، فكانت الحشود تهب لسماعه يتكلم. فمع أن الشعب نبذ مذهبه فقد ظل يعتبره قديساً، وفي المناطق التي زارها توقف القتال سريعاً.

لكن الزمن كان يعانده، إذ قام متطرفون بتحريض شجارات، وانفجرت قنبلة في إحدى إجتماعات الصلاة التي عقدها في نيودلهي. وفي 1 أيلول/سبتمبر 1947، عندما اقتحم حشدٌ غاضب من غوغاء الهندوس المنزل الذي كان مقيماً فيه في كلكتّا شرع غاندي في صيام جديد لا ينهيه حتى تثوب كلكتّا إلى رشدها. وبالفعل لم يُنهِ المهاتما صومه حتى نال وعداً من زعماء الهندوس والمسلمين كافة بألا تتكرر أعمال القتل.

لم ترق دعوات غاندي إلى الإخاء بين الهندوس والمسلمين للكثيرين، واعتبرتها بعض الفئات الهندوسية الأصولية، بتأليب من جهات مجهولة، خيانة عظمى. وفي 13 كانون الثاني/يناير 1948 بدأ غاندي آخر صوم له في دلهي، مصلياً من أجل وحدة الهند. وفي 30 منه كان غاندي ذاهباً متأخراً إلى إحدى إجتماعات الصلاة، وأمام الحشد الذي كان يطوّقه كان يضم راحتي يديه مسلِّماً، جرياً على التقليد. عندئذٍ قام هندوسي في الخامسة والثلاثين يدعى ناتورام غودسي، صحافي سابق في صحيفة أسبوعية هندوسية متطرفة في بونا، استطاع أن يشقَّ لنفسه بمنكبيه طريقاً بين الحشد، قام بإشهار مسدس وأطلق على المهاتما ثلاث رصاصات قاتلة. تمتم غاندي بكلمات، هاي رام (يا رب) وأسلم الروح.

مرغريت داندوران
(1895 - 1948)

عند منتصف أحد ليالي صيف العام 1948، وعلى شاطئ طنجة الأبيض في مصر، كان سائحان بريطانيان يتنزهان على الشاطئ الرملي ليملآن رئتيهما من هواء البحر الرطب، وكانا يتحدّثان بحماسة وصوت عالٍ. ويبدو أنهما أفرطا في شرب الكحول لأنهما كانا يتمايلان ويتدافعان حتى أن نور المصابيح الكهربائية لم تكن كافية لإنارة طريقهما، بل ينير الأمواج التي كانت ترتمي وتضمحل عند أقدامهما. وكانا أحياناً يغرقان في الضحك، إلى أن رأيا جثة قذفها البحر وظلّت الأمواج تغمرها بزبدها الأبيض. فتوقف الصديقان وهما يترنحان وأخذا ينظران إلى الجثة: إنها جثة امرأة مرتدية ثياباً أوروبية تعبث الأمواج بشعرها الذهبي.

بقيا مذهولين مدة قبل أن يدركا أنهما أمام جريمة قتل، إلى أن نظرا إلى الوجه عن كثب ولاحظا كسراً في الجمجمة... فصاحا أحدهما مذعوراً: يا الهي... أما رفيقه فأدار ظهره وأخذ يتقيأ.

ولم تمض بضع ساعات حتى أخذ طبيبان يفحصان الجثة التي نقلت إلى معرض الجثث المجهولة الهوية، فقررا أنه مضى عليها

ثلاثة أيام وهي في البحر. كان الوجه مشوهاً لكسر في عظم الأنف وجروح أخرى، لكن الضربة القاضية جاءتها من الخلف بأداة حادة كسرت أسفل الجمجمة. لم تكن الضحية صغيرة السن. ومع وجود الجروح الرهيبة كان يتبيّن أنها كانت في شبابها جميلة جداً.

وبينما كان الطبيبان منهمكين في تشريح الجثّة، كان رجال الشرطة في طنجة مهتمون بمعرفة هوية الضحية. وهنا ظهرت بعض الصعوبات. فالبصمات والصور التي وجدت في محفوظات الشرطة تثبت أن الضحية ما هي إلا الكونتيسة مرغريت داندوران المعروفة في عدة بلدان بأنها جاسوسة وعميلة مزدوجة جريئة جداً. إنها في أثناء ثلاثين سنة بما فيها الحربان العالميتان عملت لحساب جهات عديدة. وكانت السلطات تعتبر هذه الجاسوسة التي لا ترحم إحدى أخطر النساء في أرقى مجتمع كانت تعيش فيه وتتطور.

حسب الشرطة الدولية «الإنتربول» يوجد علاقة قائمة بن نشاطات هذه المرأة وموت أو اختفاء خمسة وعشرين شخصاً على الأقل، اختفاءً غامضاً، وكان دائماً من المحال توجيه أي اتهام إليها بصورة مؤكدة مطلقة. الشرطة الفرنسية التي كانت تعتبر السيدة مرغريت داندوران أنها «أفضل دماغ مجرم في الوقت الحاضر»، جمعت ملفاً ضخماً يتعلق بها وهو يحتوي على أربعة اغتيالات سياسية.

نادرات جاسوسات القرن العشرين اللواتي لهن إضبارة أشدّ اسوداداً من إضبارة الكونتيسة. امرأة سريعة الفهم لا تعرف الخوف ولا يخالجها وسواس أو تردد، ولا مكان للشفقة في قلبها. إذ صدف أن أحبّت أحداً حتى العبادة فلا شك أنها كانت تحبّ

ذاتها. لقد كانت تستعمل السموم أفضل من استعمال لوكريس بورجيا لها.

تُروى أن مرغريت قد تكون في يوم من الأيام باحت لأحد عشّاقها بما يلي: مزاجي شديد جداً وأنا كثيرة الانفعال فلا أستطيع إلا أن أكون مجرمة عظيمة. أقل شيء يزعجني ولا سيما التوافه المبتذلة التي تسلّي الآخرين. لا شيء يرضي شهواتي أكثر من لذة رؤيتي رجلاً يموت، ولا أتسلّى بشيء إلا عندما أتفوق على الآخرين.

ولدت مرغريت في بايون عام 1895، وتعلمت منذ طفولتها أن تتكلم بالفرنسية والأسبانية بطلاقة. كان أبوها كاتب عدل يعيش مع عياله في بحبوحة من العيش.

ملكيّ المذهب السياسي، كثير الحماسة، يكرّس أوقات فراغه كلها وكلّ جهده ليقوم بحملات لإعادة الملكية إلى فرنسا.

البنت الصغيرة مرغريت المليئة بالنشاط ما كانت تهتم بالقضايا السياسية بل تسرّ بعمل مقالب لأصدقائها وصديقاتها والقيام بجميع أنواع أعمال القسوة. ففي يوم من الأيام سخر منها صبي في القرية، فأقنعته بأن يأتي ويسبح معها في المرفأ فجذبته إلى تحت الماء وكادت تغرقه لو لم ينتبه إلى ذلك أحد الصيادين فأسرع وألقى بنفسه في الماء وأنقذ الولد الذي كان قد فقد وعيه.

عائلة والدة مرغريت لم تساعدها كثيراً في سني تهذيبها. كانت والدتها صغيرة السن وجميلة وفاتنة، فكانت تهمل زوجها وابنتها بحثاً عن ملذاتها في أحضان عشاقها العديدين الذين كانوا يقدّمون

لها الكثير من الحلي. قد يكون هذا أثّر تأثيراً عميقاً في حياة الفتاة الصغيرة. لاشك في أنها آخذت والدتها على إهمالها لها ولكن هنالك دلائل تدل بصورة أكيدة على أنها ما كانت تأنف من رؤية ما كان يجري. كانت مرغريت بحاجة كبيرة لمحبة والدتها وحمايتها لها لأنها نمت بسرعة كبيرة جسدياً وعقلياً. ففي السن التي فيها تكون أغلب الفتيات اللواتي في عمرها محاطات بأهل كثيري الانتباه، كانت مرغريت تقضي الليالي تشرب وتدخّن وترقص في مقاهي الأرصفة. لقد كان والدها شديد الحنق لكنه متوانٍ عجز عن ردع ابنته، حتى تنبّأ الجيران والأصدقاء لمرغريت بالأسوأ، فلم يدهشوا يوم تحققت نبوءتهم فهربت وهي في الخامسة عشرة مع ملازم جميل الصورة.

بعد تحريات رجال الشرطة ووالدها وجدت في باريس، واضطرت لأنها قاصر، إلى إطاعة والدها والرجوع معه إلى بايون، وهي مستعدة لمغامرة جديدة حالما تسنح لها الفرصة بذلك، ولم تنتظر طويلاً.

في خريف سنة 1911، التقت مرغريت في حفلة بحرية راقصة الكونت بيار داندوران. الفرق في العمر بينهما كان كبيراً، فافتتن بجمالها وذكائها. وسُر والدها كثيراً بذلك لأن الكونت غني وجميل والرجل مناسب للسيطرة على الفتاة. فخطبها ومنحها والدها مع بركته ثروة قيّمة، وأقيمت حفلة زفاف فخمة في كاتدرائية بايون.

كان الكونت يحب السفر كثيراً وقد سرّه جداً أن يتمكن من أن يتيح لزوجته الصغيرة مشاهدة العالم. فزارا مدناً عديدة. . .

وعواصم أوروبية. . . ثم أقلّتهما باخرة إلى أميركا، فالأرجنتين والبرازيل. وأُعجبت مرغريت بهذين البلدين البديعين، وكان الكونت ذا ذوقٍ وتصرفات لا عيب فيها، وما لبثت مرغريت أن صارت سيدة فاتنة جميلة جداً وأنيقة جداً.

نشبت الحرب العالمية الأولى سنة 1914 والكونت والكونتيسة داندوران في مصر. وبعد سنة من اندلاع الحرب وفي استقبال دبلوماسي في القاهرة قُدّم بيار ومرغريت إلى ملازم بريطاني خجول ورفيع التهذيب يدعى ت. أ. لورنس اشتهر فيما بعد بلورنس العرب. كان ينظم شعبته السرية الخاصة، وطاقم مخربين لأن البريطانيين كانوا يلاقون في مصر صعوبات جمة. جماعات من العرب قامت بحملات عرّضت للخطر أمن الإنكليز في البلد، وفيه أخذت حوادث القتل تزداد وجرت محاولتان لاغتيال الأمير حسين كامل السلطان الذي نصّبه الإنكليز بدلاً من نسيبه الموالي للألمان. لقد كان لورنس يريد ليس القضاء على نشاطات أولياء الأمور من الوطنيين المصريين فحسب بل أيضاً اكتشاف المصادر التي منها كان الألمان والأتراك يستقون معلوماتهم التي تتيح لهم أن يجعلوا مصر لا تطاق بالنسبة للبريطانيين.

من المستحيل القول عن أي نوع من التحريات قام بها لورنس حول الكونت والكونتيسة داندوران، ولكن لما كان هذان فرنسيين فالأغلب أنه اعتبرهما حليفين طبيعيين. ولما التقى مرغريت للمرة الثالثة أخذها إلى ناحية منعزلة في باحة فندق شبرد وسألها إذا كانت مستعدة أن تعمل له أي أن تكون عميلته. وقد نبّهها إلى المخاطر

التي لا بدّ للجاسوس أن يجابهها وحذّرها بأنها ستضطر في فرص عديدة إلى الافتراق عن زوجها، ومكافأتك الوحيدة معرفتك أنك ساعدت وطنك وإنكلترا أيضاً!. فأجابت مرغريت: يبدو لي هذا مغرياً وقد أحببت دائماً المغامرات. فمنذ بعض الوقت بدأت الحياة تضجرني. فلعل ما تعرضه عليّ يوفر لي ما ينقصني. ماذا تريد أن أصنع؟

حسناً. قال لورنس وهو يبتسم. كنت مقتنعاً أن هذا يهمك. أنت جميلة وذكية وسنساعدك على التعرف بمصريين يقومون بدور هام في الأوساط الوطنية. اكسبي صداقتهم وثقتهم فلا تلبثين أن تعرفي أسرارهم. نريد معلومات عن نشاطاتهم ضد البريطانيين وعليك أن تحصلي لنا عليها.

تلقت مرغريت فيما بعد التعليمات من القائد جلبرت كليتون رئيس شعبة الاستخبارات السياسية والعسكرية الإنكليزية. وأجابت بصراحة عن أسئلته وأصغت إليه بانتباه فيما هو يبين لها أهداف أول مغامرة في مجال الجاسوسية. يبدو أن كليتون هنّأ لورنس على اختياره وصرح له بأن الكونتيسة امرأة صغيرة لامعة وداهية.

بعد ثلاثة أشهر أصبحت مرغريت داندوران صديقة سعد زغلول باشا زعيم الوطنيين المصريين. وشوهدت في أمكنة كثيرة برفقته في الاستقبالات والمسرح والسباقات. هذه الصداقة التي ما حاولت أن تخفيها ما لبث أن عرفها الجميع، ولم يحرك زوجها الكونت ساكناً.

حصلت مرغريت كما كان متوقعاً على نتائج جميلة لنشاطاتها.

ففي أيار/مايو 1916 قامت قوة من الإنكليز مع عناصر شرطة مصريين بغارة على بناية في ضاحية بور سعيد اكتشفوا فيها مستودعاً هاماً للأسلحة ووثائق سرية تثبت أن المنظمة السرية ـ «الحركة الوطنية» ـ كانت تنوي مهاجمة مواقع إستراتيجية في قناة السويس. وكانت هذه الغارة ضربة قاسية لطموحات الوطنيين وسبّبت نفي زغلول باشا واثنين من أهم نوابه إلى مالطة. الصحف المصرية أدركت فوراً العلاقة فيما بين هذه العملية وصداقة زغلول مع مرغريت، لكن الرقابة اهتمت بالأمر سريعاً وأعادت النظام وصدر أمر للصحافة بالامتناع عن ذكر إسم الكونتيسة، وهذا في مصلحة الأمن الوطني.

وفي أيلول/سبتمبر من السنة نفسها أوقفت الشرطة بتهمة التجسس ثلاثة أتراك واشين من الألمان. أحد الأتراك كان يحتفظ بصورة له مع الكونتيسة عند أهرام الجيزة. اعترف بمرارة أنه كان يعرف الفاتنة الشقراء. أجل كنا صديقين حميمين وكانت تبدو لي مخلصة جداً. ما تصورت قط أنها تستطيع أن تخونني. وتدخلت الرقابة مرة أخرى ومنعت الصحف من ذكر اسم الكونتيسة.

شوهدت مرغريت في خلال السنتين التاليتين في أماكن إستراتيجية عديدة من الجزيرة العربية. أرسلها لورنس عام 1917 إلى الرياض مدينة ابن سعود حيث الصراع القديم الرهيب ضد الملك حسين ملك الحجاز كان أسطورياً. هذه المنافسة الدموية بدأت تهدد تهديداً خطيراً حملة الإنكليز ضد الأتراك في الصحراء.. وكانت الكونتيسة أول امرأة أوروبية مثلت أمام هذا الملك.

بعد الحرب العالمية الأولى وجد الكونت وزوجته المغامرة في دمشق، وبعد أقل من سنة أنجبت له صبياً. وكان الناس يهمسون، وهم يعرفونها جيداً، هل حصلت عليه من خلال المغامرات أم لا؟ لقد دهشوا على كل حال عندما رأوا هذين الزوجين يغادران دمشق مع ولدهما ليشتريا فندق بلميرا في سورية.

بلميرا قرية مذكورة في التوراة باسم تدمر ويعود تاريخها إلى سنة 1200 قبل الميلاد، غير أن أهميتها الوحيدة في القرن العشرين أنها في مفترق طرق القوافل الرئيسة التي تصل الشرق بالغرب. منذ ألف وسبعمائة سنة جعل من تدمر موقعها الجغرافي عاصمة دول عظيمة في وسط الشرق الأوسط الحيوي كله. أما في العام 1923 فما كانت سوى واحة صغيرة مهملة ضائعة في الصحراء، وقلما تذكر في الخرائط الحديثة. البيوت أكواخ من لبن يقطن فيها السكان العرب.

هذا الانتقال إلى تدمر أصبح موضوع أحاديث جميع المجتمعات الدمشقية وأثار عدة تساؤلات لدى ضباط مصلحة الاستخبارات البريطانية.

ـ لماذا هناك؟ لماذا ذهبت الكونتيسة إلى هناك، ألكي تتوارى؟

أقام الكونت داندوران وزوجته وابنه هناك وأداروا مؤسستهم فندق الملكة زنوبيا مدة تسع سنوات طويلة. غرفة مرغريت الخاصّة كانت مفروشة بترف وكذلك بعض الغرف الخاصة. وباقي الفندق كان غرف نوم قليلة الفرش. كان يشغل الغرف الخاصة باستمرار منقّبون عن البترول أثرياء، وشيوخ قبائل من البدو وضبّاط من

الجيش الاستعماري الفرنسي ومجموعات من ممثلي التجارة الذين كانوا يحاولون أن يخفوا أن مركزهم العام كان في موسكو.

للكونتيسة بضاعة للبيع... معلومات. لم يكن هنالك إعلانات مكتوبة: نحتفظ بحق رفض تقديم خدماتنا!. لقد كانت تبيع وقائع وأرقاماً لمن يحمل نقوداً ويجب أن يكون عرضه الأغلى. ما كانت تهمها السياسة أكثر من الوساوس الوطنية. وكانت تخدم المصالح السرية لعدة دول بوجدان مهني متساوٍ. في هذه المرحلة أحب الأمير فواز الشعلان صاحبة الفندق الجميلة وقاد قبيلته إلى حافة الإفلاس ليلفت انتباه الكونتيسة إليه. وانتحر أحد الضباط لأنها أبعدته عنها. غير أن بعض الصحف لمّحت إلى أنه قتل ويمكن أن يكون لموته علاقة بمؤامرة تجسسية.

لاشك في أن مرغريت عملت بنشاط عام 1925 للمكتب الثاني. فالفرنسيون احتاجوا إلى خدماتها في أثناء الثورة السورية، والسوفيات أملوا أن تساعد قضيتهم أيضاً وكلا الفريقين قدّم لها المال، وعملت في نفس الوقت للجهتين، تخون الروس لصالح الفرنسيين وتخون الفرنسيين لصالح الروس. عقد في أثناء الثورة السورية ستة من الزعماء العرب الذين كانوا يديرون الثورة إجتماعاً سرياً في فندقها، وما وقع لأحدهم على أثر فيما بعد. حتى هذا اليوم يزعم السوريون أن الكونتيسة ذات النظرات البريئة نصبت لهم فخاً وعملت على قتلهم. وما لبثت الاستخبارات الأميركية والبريطانية أن أخذت تهتم بنشاطات مرغريت التي كانت تقوم بها على كل الأراضي العربية الملتهبة الفقيرة، فأرسلت عملاء لها

للتحري في تلك البقاع ولم تنشر قط تقاريرهم الكاملة. غير أن واقعة هامة جداً عرفت بعد تسع سنوات قضتها الكونتيسة مرغريت داندوران في هذه القرية القليلة السكان والمجهولة تقريباً، كان حسابها يدلّ على مدى ثرائها.

وفي العام 1932 استقرت الحالة السياسية في سورية وغدت المصالح السرية غير مهتمة بمعلومات صاحبة الفندق.

فقالت كفاني اللعب كملكة للصحراء، وأسرعت فنفضت غبار تدمر الذي علق مدة طويلة بعقبيها.

وأتعب مرغريت ابنها فأرسلته إلى مدرسة في فرنسا. وملّت منذ زمن بعيد زوجها فطلّقته لسبب لا يمكن أن يكون له علاقة بالدين إذ اعتنقت الإسلام.

ولما بلغت السابعة والثلاثين تزوجت عربياً «ابن سليمان» وهو أصغر منها بعشر سنين. كتبت لابنها تقول «إن أبوك الجديد رجل كبير الأهمية إنه شيخ قبيلة كبيرة». تحريات رجال الاستخبارات أوضحت التناقض. لم يكن ابن سليمان سوى زعيم بدوي أمّي دفعت له ثلاثين ألف فرنك كي يتزوجها. وهكذا أصبحت تستطيع حسب زعمها، أن تحج إلى مكّة المكرمة. فمرغريت تاقت إلى القيام بمغامرات جديدة.

ذهب الزوجان غير المتناسبين إلى جدّة بالباخرة بقصد الحج، ومن هناك تابعا طريقهما على ظهر الجمال. كانت مرغريت تدرك جيداً خطر دخولها المدينة المقدسة. مصيرها أصبح موضوع بحث عندما أوقفهما رجال لاحظوا بريق عيني مرغريت الزرقاوين تحت

الحجاب. فطلبوا منها أن تكشف عن وجهها. لأول مرة في حياتها ما نفعها شعرها الأشقر ولا عيناها الزرقاوان ولا بشرتها البيضاء، لقد قُبض عليها وسجنت في الجبال مدة تزيد على الأسبوع، بينما كان العرب يتناقشون في أمر مصيرها.

ومرض ابن سليمان مرضاً خطيراً في أثناء أسر زوجته. وفي خلال ساعات أصابه أشد الألم ثم احتُضر ومات مسموماً.

ونظرت في قضية مرغريت محكمة مؤلفة من أعضاء إحدى القبائل. أصغى القضاة إليها بهدوء عندما أعلنت أنها اعتنقت الإسلام بصدق، لكنهم لم يقتنعوا. وحكم القضاة على مرغريت بالرجم حتى الموت.

عندئذ استعملت مرغريت سلاحيها الوحيدين الباقيين تحت تصرفها: فتنتها ومالها. فدفعت إلى حارس عربي لينقل خبر مصيبتها إلى قنصل فرنسا في جدة، الذي نقل بدوره هذا النبأ إلى الملك ابن سعود الذي تذكرها... فأصدر أمره بإخلاء سبيلها فوراً. مع ذلك قضت المغامرة ساعات انتظار طويلة وقاسية قبل أن تتمكّن من مغادرة سجنها في الجبال.

بعد سنتين من هذه الحادثة التي نستها تماماً تقريباً، عادت مرغريت فأقامت في تدمر حيث تزوجت ثانياً بالكونت زوجها الأول الذي بدت عليه علامات شيخوخة حقيقية. هذه المرة كان أسياد الكونتيسة النازيون الذين تصوّروا أن يكون لهم موطئ قدم في سورية ليتمكنوا من التآمر على الإنكليز. لهذه الغاية كانوا يبذلون جميع الجهود الممكنة لتجنيد زعماء قبائل وصنع شبكة تجسس.

وجود مرغريت والكونت معاً كان قصير الأمد. ففي صباح يوم من عام 1935 وجد بعض العاملين في الفندق جثة الكونت ملقاة عند مدخل الفندق الرئيسي وقد طُعن بسكين تسع عشرة طعنة.

لقد اتُهمت مرغريت مرة أخرى بجريمة قتل، لكنها أنكرت ذلك بقوة. ليس عندي أدنى فكرة عما جرى، هكذا صرحت للشرطة. كان ذلك يوماً صعباً بالنسبة إلي وانسحبت باكراً إلى غرفتي.

ضباط فرنسيون كانوا من نزلاء الفندق أعطوا إفادات مغايرة. قالوا: إن الكونتيسة تكذب. كنا جالسين في البار ورأينا الكونت يخرج بعد العشاء بقليل. ورأيناه أيضاً لما عاد بعد منتصف الليل وسمعناها تتناقش معه. وإضافة إلى ذلك أنها تعرف أننا سمعناها. وقالوا: يوم اكتشاف جثة زوجها حاولت أن تصرعنا بسيارتها بينما كنا نسير في الطريق.

الخدم الوطنيون زعموا أنهم لم يلاحظوا شيئاً إما خوفاً من الانتقام وإما لأنهم قبضوا ثمن سكوتهم. اقتصرت القضية على رواية ضد أخرى وما كان قائماً أي دليل في هذا الاتجاه أو الاتجاه الآخر، فأُخلي سبيل الكونتيسة.

أصبحت مرغريت من جديد حرة من أجل مغامرات جديدة فباعت الفندق وسكنت في فيلا جميلة في هندى على الحدود الفرنسية ـ الإسبانية. لا شبيه لمقدرتها على اختيار الأماكن المضطربة، لقد كانت في موضع مناسب يوم نشبت الحرب الأهلية في إسبانيا. حاولت صحف فرنسا عام 1939 عرض نشاطاتها على

الملأ. ففي افتتاحيات طويلة اتُّهمت بالعمل للنازيين والفاشيين الإسبان والجمهوريين. وكانت تدير تجارة السلاح والذخائر والمخدرات والأدوية والنقود والرجال أيضاً الذين كانوا ينقلون في جبال البريني ذهاباً وإياباً. رجال الاستخبارات الفرنسيون لاحظوا مراراً أن سيارات فخمة كثيرة تحمل لوحات أجنبية كانت تتوقف أمام فيلا الكونتيسة. وكانوا زواراً غامضين. ودار في الأذهان السؤال التالي: لماذا بعض الموجهين الجمهوريين الباسك يجتازون الحدود سرّاً بعد زيارتهم للفيلا؟ نشرت الصحف أن هذه المرأة كانت تحصل على أسلحة لإسبانيا وتتقاضى مقابل ذلك ذهباً وحلي. ولما سُئلت لماذا لا تقيم دعوى على الصحف؟ اكتفت الشقراء الجميلة بالقول وهي تضحك: مِن إضاعة الهيبة الإجابة على الكلاب التي تنبح في السواقي.

احتل النازيون هندى. ولم يبق أي شك في إشتراك الكونتيسة. أصبحت الفيلا التي تسكنها مركز القيادة المدنية للضباط الألمان المعتزّين بالظهور ببزّاتهم الرسمية. في الجوار كانوا يسمعون قهقهاتهم وأصواتهم المختلطة بأغاني فتيات دُعين ليساعدن على مجالسة المحتلين.

واستبقت الكونتيسة مرة أخرى مجرى التاريخ. شعرت بأن أيام هتلر أصبحت معدودة فأقفلت الفيلا واجتازت البحر الأبيض المتوسط واستقرت في الجزائر. وهناك وضعت نفسها في خدمة الاستخبارات الإنكليزية والفرنسية فنجحت كالعادة وقدّمت عملياً خدمات للحلفاء، وتوصلت إلى إقناع عدة شخصيات في حكومة

فيشي بالالتحاق بالجنرال ديغول. ولما نزل الحلفاء في الشمال الأفريقي قدّمت لهم معلومات سرية هامة.

وجاءت مرغريت داندوران في نهاية الحرب 1945 إلى باريس واتخذت لها محل إقامة فيها. وأخذت ملامح الخمسين من عمرها تظهر عليها، واعترفت يوماً ضد رغبتها إلى بعض الأصدقاء الحميمين أن ابنها جاك هو الآن رجل ورئيس تحرير في مدينة نيس. واقترح عليها محرّر باريسي أن تكتب مذكراتها، فهتفت: يا إلهي! إني ما زلت صغيرة وكثيرة النشاط لأكتب قصة حياتي التي هي في بدايتها. ولابدّ لي من أن أعيش أجمل فصول مذكراتي. عُدْ إليّ بعد أربعين سنة. أخذت بعدها الكونتيسة عطلة جملت وجهها في معهد للتجميل، وتابعت دروس رياضة بدنية، واشترت ثياباً من أشهر محلات الخياطة، وارتاحت بترف على ضفة نهر السين.

بدت بعدها امرأة جديدة أكثر أناقة وجمالاً من قبل. ووسعت دائرة معارفها، ولديها الخبرات التي كانت تخبئها في ذلك الرأس الذي كانت تزينه قبعة شقراء جديدة وفخمة. لفتت إليها أنظار الرجال وجعلت النساء ينظرن بعين الحسد إلى ثيابها الفاخرة، أما الصحافة فتتلهف بفارغ الصبر على الحصول من الكونتيسة على شيء جديد، ورجال الشرطة أيضاً كانوا شديدي التنبه وهم ينتظرون أن تقع هذه السيدة بين أيديهم، لأنهم كانوا يعلمون بأنها ذات شأن عالٍ من الإجرام.

لم يطل الانتظار. محام شهير بيرسي دالانكور وُجد مسموماً في بيته في أحد أيام تموز/يوليو عام 1945. كل المجتمع كان يعرف

أنه عشق مرغريت، والشرطة كانت على علم تام بتأثير هذه السيدة. وبعد تحقيق دقيق قاموا به تبين لهم أنه من المستحيل دعم شكوكهم. القتل أسهل مما يبدو.

بعد أربعة أشهر أصيب نسيب مرغريت ريمون كليريس البالغ من العمر ستاً وعشرين سنة بمغص شديد على أثر زيارة قام بها لنسيبته. وتمكّن قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة من أن يكتب بضع كلمات على تذكرة المترو: ملبسات م. غريبة. وفي هذه المرة قرر رجال الشرطة في باريس أن يصلوا إلى أعماق القضية. فقضوا أياماً في طرح الأسئلة على الكونتيسة ولكنهم اضطروا في النهاية إلى قبول منطقها في سؤال وجهته إليهم: لماذا قد أكون قتلت هذا الفتى المسكين؟ ليس له مال، وموته ما كان ليفيدني بشيء بأي صورة كانت. واضطر مفوض الشرطة إلى أن يخلي سبيلها مرة أخرى ضد رغبته، وحكّ رأسه وهو ينظر إليها وهي تغادر المركز رابطة الجأش تماماً.

وبعد مرور سنة قررت شرطة باريس توقيف مرغريت من أجل مقتل ريمون كليريس فقبض عليها بينما كانت تحتسي قدح كونياك في مؤسسة أنيقة على الكوت دازور «الشاطئ الأزوردي»، برفقة ابنها جاك. فقالت لابنها وهي تتبع الشرطة الذين كانوا يتوجهون نحو الخارج، لا تقلق يا جاك لهذا، فقد يزعج معدتك فتتهمني الشرطة بأني سممتك. وُجدت مرغريت في غرفة المتهمين أكثر ابتساماً منها فيما مضى. وكانت تجيب عن الأسئلة بكل هدوء، وتدفع جميع الاتهامات التي تواجه بها برفع كتفيها وهي تضحك.

وخرجت مرغريت مرة أخرى من المحكمة وهي حرة لأن الاتهامات الموجهة إليها غير كافية.

تعبت مرغريت من لعبة القطّة والفئران مع الشرطة الفرنسية فاشترت يختاً أطلقت عليه اسم «الجيلان» وأخذت تمخر به عباب البحر المتوسط وهدفها الأخير البحر الأسود والاتصال بالروس الذين صرحوا أنهم بحاجة إليها مرة أخرى. واستمرت الصحف تذكر اسمها في عمليات تهريب وتجارة غير قانونية ولاسيما الاتجار بالذهب والأحجار الكريمة.

رسا «الجيلان» في خليج طنجة الهادئ بعد ظهر الخامس من تشرين الثاني/ نوڤمبر عام 1948، فنزل البحارة إلى اليابسة تاركين الكونتيسة داندوران برفقة مدعوّين كانا يسافران معها بجوازين بلجيكيين. وعندما عاد القبطان والبحارة إلى اليخت كانت الكونتيسة مرغريت داندوران، وروناتو بونسيني وزوجته قد اختفوا. ولفظ البحر جثة مرغريت على الشاطئ بعد ثلاثة أيام.

مرغريت داندوران قدّمت مرة أخرى للصحف نسخة مؤثرة. وبالنظر إلى ماض الكونتيسة المغامرة أخذ كل واحد يتصور المشهد الأخير من حياتها.

جاك داندوران الذي لم يكن يشعر بعاطفة قوية نحو هذه المرأة التي أهملته كتب أحاديث غريبة نوعاً ما عن حياة أمه. ولم يتردّد بلفت الانتباه إلى أنها أتهمت بإحدى وعشرين جريمة، ولكن الشرطة لم تستطع إثبات التهم عليها. إن ابن مرغريت جاك هو الذي أسماها بـ«أكبر دماغ إجرامي في عصرنا».

جرى توقيف بونسيني وزوجته بعد بضعة أيام في الدار البيضاء، وجيء بهما إلى طنجة حيث اتهما بقتل مضيفتهما. علم عندئذ أنهما غير متزوجين وليسا بلجيكيين. هانس أبيل من الشرطة السرية الغوستابو، نازي متعصب. لقد انصرف مع عشيقته جرما هيلين كولز وبمساعدة الكونتيسة مرغريت إلى إدخال بودرة الذهب إلى فرنسا وفي النهاية اعترفا بأنهم تشاجروا بخصوص حصصهم من الأرباح. وفي لحظة غضب حطّم هانس رأس الكونتيسة بزجاجة كونياك ثم ألقى بجثتها في البحر.

المرحلة الأخيرة من مذكرات الكونتيسة مرغريت داندوران انتهت في 17 نيسان/أبريل عام 1949 وحكمت المحكمة الفرنسية على النازي هانس إبيل بالسجن مدة عشرين سنة وحكمت على جرما بسنة واحدة[1].

(1) «مرغريت داندوران مغامرة العصر». ترجمها إلى الفرنسية شارل ب. مرنتس، مكتبة مارابو، وترجمها إلى العربية الأستاذ الياس سعد غالي.

الإمام حسن البنّا

(1906 ـ 1949)

ـ حقيقة داعية:

وصفه أحد محبيه بقوله: سمعت عنه كثيراً، ورأيت له في قلوب محبيه صوراً لامعة رائعة، فتراءى لعقلي عملاق هُدى ورأي وحكمة، وتخيلته أمام عيني عملاقاً في جسمه أيضاً، جباراً في قسماته، وسماته.

ولما رأيته بين صحبه، أول ما رأيته، ما ظننت أنه هو، ثم قدمت إليه فتلقاني في بشاشة، لا تكلف فيها، ورحب بي، منساقاً مع فطرة رحبة.

لم أجد له في مشاهدتي، صورته في مخيلتي، كان أقرب إلى القِصر منه إلى الطول، وأدنى إلى الوداعة منه إلى الجبروت، في صراحته إباء، وفي جرأته إغضاء.

زرته في بيته، فوجدته زاهداً بسيطاً، وأكلت على مائدته، فوجدته فقيراً كريماً، وصحبته في أسفار، فلم أر أكثر منه أنساً وإيناساً في مواطن الراحة، ولا أكثر منه فناء في العمل وقت العمل.

شاهدته يتكلم بين أفراد، فلم أجد صوته يتطاول على الأصوات، ولاح لي أنه أميل إلى الإصغاء منه إلى إبداء الآراء، فإذا دخل الحديث طور المراء، صمت في إعراض، أو أقبل في ابتسام، وهو بين الإشفاق والشفقة، حتى إذا انتهى الأمر إلى زبدته، كانت كلمته هي الفاصلة.

أصغيت إليه وهو يخاطب ملأه فخيل إليَّ أنه يحاول أن يسكت لسانه، وينطق قلبه بل وكل جوارحه، وإذ ذاك كان يمعن النظر في من أمامه وكأنه يحدق في أفق بعيد فينبعث من عيونه شبه نور وهَّاج، يتصل شعاعاً يخلب القلب.

وسمعته يخاطب الجماهير، فوجدته الطبيب الخبير، يعالج في ثنايا حديثه شؤوناً من صميم حياة المستمعين، حتى ليظن أحدهم أنه كشف خصوصية مشكّلته. فإذا آنس أن القوم قد ركنوا إليه، اشتد عليهم في موعظته وجلجل بصيحات الحق، تتخلل حديثه الدفاق، المرصّع بآي القرآن، فيضعون أنفسهم منه ـ دون اختيار ـ موضع الرعية من الراعي.

وهكذا يبلغ منهم لدعوته ما يريد، وينتهي غير مملول، محبوباً ومرهوباً.

ـ حياته من المولد حتى الإسماعيلية: (1906 ـ 1927)

ولد الإمام حسن البنّا في المحمودية عام 1906م وقضى فيها سنوات عمره الأولى ومنذ صباه المبكر نمت معه الرغبة في الإصلاح على نهج الإسلام، فكانت ثورة على كل مظاهر الفسق

والتحلل، وقعت بالصبي الصغير، وهو إذ ذاك تلميذ في المدرسة الإعدادية إلى أن يثور عند رؤيته لتمثال خشبي عارٍ على صورة تتنافى مع الآداب، معلق على سارية إحدى السفن الشراعية على شاطئ ترعة المحمودية، فيندفع الصبي الصغير بفطرته السليمة، إلى ضابط النقطة، ليبلغه ما رآه معلقاً عليه باستنكار فيستجيب الضابط لتلك الغيرة المؤمنة، ويقوم من فوره إلى حين يهدد صاحب السفينة، ويأمره بإنزال التمثال في الحال، وكان له ما أراد.

وتبلورت شعلة الإيمان المقدسة في نفسه على مر الأيام، فاستطاع أن يترجمها إلى عباراته القوية فيما بعد، حيث يقول: «والفرق بيننا، وبين قومنا أن الإيمان عندهم إيمان مخدر نائم في نفوسهم، لا يريدون أن ينزلوا على حكمه، ولا أن يعملوا بمقتضاه، على حين أنه إيمان ملتهب، مشتعل، قوي، يقظ في نفوس الإخوان المسلمين».

ويبدو أن مقومات الزعامة والقيادة كانت متوفرة لديه، ففي مدرسة الرشاد الإعدادية كان متميزاً بين زملائه، مرشحاً لمناصب القيادة بينهم، حتى أنه عندما تألفت «جمعية الأخلاق الأدبية» وقع اختيار زملائه عليه ليكون رئيساً لمجلس إدارة هذه الجمعية.

غير أن تلك الجمعية المدرسية لم ترض فضول هذا الناشئ، وزملائه المتحمسين، فألفوا جمعية أخرى خارج نطاق مدرستهم، سموها «جمعية منع المحرمات» وكان نشاطها مستمداً من اسمها، عاملاً على تحقيقه بكل الوسائل، وطريقتهم في ذلك هي إرسال

الخطابات لكل من تصل إلى الجمعية أخبارهم بأنهم يرتكبون الآثام، أو لا يحسنون أداء العبادات.

ثم تطورت الفكرة في رأسه بعد أن التحق بمدرسة المعلمين في دمنهور، فألّف «الجمعية الحصافية الخيرية» التي زاولت عملها في حقلين مهمين هما:

أولاً: نشر الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، ومقاومة المنكرات والمحرمات الفاشية.

ثانياً: مقاومة الإرساليات التبشيرية التي اتخذت من مصر موطناً، تبشر بالمسيحية في ظل التطبيب، وتعليم التطريز، وإيواء الطلبة.

بعد انتهائه من الدراسة في مدرسة «المعلمين» في دمنهور، انتقل إلى القاهرة، وانتسب إلى مدرسة «دار العلوم العليا»، واشترك في «جمعية مكارم الأخلاق» الإسلامية، وكانت الجمعية الوحيدة الموجودة في القاهرة في ذلك الوقت، وكان يواظب على سماع محاضراتها، كما كان يتتبع المواعظ الدينية التي كان يلقيها في المساجد حينذاك نخبة من العلماء العاملين.

بيد أن ما رآه في القاهرة من مظاهر التحلل والفساد والبعد عن الأخلاق الإسلامية، جعلته يفكر في أن المساجد وحدها لا تكفي في إيصال التعاليم الإسلامية إلى الناس، وهنا تبدو عقلية البنّا المبتكرة، لأن الجمهور الذي لا يرتاد المساجد، أشد حاجة إلى الموعظة، وقد اقترح على جماعة من زملائه في «دار العلوم» وبعض أصدقائه الأزهريين أن يخرجوا للدعوة في المقاهي

والمجتمعات العامة!! فعجبوا لفكرته، واستنكروها أول الأمر!! وانتهى الجدل بينهم أن تكون التجربة هي الحد الفاصل بين المضي فيها أو الإقلاع، وأظهرت التجربة نجاحاً عظيماً لفكرته، شجعهم على الاستمرار فيها، وتخصصت منه شعبة تتولى نشر الدعوة الإسلامية في الريف والمدن أثناء الإجازة الصيفية، وأفادوا من هذه التجربة كسب الثقة النفسية، وحسن الأحدوثة في الأوساط الشعبية.

ثم اجتاحت مصر موجة من الإلحاد والإباحية، إثر الانقلاب الكمالي في تركيا - إن صح هذا التعبير - وإلغاء الخلافة الإسلامية.

وكان لهذه الموجة الإلحادية رد فعل قوي، في الأوساط الإسلامية عامة، وفي نفس الأستاذ البنّا خاصة، فكان يتحدث عن شعوره لكل المتصلين به من الزملاء، ولكل من يعرفه ويمكنه الاتصال بهم من الشيوخ والعلماء.

وكان ممن اتصل بهم المرحوم السيد محمد رشيد رضا والمرحومان الشيخ الدجوي والأستاذ الأكبر محمد الخضر حسين شيخ الأزهر السابق، والأستاذ الكبير محب الدين الخطيب.

وقد تحدث معهم في ضرورة مواجهة الموقف بعمل إيجابي، فأثمرت هذه الجهود صدور مجلة «الفتح».

ويبدو أن فكرة الإخوان قد تبلورت في رأسه أول ما تبلورت وهو طالب بدار العلوم، فقد كتب موضوعاً إنشائياً كان عنوانه: «ما هي آمالك في الحياة بعد أن تتخرج». فقال فيه: إن أعظم آمالي بعد إتمام حياتي الدراسية - أمل خاص، وأمل عام.

فالخاص: هو إسعاد أسرتي وقرابتي ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

والعام: هو أن أكون مرشداً معلماً أقضي سحابة النهار في تعليم الأبناء، وأقضي ليلي في تعليم الآباء هدف دينهم، ومنابع سعادتهم تارة بالخطابة والمحاورة، وأخرى بالتأليف والكتابة، وثالثة بالتجول والسياحة.

وقد يعجب الكثير أن تكون هذه آمال طالب في مقتبل حياته!! حيث الغرائز مستعرة لا تطلب سوى الإرضاء!! والنزوات مشتعلة لا تطلب إلا الإطفاء، والشباب فوار ينشد المتعة من أي طريق.

والمتتبع بعد ذلك لتاريخ الأستاذ حسن البنّا يجد أنه لم يخرج عن البرنامج الذي رسمه لنفسه، وهو طالب، في هذا الموضوع الإنشائي بالذات، فقد رسم في أمله العام الغاية التي يسعى لتحقيقها، وهي تعليم الناس هدف دينهم، ومنابع سعادتهم، والوسيلة وهي: الخطابة والمحاورة، والتأليف، والكتابة، والتجول، والسياحة.

ـ الإسماعيلية وتأسيس جماعة الإخوان المسلمين:

حصل الأستاذ البنّا على دبلوم دار العلوم العليا سنة 1927، وكان الأول على دفعته، وعُين معلماً في مدرسة «الإسماعيلية الإبتدائية الأميرية».

ولما استقر به المقام في الإسماعيلية أثَّر في نفسه ما رآه من الاستعمار العسكري المتمثل في المعسكرات الإنجليزية بالقناة،

والاستعمار الإقتصادي المتمثل في شركة قناة السويس، ثم ساءه أن يعرف أن المسلمين في البلد منقسمين بسبب خلافات دينية، نتيجة تعصب كل فريق لرأي خاص، فاعتزل جمهور المسجد، وعاد إلى جمهور المقاهي مرة أخرى، واختار لذلك ثلاثة مقاهٍ كبيرة، ورتب لكل منها درساً في الأسبوع، وأخذ يزاول التدريس ويتحرى الموضوع الذي يتحدث فيه، حتى لا يتعرض للنواحي الخلافية، ويضرب لهم مثلاً لتسامح علماء المسلمين في الصدر الأول رغم اختلافهم في الآراء.

وقد عمل الوعظ عمله في نفوس المتلقين، فأخذوا يفيقون ويفكرون، ثم تدرجوا من ذلك إلى سؤاله عما يجب عليهم تجاه دينهم وأمتهم، فأجابهم إجابات غير قاطعة جذباً لانتباههم، واسترعاء لقلوبهم، وانتظاراً للفرصة السانحة، وتهيئة للنفوس الجامحة.

وفي آذار/ مارس عام 1928 زار الأستاذ البنّا أولئك الإخوة الستة: حافظ عبد الحميد، وأحمد الحصري، وفؤاد إبراهيم، وعبد الرحمن حسب الله، وإسماعيل عز، وزكي المغربي، وهم من الذين تأثروا بالدروس والمحاضرات التي كان يلقيها، وجلسوا يتحدثون إليه، وفي صوتهم قوة، وفي عيونهم بريق، وعلى وجوههم سنا الإيمان والعزم، وقالوا: ما الطريق العملية إلى عزة الإسلام، وخير المسلمين؟! ونحن لا نملك إلا هذه الدماء تجري حارة بالعزة في عروقنا، وهذه الأرواح تسري مشرقة بالإيمان والكرامة مع أنفسنا، وهذه الدراهم القليلة، من قوت أبنائنا، وكل

الذي نريده أن نقول لك ما نملك لنبرأ من التبعة بين يدي الله، وتكون أنت المسؤول بين يديه عنا، وعما يجب أن نعمل.

كان لهذا القول المُخلص أثره البالغ في نفس الأستاذ البنا، ولم يستطع أن يتنصل من هذه التبعة، وقال في تأثر عميق: «شكر الله لكم، وبارك هذه النية الصالحة، ووفقنا إلى عمل صالح، يرضي الله، وينفع الناس، وعلينا العمل، وعلى الله النجاح، فلنبايع الله على أن نكون لدعوة الإسلام جنداً، وفيها حياة الوطن، عزة الأمة».

وكانت بيعة، وكان قسماً أن نحيا إخواناً نعمل للإسلام، ونجاهد في سبيله.

وقال قائلهم: بم نسمي أنفسنا؟ وهل نكون جمعية، أو نادياً، أو طريقة، أو نقابة حتى نأخذ الشكل الرسمي؟ فرد الأستاذ البنّا قائلاً: «لا هذا، ولا ذاك، دعونا من الشكليات، ومن الرسميات، وليكن أول إجتماعنا وأساسه: الفكرة والمعنويات والعمليات. ونحن إخوة في خدمة الإسلام، فنحن إذن «الإخوان المسلمون».

وجاءت بغتة... وذهبت مثلاً... وولدت أول تشكيلة للإخوان المسلمين من هؤلاء الستة حول هذه الفكرة، على هذه الصورة، وبهذه التسمية.

وهكذا غرست البذرة الأولى لفكرة الإخوان المسلمين في أرض طيبة من هذه القلوب الستة، آمنوا بها، عاهدوا الله على الجهاد في سبيله، فكانت تلك الثمار لوفائهم وإخلاصهم، من نجاح للدعوة، ومرشدها.

ولبث الأستاذ البنّا يعمل لدعوته صامتاً، فكسبت دعوته ـ كل يوم ـ مزيداً من الأنصار والجنود، بفضل إخلاصه العميق، وفهمه الدقيق للفكرة، وأهدافها.

ولاقت دعوته نجاحاً، فأغراه على مواصلة الكفاح، ودفعه الإيمان بالفكرة والحماسة لها إلى الفناء في سبيل نشرها، وإلى توسيع نطاق البيئة التي يعمل فيها، فلم يترك قرية، ولا بلدة، ولا كَفراً إلا زاره، واجتمع إلى الناس فيها، في مساجدهم، وفي بيوتهم. وكانت أسفاره في عطلته الأسبوعية، وفي عطلته السنوية في الصيف، ففي الأولى يزور البلاد القريبة، وفي الثانية يزور البلاد البعيدة.

وهكذا استمر الأستاذ البنّا في نشر دعوته، في كل مكان يصل إليه في أسفاره البعيدة، أو القريبة.

وقد أثمرت أسفاره بعد سنتين شعبة في كل من أبو صوير وبور سعيد والبلاح، وبعد ثلاث سنوات شعبة أخرى في السويس، وبعد أربع سنوات نحواً من عشرة فروع، معهداً في الإسماعيلية لتربية البنات، وإعدادهن ليكُنَّ أخوات مسلمات.

ـ اغتيال الإمام حسن البنّا:

أعلن رئيس وزراء مصر النقراشي مساء الأربعاء في 8/ 12/ 1948 قراره بحل جماعة الإخوان المسلمين، ومصادرة أموالها واعتقال معظم أعضائها. وفي اليوم التالي بدأت حملة الاعتقالات والمصادرات، ولما همّ الأستاذ حسن البنّا أن يركب سيارة وُضع

فيها بعض المعتقلين اعترضه رجال الشرطة قائلين: لدينا أمر بعدم القبض على الشيخ البنا. ولكن البنّا أصرّ على الركوب في سيارة المعتقلين، فعادت السلطات وأطلقت سراحه، فصرح عندئذ بقوله: أنتم تقتلونني بعدم القبض عليّ. وقال أمام مجلس الدولة: إن قرار حلّ الإخوان صدر عن إجتماع عُقد في ثكنات الاستعمار. وأخذ يتردد على «جمعيّة الشبان المسلمين»، وحدَّثهم مرة قائلاً لهم: لقد جاءني سيدنا عمر في الرؤيا يُنبئني بأعلى صوته: سَتُقْتَلُ يا حسن. ثم قُمتُ وتهجدت إلى الفجر.

ثم صادرت الحكومة سيارة الإمام الخاصة، واعتقلت سائقه، وسحبت سلاحه المُرخص به، وقبضت على شقيقيه اللذين كانا يرافقانه في تحركاته. وقد كتب إلى المسؤولين يطلب إعادة سلاحه إليه، ويُطالب بحارس مسلح يدفع هو راتبه، وإذا لم يستجيبوا فإنه يُحَمّلهم مسؤولية أي عدوان عليه.

لكن الأمور كانت مرتبة فتتابعت الأحداث سريعاً، حيث كان الأميرالاي محمود عبد المجيد المدير العام للمباحث الجنائية في وزارة الداخلية يُدبر أمر اغتيال حسن البنا، واستخدم في ذلك مجموعة من الأمن المصري ووضع تحت تصرفهم سيارته الرسمية رقم 9979. وتفصيل ذلك في مفكرة النيابة العامة المصرية عام 1952.

في الساعة الثامنة من مساء السبت في 12 / 2 / 1949 كان الأستاذ البنّا يخرج من باب «جمعية الشبان المسلمين» يرافقه رئيس الجمعية لوداعه ودقّ جرس الهاتف داخل الجمعية، فعاد رئيسها

ليجيب على الهاتف، فسمع إطلاق الرصاص، فخرج ليرى صديقه الأستاذ البنّا وقد أصيب بطلقات تحت إبطه وهو يعدو خلف السيارة التي ركبها القاتل، ويأخذ رقمها.

لم تكن الإصابة خطرة، بل بقي الإمام البنّا بعدها متماسك القوى، كامل الوعي، وقد أبلغ كل من شهدوا الحادث رقم السيارة، ثم نقل إلى مستشفى قصر العيني فخلع ملابسه بنفسه. وقد شهد بذلك محمد الليثي الذي كان في غرفة العمليات حين وصول حسن البنا، كما شهد أن الطبيب أجاب البكباشي محمد وصفي، أحد رجال فاروق، حين سأله عن المصاب: إن إصابته ليست خطرة.

هذا كله يرجح بأن الإمام البنّا لم يُقتَل برصاص المغتالين، بل بأحد أمرين:

الأول: أنه تُرك ينزف حتى أُجهز عليه، ومُنع الطبيب من إسعافه.

الثاني: أن محمد وصفي ارتكب جريمة القتل داخل غرفة العمليات. فقد أثبتت أقوال الشهود في التحقيقات أن محمد وصفي فرض نفسه في غرفة العمليات بوصفه ممثلاً لوكيل الحاكمدار أحمد طلعت، وأخرج كل من كان في الغرفة، ولم يبق بجانبه إلا الطبيب المغلوب على أمره. وقد ورد على لسان الأمين الخاص للقصر الملكي: إن الملك أرسل محمد وصفي للإجهاز على حسن البنّا إن كان لا يزال حياً!

لفظ البنّا أنفاسه الأخيرة في الساعة الثانية عشرة والنصف بعد

منتصف الليل، أي بعد أربع ساعات ونصف من بدء محاولة الاغتيال، ولم يعلم والده وأهله بالحادث إلا بعد ساعتين أخريين. وأرادت الحكومة أن تظل الجثة في المستشفى حتى تخرج إلى الدفن مباشرة، ولكن ثورة والد الشهيد جعلتها تتنازل فتسمح بحمل الجثة إلى البيت، مشترطة أن يتم الدفن في الساعة التاسعة صباحاً، وألا يقام عزاء!.

اعتقلت السلطة كل رجل حاول الاقتراب من بيت البنّا قبل الدفن فخرجت الجنازة تحملها النساء، إذ لم يكن هناك رجل غير والده الذي رفض أن يحملها، وقال لرجال الجيش والشرطة: أنتم قتلتموه فاحملوا جثته على أعين الناس!

ـ شهادة رجالات عصره:

قال سيد قطب، تحت عنوان: حسن البنّا وعبقرية البناء: «في بعض الأحيان تبدو المصادفة العابرة قدراً وحكمة مدبرة في كتاب مسطور ـ حسن البنا ـ إنها مصادفة أن يكون هذا لقبه. ولكن من يقول: إنها مصادفة؟! والحقيقة الكبرى لهذا الرجل هي البناء وإحسان البناء بل عبقرية البناء؟!.. وإن استشهاده عملية جديدة من عمليات البناء، وعملية تعميق للأساس وتقوية للجدران. وما كان ألف خطبة وخطبة، ولا ألف رسالة للفقيد الشهيد لتلهب الدعوة في نفوس الإخوان كما ألهبتها قطراتُ الدم الزكي المهراق.. إنّ كلماتنا تظل عرائس من الشمع، حتى إذا مُتنا في سبيلها دَبَّت فيها الروح، وكتبت لها الحياة. وعندما سلّط الطغاة الحديد والنار على بناء حسن البنّا والعاملين فيه، استطال عليهم

الهدم، لأن الحديد والنار لا يمكن أن يهدما فكرة في يوم من الأيام».

وقال السيّد أبو الحسن الندوي: «إن كل من عرف حسن البنّا عن كثب لا عن كتب، وعاش متصلاً به، عرف فضل هذه الشخصية التي قفزت إلى الوجود وفاجأت مصر ثم العالم العربي والإسلامي كله بدعوتها وجهادها وقوتها الفذّة.

فقد اجتمعت فيه صفات ومواهب تعاونت في تكوين قيادة دينية إجتماعية لم يعرف العالم العربي والإسلامي وما وراءه قيادة دينية أو سياسية أقوى وأعظم تأثيراً، أو أكثر إنتاجاً منها منذ قرون، وفي تكوين حركة إسلامية يندر أن تجد حركة أوسع نظاماً، وأعظم نشاطاً، وأكبر نفوذاً منها. وقد تجلت عبقرية حسن البنّا من ناحيتين:

الأولى: شغفه بدعوته وإيمانه واقتناعه بها، وتفانيه فيها، وانقطاعه إليها بجميع مواهبه وطاقاته ووسائله. وذلك هو الشرط الأساس والسمة الرئيسة للدعاة والقادة الذين يُجري الله على أيديهم الخير الكثير.

الثانية: تأثيره العميق في نفوس أصحابه وتلاميذه ونجاحه المدهش في التربية والإنتاج. فقد كان منشئ جيل ومربي شعب وصاحب مدرسة علمية فكرية خُلقية. وقد أثّر في ميول من اتصل به من المتعلمين والعاملين، في أذواقهم ومناهج تفكيرهم وأساليب بيانهم ولغتهم».

وقال الشيخ محمد الحامد: «كان حسن البنّا لله بكليته وروحه

وجسده، بقلبه وقالبه، بتصرفاته وتقلبه. كان لله فكان الله له، واجتباه فجعله من سادات الشهداء الأبرار».

ونقل الشيخ سعيد حوى عن الشيخ الحامد أنه كان يعتبر البنّا مُجَدِّد القرون السبعة الماضية.

وينقل الشيخ الحامد عن شيخ وعالم مصري قوله: إن الإلحاد امتد إلى مصر وغزا كثيراً من أوساطها، ولم يستطع الأزهر الشريف ولا الجمعيات الدينية ردَّ سيله الجارف، حتى جاء حسن البنّا ودرأ خطره وأنجى من شره.

وقال عبد الحكيم عابدين أمين سر الإخوان في عهد البنا: أقام الداعية المؤمن مدرسته الفاضلة في توجيه الفكر الإسلامي على عشر دعائم:

- دوام استهداف الوحدة، وهي الحرص على رابطة القلوب وإجتماع الكلمة.
- كل من قال: «لا إله إلا الله» يلتقي معك في ظل التوحيد.
- اتهام النفس، وإحسان الظن بالمخالف.
- أدب الإنكار والاختصام، فإذا أنكر على إنسان أو خاصم، التزم الخلق الرفيع في ذلك.
- ذم الجدال والمكابرة.
- جواز تعدد الصواب.
- التعاون في المتفق عليه، وتبادل العذر في المختلف فيه.
- استحضار خطر العدو المشترك الذي لا يميز بين مسلم وآخر.

ـ فتح آفاق العمل والإنتاج، فعلى كلّ أخ ـ فوق أعماله الخاصة ـ أن يقرأ كل يوم وِرْداً من القرآن، ويحاسب نفسه قبل النوم.

ـ الرثاء للضال المنحرف، لا الشماتة فيه ولا التشهير به.

وقال الأمير المجاهد عبد الكريم الخطابي: «ويح مصر وإخوتي أهل مصر مما يستقبلون جزاء ما اقترفوا، فقد سفكوا دم وليّ من أولياء الله!! ترى أين يكون الأولياء إن لم يكن منهم، بل في غُرَّتهم، حسن البنّا الذي لم يكن في المسلمين مثله؟».

كان من لا يعرف حسن البنّا تشده إليه طريقته المهذبة الرقيقة في التعامل مع الناس... كتب عنه عدد كبير من المفكرين العلمانيين، فشهدوا بحسن أخلاقه وأدبه وتواضعه رغم اختلافهم معه في الأفكار والتصورات، ولكنهم أنصفوا الرجل.

يقول إحسان عبد القدوس في «روز اليوسف» تاريخ 12 أيلول/سبتمبر عام 1945: «لو زرت حسن البنّا لاستقبلك بابتسامة واسعة، وآية من آيات القرآن الكريم، يعقبها بيتان من الشعر، يختمها بضحكة كلها بشر وحياة. والرجل ليس فيه شيء غير عادي، ولو قابلته في الطريق لما استرعى نظرك، اللهم إلا بنحافة جسمه ولحيته السوداء التي تتلاءم كثيراً مع زيه الإفرنجي وطربوشه الأحمر الغامق». ثم تحدث عن لباقته وقدرته على الإقناع، ورزانة أسلوبه.

ويقول الأديب الكبير أحمد حسن الزيات: «وجدت فيه ما لم أجد في قبيله، أو أهل جيله من إيمان بالله راسخ رسوخ الحق، لا يزعزعه غرور العلم ولا شرود الفكر، وفقه في الدين صافٍ صفاء المُزن، لا يكدره ضلال العقل، ولا فساد النقل، وقوة

في البيان مشرقة إشراق الوحي لا تحبسها عقدة اللسان، ولا ظلمة الحس، إلى حديث يتصل بالقلوب، ومحاضرة تمتزج بالأرواح، وجاذبية تدعوك إلى أن تحبه، وشخصية تحملك على أن تذعن».

وتابع الزيات «والفطرة التي فطر عليها حسن البنّا والحقبة التي ظهر فيها حسن البنّا تشهدان بأنه المصلح الذي اصطنعه الله لهذا الفساد الذي صنعه الناس».

ويقول الشيخ محمد الغزالي في قمة خلافه مع الإخوان وبعد أن تخلى عنهم: «شهدت رجلاً كان يهاجم الأستاذ البنّا في الهيئة التأسيسية مهاجمة عنيفة، ويخاطبه بما لا يليق من الألفاظ. فلما ثار عليه الإخوان غضب الإمام الشهيد وثار في وجه الغاضبين، حتى لقد أخرج بعضهم، ثم أقبل مبتسماً على هذا المهاجم المتجني، وقال له: قل ما شئت وانقدني كما ترى، فلن تُقاطَع بعد ذلك، ولعلي أجد في قولك ما أصلح به خطأ أو أقوم به معوجاً».

ـ من توجيهات الإمام البنا:

أيها الإخوان.. إننا حين نلقي نظرةً على هذه الدعوة ولُبِّها نجده أمراً سهلاً فطرياً، فما جاءت الدعوة معقدة النظريات، وما جاءت الدعوة متفرقة المقاصد.. وإنما جاءت مجموعةً في شيءٍ واحدٍ، وهو لبُّ صلاحها وهو الخير لمن تبعها وهو كل شيء فيها.. ذلك هو توحيد الله تبارك وتعالى، ومعرفة رسله، فهي دعوة ربانية.. تريد وصل الإنسانية بربِّه، حتى يصبح المؤمن بها إنساناً ربانياً، يعمل بأمر الله، ويتصرف بمرضاة الله وفي حدود هذه المعرفة، فلا يخرج عنها قيد شعرة.

إن لبَّ الدعوة ـ يا أخي ـ أن تتجرد من هواك وشهوتك ومطامعك وآرائك، فتعمل بإرادة الله فيك. . العمل مع أنفسنا هو أول واجباتنا، فجاهدوا أنفسَكم واحمِلوها على تعاليم الإسلام وأحكامه، ولا تتهاونوا معها في ذلك بأي وجهٍ من الوجوه. . أدّوا الفرائض، وأقبِلوا على الطاعة، وفرُّوا من الإثم وتطهّروا من العصيان، وصِلُوا قلوبكم ومشاعركم دائماً بالله الذي له ملك السموات والأرض، قاوموا الكسل والعجز، ووجِّهوا قلوبكم ومشاعركم وعواطفكم إلى الفضيلة الطاهرة النقية، وخالِفوا نزعات الطيش ومضلات الهوى، واحرصوا على الوقت، فلا تصرفوه في غير فائدة، وحاسبوا أنفسكم فيه حساباً عسيراً، واحذروا أن تمر بكم دقيقةٌ واحدةٌ لا يكون لأحدكم فيها عملٌ طيبٌ وسعيٌ مبروك.

والعمل مع بيوتكم وأسركم ـ أيها الإخوان ـ أقدس واجباتكم، فالأمة هي مجموعة هذه الأسر، وإذا قويت دعائم الأسرة قوي بناء الأمة واطمأنّينا على الجيل الجديد كل الاطمئنان، فتلطفوا مع أهليكم وأُسَركم وأصدقائكم وأقربائكم، واحملوها جميعاً على خطتكم، وأقنعوهم في أدبٍ ولطف ومنطق وحجة بوجاهة رأيكم، واعتدال طريقتكم، وفائدة عملكم حتى يكونوا معكم فيما أنتم بصدده من عملٍ مجدٍ نبيل.

ووحدتكم ـ أيها الإخوان ـ وارتباطكم هو السلاح الأول، وهو أقوى الأسلحة في أيديكم، فاحرصوا على هذه الوحدة، وكونوا دائماً مع الجماعة، ولا تخالفوا عن أمر إخوانكم، ولا تفرقَنّ بينكم المشاغل الزائلة ولا الأوهام القاتلة.

انشروا الفكرة في كل محيط يتصل بكم، في الحوانيت والشوارع، والبيوت والمساجد، والمقاهي، والمجالس العامة والخاصة، وفي القرى والريف والمدن والعواصم، وفي المصانع والمعامل، والحقول والمدارس، واجمعوا قلوب الناس جميعاً على كتاب الله وتحت لواء محمد ﷺ أفضل خلق الله أجمعين ورحمة الله للعالمين، فلواؤه الحمد، وشرعته منهاج الرشد، وهديُه أفضل الهدى، ومن استظل بظله وسار تحت رايته فاز في الدنيا بالنصر ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] وفاز في الآخرة بالأجر ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحريم: ٨].

واجعلوا في كل شارع جماعةً إخوانيةً، وفي كل قرية كتيبةً قرآنيةً، وفي كل مدينةٍ رايةً محمديةً، وفي كل فجٍّ من الفجاج أخاً يهتف بمبادئكم وينادي بتعاليمكم، ويعطي كلمتكم، ويبايع بيعتَكم، ويجهِّز نفسه ليظل مكانه في الصف، وإن يوم النداء لقريب.

ألِّفوا الفرق الرياضية بأنواعها في شعبكم، فالقوة شعاركم، ولا قوة في جسم ضعيف ضئيل، ووجِّهوا عنايتكم إلى الجوالة، وليكن في كل شعبة من شعبكم فرقة من شبابها، فهو الجهاد في سبيل الله، وهو ذروة سنام هذا الدين، وهو الدرب الذي يضاعف الله فيه الأجر ويجزل المثوبة.

كوِّنوا الكتائب، فإن جيوش الليل تنزل بالنصر على جيوش النهار ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وأنيروا حنادس الظلام بآيات الكتاب الكريم، وناجوا الله والناس

نيام يذل لكم أعداءكم ويبارك في أعمالكم، ويرزقكم التأييد والمعونة، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

اقتصدوا من أموالكم لإيمانكم ومستقبلكم فإنكم لا تدرون ما الموقف غداً، ولا يصرفكم ذلك عن الثقة بمولاكم، والاعتماد على بارئكم، وإنما هو على حدٌ قول النبي الصالح ﴿**يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ**﴾ [يوسف: ٦٧].

ـ من مؤلفات الإمام حسن البنّا:

لقد اهتم الإمام البنّا بتأليف وبناء الرجال قبل تأليف الكتب، ومع ذلك فقد ألّف مجموعة الرسائل التي تعتبر مرجعاً أصيلاً لفكر جماعة «الإخوان المسلمين»، وله مجموعة من الكتب هي:

- «مذكرات الدعوة والداعية»، لكنها لا تغطي كل مراحل حياته وتتوقف عند سنة 1942م.
- كتاب عن المرأة بعنوان «المرأة المسلمة».
- كتاب «تحديد النسل».
- «مباحث في علوم الحديث».
- كتاب «السلام في الإسلام».
- وآخر ما نُشر له كتاب بعنوان «قضيتنا».

وله خلاف ذلك عدد كبير من المقالات، والبحوث القصيرة، وجميعها منشورة في صحف ومجلات الإخوان المسلمين التي كانت تصدر في الثلاثينيات والأربعينيات، بالإضافة إلى مجلة «الفتح الإسلامية» التي نشر فيها أول مقالة له بعنوان «الدعوة إلى الله».

- **المراجع:**

- **«حسن البنّا مواقف في الدعوة والتربية»**، للأستاذ عباس السيسي.
- **«مذكرات الدعوة والداعية»** للإمام حسن البنّا.
- مجلة **«اليقظة»** شباط/ فبراير عام 2002.
- مجلة **«الدعوة»** شباط/ فبراير عام 1955.
- **«مجموعة الرسائل»** للإمام حسن البنّا.

أنطون سعادة
(1904 - 1949)

ولد أنطون سعادة في الأول من آذار/مارس عام 1904 في بلدة الشوير - جبل لبنان. والده الدكتور خليل سعادة طبيب وصحافي معروف، كاتب ومترجم، وله قاموس شهير إنكليزي - عربي. والدته السيدة نايفة نصير خنيصر من مواليد الشوير، هاجرت أسرتها في أواخر القرن التاسع عشر إلى الولايات المتحدة. توفيت عام 1913 في القاهرة أثناء وجود العائلة هناك.

تلقى علومه الأولى في مدرسة «الفرير» في القاهرة، وبعد وفاة والدته عاد إلى الوطن ليعيش في كنف جدته حيث سافر والده للعمل في الأرجنتين، وأكمل علومه في مدرسة برمانا، وفيها سجل أبكر مواقفه القومية ضد الاستعمار حيث قام بإنزال العلم التركي عن سارية المدرسة ومزقه.

عام 1919 هاجر مع إخوته إلى خاله في الولايات المتحدة الأميركية، وهناك عمل عدة أشهر في محطة للقطارات ريثما ينتقل إلى البرازيل حيث المقر الجديد لعمل والده.

في البرازيل أقبل سعاده على نهل العلوم بمواظبة واهتمام بالغين، متتلمذاً على يد أبيه، وانكب على دراسة اللغات بجهد شخصي (البرتغالية ـ الألمانية ـ الروسية). ثم اتجهت قراءاته إلى الفلسفة والتاريخ والإجتماع والسياسة. وما لبث أن شارك والده في إصدار جريدة «الجريدة»، ثم في مجلة «المجلة» وقد اقتصر دوره في البدء على الطباعة إضافة لبعض الأعمال الإدارية والمالية.

ظهرت كتاباته الأولى عندما كان في الثامنة عشرة. ونشر خلال عامي 1922 ـ 1923 عدة مقالات طالب فيها بإنهاء الإحتلال الفرنسي وإستقلال سوريا، وكان أول من استشرف مشروع الحركة الصهيونية وخطره على سوريا الطبيعية رابطاً بين وعد بلفور بـ «وطن قومي لليهود في فلسطين» وبين إتفاقية سايكس ـ بيكو التي قسمت سوريا الطبيعية إلى خمس كيانات، وكان من جرائها سلخ 180 ألف كلم مربع من أراضيها وإخضاعها للإحتلال التركي، إضافة إلى إخضاع الأهواز للإحتلال الإيراني.

حاول عام 1925 تأليف حزب لتوحيد أبناء الجالية السورية في البرازيل باسم «الشبيبة الفدائية السورية»، لكنه لم يلاق نجاحاً. وأعاد المحاولة عام 1927 فأسس «حزب السوريين الأحرار»، الذي توقف نشاطه بعد ثلاث سنوات.

وإثر توقف مجلة «المجلة» عن الصدور عام 1928 انصرف أنطون سعاده إلى التعليم في بعض المعاهد السورية في سان باولو، كما شارك في بعض اللجان التربوية التي أقامتها الحكومة البرازيلية للإشراف على تطوير المناهج التعليمية، وفي هذه الفترة كتب رواية

«فاجعة حب» التي نشرت فيما بعد في بيروت، وفي صيف 1931 أصدر روايته الثانية «سيدة صيدنايا».

ـ تأسيس الحزب:

في تموز 1930 عاد إلى الوطن، وبعد إقامة قصيرة في ضهور الشوير سافر إلى دمشق لدراسة إمكانية العمل السياسي فيها، كونها العاصمة التاريخية لسورية ومركز المعارضة السياسية للإنتداب الفرنسي، فمارس التعليم لتأمين رزقه، وكتب سلسلة من المقالات في الصحف الدمشقية «اليوم»، «القبس»، «ألف باء»، لكنه سرعان ما عاد إلى بيروت عام 1931، وبدأ بإعطاء دروس من خارج الملاك في اللغة الألمانية في الجامعة الأميركية. وقد أتاح له التدريس ساحة واسعة للحوار الفكري مع الطلبة والوسط الثقافي، إضافة إلى منابر فكرية أتاحتها له عدة جمعيات ثقافية في بيروت، منها: «العروة الوثقى»، «جمعية الاجتهاد الروحي للشبيبة»، «النادي الفلسطيني». وقد حفلت هذه المحاضرات ببواكير فكره القومي الإجتماعي في مرحلة ما قبل إعلان الحزب، وهو ما تمخض عنه فيما بعد العقيدة القومية الإجتماعية، المنهج الفكري للحزب السوري القومي الإجتماعي الذي أسسه في 16 تشرين الثاني/ نوڤمبر عام 1932، وكان حزباً سرياً بسبب الظروف الصعبة الناجمة عن الإنتداب الفرنسي على لبنان والشام.

في العام 1933 أعاد أنطون سعاده إصدار مجلة «المجلة» في بيروت لتساهم في توضيح أسس النهضة السورية القومية الإجتماعية، وعلى صفحاتها ظهرت في الوطن، ولأول مرة،

دراسات تحليلية لموضوع «الأمة» استناداً إلى علم الإجتماع الحديث، وبرؤية مستقلة عن نظريات الغرب التي فلسفت الأمة من منظور عرقي... وسياسي أحياناً أخرى.

في حزيران عام 1935، وبعد أن أصبح انتشار الحزب ملموساً في الأوساط الشبابية والثقافية، أقام سعاده الإجتماع العام الأول رغم سرية الحزب، وفي هذا الإجتماع ألقى خطاباً مكتوباً هو من أهم الوثائق الفكرية في العقيدة السورية القومية الإجتماعية، ودليل عمل حركة النهضة القومية الإجتماعية التي يهدف إليها الحزب، لكن سلطات الإنتداب سرعان ما اكتشفت أمر الحزب نتيجة معلومة نقلها رئيس «الجامعة الأميركية» بايار خودج إلى السلطة الفرنسية، فاعتقلت في 16 تشرين الثاني/نوفمبر 1935 سعاده وعدداً من الأعضاء بتهمة تشكيل جمعية سرية والإخلال بالأمن العام والإضرار بأمن الدولة وتغيير شكل الحكم.

كان هذا الاعتقال الامتحان الأول لمتانة الحزب بعد التأسيس. وظهرت خلال تجربة السجن، ومن ثم المحاكمات، ميزات شخصية سعادة، كمفكر وزعيم نهضة، حيث أعلن لمعتقليه مسؤوليته الكاملة عن تأسيس الحزب شفوياً وخطياً، فأصدرت سلطات الإنتداب الفرنسي قراراً بسجنه ستة أشهر، أكمل خلالها كتابة مؤلفه العلمي «نشوء الأمم» الذي صدرت طبعته الأولى عام 1938، وخرج من السجن في 12 أيار/مايو 1936.

أثار انكشاف الحزب المزيد من التأييد في الأوساط الشعبية، ونشطت حركة الانتماء إلى صفوفه، مما دفع بالقوى الموالية

للإنتداب وبالفئات الطائفية والانعزالية والتقليدية إلى التكتل لمحاربته.

اعتقلت سلطات الإنتداب سعادة مرة ثانية في 30 حزيران/يونيو عام 1936 - أي بعد أسابيع من الإفراج عنه - وظل في السجن إلى 12 تشرين الثاني/نوفمبر 1936 وخلال هذه الفترة أنجز سعادة كتابه «شرح مبادئ الحزب وغايته».

أعيد اعتقاله في 15 أذر/مارس 1937 وظل في السجن حتى 9 أيار/مايو من العام نفسه.

في 14تشرين الأول/أكتوبر 1937 أصدر جريدة «النهضة» التي استقطبت النخبة الثقافية الشابة، وكانت صفحاتها منبراً للحوار بين السوريين القوميين الإجتماعيين ومختلف الفئات الفكرية والثقافية والسياسية في لبنان وكيانات الأمة السورية، وكان سعادة يكتب بشكل يومي، ويتناول مسائل السياسة الخارجية والأمور الفكرية والردّ على القوى السياسية المناوئة، وقد حظيت ردوده القومية على البطريرك الماروني والأحزاب الانعزالية في لبنان والشام باهتمام كبير من مختلف الأوساط، وأضاءت باكراً على المخاطر الناجمة عن الخلط بين الديني والسياسي في لبنان، وعلى الطوائف التي تحول دون قيام المجتمع المدني وتقدم حركة النهضة القومية.

- الاغتراب القسري:

في ربيع العام 1938، ونتيجة الانتشار الواسع للعقيدة القومية الإجتماعية في كيانات الأمة، بادرت سلطات الإنتداب إلى المزيد

من التضييق على الحزب، وفي 11 حزيران/ يونيو غادر سعادة الوطن في جولة على فروع الحزب في بلاد الاغتراب. وسافر براً من بيروت إلى الأردن ومنها إلى فلسطين، حيث اجتمع مع السوريين القوميين الإجتماعيين في عمان وفي حيفا، ثم إلى قبرص، وألمانيا، ومنها سافر إلى البرازيل، حيث استقر في سان باولو مرتع صباه حتى كانون الأول/ ديسمبر عام 1938. وفور مغادرته بيروت قامت سلطات الإنتداب بمداهمة مركز الحزب، وعطلت صحيفة «النهضة»، وحظرت على السوريين القوميين الإجتماعيين ممارسة العمل الحزبي، كما أصدرت مذكرة قضائية بمحاكمة سعادة.

حاولت فرنسا عبر دبلوماسييها الضغط على الحكومة البرازيلية لمنع سعاده من مزاولة العمل الحزبي في أوساط المغتربين السوريين، خصوصاً أنه كان قد سارع إلى إصدار صحيفة تحت اسم «سورية الجديدة»، ـ صدر العدد الأول منها في 11 آذار/ مارس 1939 ـ. وفي 23 آذار/ مارس من العام ذاته أقدمت قوات الأمن في البرازيل على اعتقال سعادة وعدداً من رفاقه، بتهمة المس بسلامة العلاقات الدولية للدولة البرازيلية. ولكن أوساط الجالية السورية وبعض المثقفين البرازيليين سارعوا إلى الدفاع عن سعادة، فأرسل رئيس جمعية الصحافة في سان باولو رسالة استفسار إلى دائرة الأمن العام، خصوصاً أن الحكومة الفرنسية كانت قد طلبت عن طريق قنصلها في البرازيل بتسليم أنطون سعادة ليمثل أمام محاكم سلطات الإنتداب، لكن الحكومة البرازيلية رفضت ذلك، وبعد تحقيق قضائي دقيق أعلنت المحكمة

البرازيلية براءته من التهم الموجهة إليه، وأفرجت عنه وعن رفاقه في 30 نيسان/ أبريل 1939.

بعد خروجه من السجن بأسبوعين غادر سعادة إلى الأرجنتين، ومكث فيها حتى أيار/مايو 1940. وهناك حاول تجديد جواز سفره، لكن السفارة الفرنسية في بيونس أيرس رفضت ذلك. وفي 20 آب/أغسطس من العام ذاته أصدرت سلطات الإنتداب الفرنسي في لبنان حكماً غيابياً قضى بسجن سعادة عشرين عاماً، ونفيه من لبنان عشرين عاماً أخرى، فأصبح بحكم الأسير داخل الأرجنتين لا يستطيع مغادرتها، وظل في مغتربه القسري حتى عام 1947. وأصدر خلال هذه الفترة جريدة «الزوبعة» التي كانت منبراً متميزاً للصوت القومي، وعلى صفحاتها ظهرت أهم كتاباته السياسية والفكرية والأدبية. وكان قد تعرف على الرفيقة جولييت المير، وهي من عائلة طرابلسية مقيمة في الأرجنتين، فتزوجها عام 1941، وأنجب منها في المغترب كريمتاه صفية وأليسار، أما راغدة فولدت بعيد عودة العائلة إلى الوطن.

بعد جلاء القوات الفرنسية عام 1946 حاول العودة إلى لبنان لكن تحالف رئيس الجمهورية بشارة الخوري ورئيس الحكومة رياض الصلح كان يعرقل عودته بحجة الحكم القضائي الصادر بحقه منذ أيام الإنتداب.

ـ العودة إلى الوطن:

في أواخر 1946 قرر سعادة العودة نهائياً إلى لبنان، ضارباً عرض الحائط ممانعات حكومة رياض الصلح وعراقيلها، فأنهى

أعماله التجارية. وكان قد تمكن من الحصول على جواز سفر مؤقت من السفارة الفرنسية في الأرجنتين يتيح له السفر إلى البرازيل، وهناك تمكن بمساعدة رفاقه من الحصول على جواز سفر لبناني، وغادر البرازيل جواً إلى القاهرة في 18 شباط/ فبراير 1947، وفيها التقى برئيس المجلس الأعلى في الحزب الأمين نعمة ثابت وأسد الأشقر، حيث تباحث معهما بأمر العودة إلى الوطن، والموقف السياسي المتوجب اتخاذه حيال هذه الخطوة، في هذا اللقاء تأكد لسعادة أن المجلس الأعلى في الحزب اتخذ قراراً بتكييف سياسته مع النزعة اللبنانية للعهد الذي ورث تركة الإنتداب إذ تم الترخيص له تحت اسم «الحزب القومي» بما يعني التخلي عن جوهر عقيدته القومية.

في 2 آذار/ مارس 1947 وصلت طائرة سعادة إلى بيروت وكان في استقباله حشد شعبي كبير من سائر كيانات الهلال الخصيب، وألقى في هذا الحشد التاريخي خطاباً نوعياً هز أركان الحكم آنذاك، حدد فيه موقفه من إستقلال لبنان والإحتلال الصهيوني لفلسطين، معيداً الحزب إلى مبادئه القومية، وأمام هذا الوضوح الجريء، لم يكن مستغرباً اندفاع أعداء الحزب في حملة سريعة لاحتواء الموجة القومية العارمة التي هزت أركان الحكم، فأصدرت الحكومة اللبنانية في أعقاب الاستقبال الكبير مذكرة توقيف بحق أنطون سعادة، وسيّرت حملات بوليسية لاعتقاله، لكنه لجأ إلى الجبل في منطقة المتن، وكانت الحكومة تخشى نتائج عودة سعادة على الانتخابات النيابية المقررة في أيار/ مايو 1947، فعرقلت نشاطات الحزب، وأصدرت قراراً بتعطيل جريدة «صدى النهضة»

الناطقة باسمه، لكن سعادة استعاض عنها بجريدة «الشمس» التي عُطلت بدورها، فتحول إلى مجلة «الكوكب» حتى آذار/مارس عام 1948 حيث أصدر جريدة «الجيل الجديد»، وكانت الحكومة قد ألغت مذكرة التوقيف في تشرين الأول/أكتوبر 1947.

ـ الثورة والاستشهاد:

فور عودة سعادة إلى الوطن خاض معركة إعادة الحزب إلى مساره القومي الإجتماعي في مواجهة بعض أعضاء إدارته العليا. وعندما لم تفلح المعالجات الهادئة لعملية الانحراف العقائدي أصدر مرسوماً بطرد رموز الانحراف وعلى رأسهم نعمة ثابت ومأمون أياس ثم فايز الصايغ لاحقاً.

بعد انتهاء مفاعيل مذكرة التوقيف، وحسم الخلافات الداخلية في الحزب، تفرغ سعادة للعمل العلني في مواجهة الأوضاع القومية المصيرية، وبصورة خاصة مسألة الاغتصاب اليهودي لفلسطين، ومع اقتراب ذكرى وعد بلفور في تشرين الثاني/نوڤمبر 1948، التي تزامنت مع إجتماع الأمم المتحدة للنظر في الصراع القائم بين أبناء شعبنا في فلسطين والمستوطنين اليهود ـ الذين كانوا يتوافدون مع أسلحتهم من كافة أنحاء أوروبا وأميركا ـ أعد سعادة لمهرجان شعبي كبير في بيروت تعبيراً عن الرفض القومي لمشروع تقسيم فلسطين، لكن الحكومة اللبنانية عطلت المهرجان، فأصدر سعادة بيانه الشهير حول المسألة الفلسطينية داعياً فيه إلى إطلاق حركة مواجهة قومية شاملة وإلى تنظيم المقاومة الشعبية المسلحة، مستنهضاً طاقات الأمة لمواجهة الكارثة المقبلة.

في 29 تشرين الثاني/نوفمبر 1947 أعلنت الأمم المتحدة قرارها الشهير بتقسيم فلسطين، وعبثاً حاول الحزب الإشتراك الواسع في الأعمال العسكرية أثناء حرب 1948، خصوصاً أن الحكومة اللبنانية حالت دون ذلك بجميع الوسائل، لكن السوريين القوميين الإجتماعيين في فلسطين ولبنان والشام والأردن تمكنوا من المشاركة في جيش الإنقاذ، وسقط منهم عدد من الشهداء. وإزاء النكبة بإعلان قيام «إسرائيل» دولة على أرض فلسطين، رأى سعادة أن الاعتماد على القوى السياسية المهيمنة على الأنظمة في الكيانات السورية أمر لا جدوى منه، وبدأ العمل بهدوء لتشكيل جهاز قيادي من أعضاء الحزب يتولى إطلاق حرب التحرير الشعبية، وأسس فرقة الزوبعة الحمراء بقيادة الرفيق مصطفى سليمان كنواة لحركة المقاومة القومية، وبموازاة هذه الخطوة ركّز على إعادة بناء الحزب فكرياً وتنظيمياً، باذلاً المزيد من الجهد على إعداد الأجيال الجديدة، خصوصاً الطلبة الجامعيين، فأعاد نشاط «الندوة الثقافية» وفتح أبوابها أمام مختلف المثقفين، وقد نجح بمحاضراته في إطلاق حالة معنوية كبرى في لبنان والشام والأردن وفلسطين، تحول الحزب جراءها إلى قوة فكرية تنظيمية متفوقة فرضت حضورها القوي على الحياة السياسية في لبنان والشام والأردن، شكّلت تياراً ضاغطاً على الأنظمة الكيانية المتخاذلة التي أحست بالحرج الشديد. وكان رد فعل الحكومة اللبنانية مباشراً، إذ أصدرت سلسلة قرارات منعت بموجبها الحزب من عقد الإجتماعات العلنية، وأدى تعسف حكومة الرئيس رياض الصلح إلى حدوث عدة صدامات بين أعضاء الحزب والسلطة خلال احتفالات الأول من آذار/مارس عام 1949.

في أواخر آذار/مارس 1949 قام حسني الزعيم بانقلاب عسكري في دمشق، وأعلن في حينه أن خطوته تلك جاءت رداً على نكبة فلسطين، في هذا الوقت كانت السلطة اللبنانية تنسق مع الأحزاب الطائفية والانعزالية الداعمة لها لإنزال ضربة قاصمة بالحزب. وكانت الخطة أن يفتعل حزب الكتائب اللبنانية صداماً مسلحاً مع السوريين القوميين الإجتماعيين يكون مبرراً لزج سعاده وأعضاء حزبه في السجن. وحسب الخطة ذاتها، قامت عناصر من الكتائب اللبنانية بمهاجمة مطبعة جريدة «الجيل الجديد» في الجميزة وأحرقتها، وكان ذلك فاتحة إعلان الحرب على الحزب، إذ بادرت سلطات الأمن إلى مداهمة مراكز الحزب وبيوت محازبيه، واعتقلت أعضائه في لبنان، لكن الحكومة لم تنجح في اعتقال سعادة الذي تمكن من مغادرة بيروت، وبعد أيام وصل إلى دمشق بعد أن جاءته ضمانات من حسني الزعيم بمنحه اللجوء السياسي. وهناك بادر إلى التحضير لعمل منظم يحمي الحزب من الاندثار أمام شراسة السلطة في لبنان، فأعلن الثورة القومية الإجتماعية الأولى على النظام. ولم يكن سعادة يعرف وقتها أنه استدرج إلى فخ في دمشق، ولكن، لم تمض أسابيع حتى سارع حسني الزعيم بالتنسيق مع السفارة الأميركية في دمشق، وإثر لقائه مع موشيه شاريت «وزير خارجية الكيان الصهيوني» إلى اعتقال أنطون سعادة في 6 تموز/يوليو 1949، وسلمه إلى الأمن العام اللبناني في السابع من تموز/يوليو، وكان الإتفاق بين حسني الزعيم ورياض الصلح أن تتم تصفية سعادة في الطريق إلى بيروت، لكن الضابط فريد شهاب أبى تنفيذ الأوامر المعطاة له، وسلم سعادة إلى نور الدين الرفاعي قائلاً: «إني أسلمك

أنطون سعادة حياً ولا أريد أن يحمل أحدنا ثأر القوميين». لكن سعادة أعدم فجر الثامن من تموز/ يوليو بعد محاكمة صورية جرت بسرية تامة، ولم يعط محامي الدفاع الوقت لإعداد مرافعته، واعتبرت وصمة في تاريخ القضاء اللبناني، فقد شكل إعدامه أشهر ملف اغتيال لزعيم سياسي ومفكر قومي تآلبت على نهجه الثوري القوى التقليدية المتحالفة مع أميركا وإسرائيل، والأنظمة المتضررة من دعوته العنيدة لتوحيد كيانات سوريا الطبيعية وإقامة جبهة عربية واحدة على غرار الوحدة الأوروبية التي نشهد اليوم ارتفاع مداميكها.

استشهد سعاده فجر الثامن من تموز/ يوليو 1949، قائلاً لجلاديه: «أنا أموت أما حزبي فباقٍ». وكان استشهاده أفصح درس تعلمته الأجيال الناهضة في الفداء القومي.

- روايات عن اغتيال أنطون سعادة:

من روايات المير فريد شهاب:

انخرط المير فريد شهاب في سلك الأمن العام منذ أوائل الثلاثينات، أيام الإنتداب الفرنسي على لبنان والشام. وشارك في عدة حملات لاعتقال الزعيم وأعضاء الحزب.

عام 1949 كان مديراً للأمن العام اللبناني، ومن موقعه الأمني الرفيع كان مطلاً على تفاصيل السياسة اللبنانية، وخفايا الحكومة والبرلمان، وكواليس رئاسة بشارة الخوري.

يتهمه البعض بأنه كان وراء الفخ الذي نصب للزعيم في الشام

وأنه سهّل عبوره الحدود إلى دمشق في حزيران/ يونيو 1949، بينما يرى آخرون أنه كان رجل دولة وذا مصداقية ومتقيداً بالقانون.

كلفه الرئيس رياض الصلح بلقاء حسني الزعيم، إيداعه رغبة السلطة اللبنانية باعتقال أنطون سعاده. وهو الذي تسلّمه من المخابرات السورية وسلمه للجيش اللبناني في 6 تموز/يوليو 1949. وهو يقول أنه حال دون تصفية سعاده على طريق دمشق - بيروت قرب عنجر.

حول علاقته بالحزب أثناء الإنتداب وفي عهد بشارة الخوري، وملابسات تسليم الزعيم وانطباعاته يروي الميرفريد شهاب بعض التفاصيل الموحية، والغنية بالإيحاءات، وفيما يلي روايته:

- فترة الإنتداب الفرنسي:

في العام 1933، كنت أعمل في البوليس العدلي برتبة «كوميسير» - تحري، يومها لم يكن هناك مركز لبناني للأمن العام، بل كنا نعمل تحت أوامر الأمن العام الفرنسي «commissariat - Le Haut». أذكر، أننا استدعينا يوماً إلى إجتماع عام سيبحث فيه موضوع خطير. وذهبنا، أنا والمفتشين، الذين كانوا يعملون تحت إمرتي، إلى مقر الأمن العام الفرنسي في الساعة الخامسة بعد الظهر. لما دخلنا الغرفة، تفاجأنا بوجود أغلبية المفتشين و«الكوميسريين» العاملين في الأمن العام الفرنسي مجتمعين. قال لنا الشيخ دحداح: «هناك حزب ممنوع يعمل سرياً ونريد أن نعتقل قياداته». وتوزعنا المهمات فتكلف كل كوميسير باعتقال واحد من القياديين. ألقي على عاتقي تفتيش منزل نعمة

ثابت واعتقاله. والتزم كوميسير آخر باعتقال مأمون أياس وثالث باعتقال الدكتور جورج صليبي ورابع الأستاذ عبد الله قبرصي وغيرهم. . لم أعد أذكر بقية الأسماء.

أما الكوميسير دحداح فأخذ على عاتقه اعتقال أنطون سعاده. وهكذا توزعنا المهمات والأسماء ونفذنا التعليمات. يومها «توفقنا فيهم»، ما عدا الدكتور صليبي الذي لم يكن في منزله ولم نتمكن من القبض عليه. وأذكر أن مهمتي كانت مؤلمة جداً، لأنني كنت أعرف عائلة ثابت جيداً. لكن القيام بواجبي كان الأهم. فاقتدت نعمة ثابت من منزله معززاً مكرماً، . . لكنني كنت أقتاده في النهاية إلى السجن! هذه المهمة كانت معرفتي الأولى بـ«الحزب القومي» بل إن حملة الاعتقالات هذه كانت أولى معرفة الناس بالحزب، لا سيما أن الحزب لم يكن معروفاً إلا في محيط الجامعة الأميركية حيث نشأ. ثم تتالت القضايا المتعلقة بـ«الحزب القومي»، وكانت أغلبيتها تمر عبر مكتبي، أطلع عليها وأحيلها إلى العدلية ومنها مثلاً: مسألة حرق مطبعة «الرابطة» لصاحبها السيد حداد، ثم مسألة ضرب الصحفي عارف الغريب. وقد اطلعت عن كثب على التحقيق بقضية المشاجرة التي حصلت بين جورج حداد وجورج عبد المسيح في ساحة البرج. يومها قطع جورج حداد أذن جورج عبد المسيح. ولما اعتقلنا جورج حداد وجدنا في جيب سترته مرسوماً موقعاً من أنطون سعادة ينص على إعلان الثورة في حال توقيف الزعيم. عندها صدرت مذكرة توقيف بحق أنطون سعادة وقد كُلِّفت بتنفيذ المهمة.

ففي عام 1936 وصلنا خبر بأن أنطون سعادة يعقد إجتماعاً في مركز الحزب مقابل الجامعة الأميركية. فتوجهت إلى منزله و«كبسنا البيت». لم يفاجأ الزعيم. كانت ملامحه مرتاحة وكأنه ينتظر قدومنا. ارتاح لوجودي في «الحملة»، وطلب مني أن يبقى في الغرفة بعض الوقت ليكتب بعض الرسائل وينهي أعماله ويدون ملاحظاته. وافقت على طلبه بكل ارتياح، وانتظرته خارجاً ما يقارب النصف ساعة. ماذا أقول عنه في تلك اللحظة؟ فهذا الرجل الذي انتظرته حتى ينهي أعماله، ليس مجرماً. لم يأخذ المسدس ويشهره في وجهي! واجبي أن آخذه إلى العدلية، فالمهم بالنسبة لي أن أقوم بوظيفتي على أكمل وجه. وكنت شخصياً أرغب في تكريمه. لذلك أخذته بسيارتي الخاصة وكنت أقودها بنفسي، وبينما نحن في الطريق قلت له: أتأسف لاعتقالك لكنني أقوم بواجبي، أجابني: «بالعكس، أنا ممنونك على معاملتك هذه!». كان هادئاً. وبدا الاعتقال أمراً وارداً دائماً في ذهنه!

بين هذين الاعتقالين كنت قد التقيت سعاده في منزل سيدة عضو في الحزب من عائلة ناصيف، لا أذكر اسمها الأول، أعتقد ليلي ناصيف، لست متأكداً ـ يرجح أن تكون الرفيقة أدما ناصيف ـ كانت تصلني بها قرابة بعيدة، وقد أحبت أن تجمعني بالزعيم في منزلها. فلبيت الدعوة. وكان اللقاء لقاء صداقة. لم نتحدث عن مواضيع الحزب ولا عن أمور حساسة أخرى، كان اللقاء إجتماعياً بحتاً. طرحنا مواضيع فلسفية، وركز الزعيم يومها على فلسفة الشعوب. وأدركت أن الرجل نابغة. وكنت قد سمعت عنه الكثير. لكنني حافظت على انطباعي الأول، وهو أنه نابغة في عصره.

بعد ذلك اللقاء، سافر سعادة إلى الخارج وتولى قيادة الحزب نعمة ثابت. كنا في أوائل الحرب العالمية الثانية، ويومها كلفنا كأمن عام بملاحقة الشيوعيين. ولكن في 1939 ـ 1940، لما وصل الديغوليون إلى الحكم في فرنسا، أخرج الفرنسيون الشيوعيين من السجن. عندها، اختفى قياديو الحزب حتى أواخر العام 1941. ولم يكن الإنتداب الفرنسي ليوافق على قيام حزب ناشط ومنظم ليس له يد في إنشائه وإطلاقه. يومها، كل ما كان يحدث في البلاد، كان بأمر من الفرنسيين وتحت إشرافهم. وكان «الحزب السوري القومي الإجتماعي» يعادي الإنتداب مباشرة، وبالتالي يعادي فرنسا التي كانت تتخوف من انتشاره في فلسطين وسوريا، لا سيما أنه كان يضم خيرة شباب البلاد. كل هذه الأسباب جعلت السلطات الفرنسية تصدر أوامرها بملاحقة أعضاء الحزب ومحاصرة نشاطاته المختلفة. لهذا، استدعى كاترو مدير الأمن العام الفرنسي في لبنان (لافارغ) وأبلغه بأن السلطات الفرنسية تريد القضاء على «الحزب السوري القومي الإجتماعي». وأن عليه أن يرسم خطة وينفذها بسرعة ونجاح لاعتقال كل أعضاء هذا الحزب وسجن قياداته.

كان الاعتقال هو الوسيلة الوحيدة المتاحة لسلطة الإنتداب، لأن التصفية الجسدية لم تكن واردة في ذلك الحين. فالإدارة كانت منظمة تنظيماً سليماً وكان الجميع متقيدين بالأوامر ينفذونها بحرفيتها. ولما عاد (لافارغ)، استدعاني وأبلغني قرار فرنسا قائلاً: «كُلفنا بمهمة اعتقال أعضاء الحزب السوري القومي الذي يشكل خطراً على فرنسا ويحاربها. علينا بتنفيذ الأوامر، وحذار من

الفشل... وإلا اتخذت بحقنا إجراءات مصيرية، وقد يقيلوننا من وظائفنا إذا ما فشلنا في هذه المهمة.

أصلاً، لم تكن الأحزاب أمراً مسموحاً به في لبنان، لا بل كان أغلبها ممنوعاً. ورغم ذلك، كان هناك أحزاب تعمل بشكل أو بآخر، مثل «الحزب السوري القومي الإجتماعي» و«الشيوعي» و«الكتائب» وبعض البعثيين.

الشيوعيون كانوا في تلك الأيام مقبولين من الفرنسيين. أما الكتائب والنجادة فكانا حزبين طائفيين أكثر من كونهما حزبين سياسيين، ونشاطاتهما كانت محدودة، ولا تشكل خطراً على الإنتداب. أما الحزب القومي فكان موضوعاً آخر.

ـ التعرف عليهم في السجن:

كنت قد سجنت في 5 شباط/ فبراير 1942 رغم أنني كنت يومها مدير الأمن العام لجيوش الشرق ومسؤولاً عن مكتب مكافحة الجاسوسية. واعتقلت لأسباب وطنية، لا مجال للخوض فيها الآن. وفي سجن القلعة التقيت السوريين القوميين الإجتماعيين حيث كانوا قد اعتقلوا قبلي. بعدها نقلوهم إلى سجن المية ومية، أما أنا فأرسلت إلى سجن راشيا، وكان سجناً تأديبياً. استمر حتى الإستقلال. في القلعة سجنت مع نعمة ثابت ومأمون أياس وأنيس فاخوري وشقيق صلاح اللبابيدي وجبران جريج. يومها رسم أنيس فاخوري صورتين لسريري في السجن. وأذكر أنني عندما أدخلت إلى سجن القلعة، بادر السوريون القوميون الإجتماعيون بتفريغ غرفتهم ليوفروا لي الراحة والضيافة، كما أعطوني سجائر وكتباً

كانت ممنوعة علي. ثم تم إرسال القوميين إلى المية ومية حيث ألفوا تكتلات حزبية داخل السجن أدت إلى مشاكل لا أذكر اليوم تفاصيلها، على أثرها تم نقلهم إلى سجن راشيا. كنا قد صرنا «أصحاب»، بيئة واحدة في قاووش واحد. ولما تغير مدير السجن، جيء بعسكري فرنسي كان يعمل تحت أمرتي، فنقلني إلى قاووش خاص فأخذت معي أنيس فاخوري، أما الآخرون فآثروا البقاء معاً.

في القاووش كنا نتناقش كثيراً في الأمور السياسية والفلسفية العامة، إلا أننا لم ندخل بمجادلات حزبية فكلنا «محابيس وبدنا السترة»، همومنا كسجناء كانت مشتركة. وكان مأمون أياس يعلمني اللغة الإنكليزية التي كان ضليعاً فيها، أما جبران جريج فقد علمني اللغة الإسبانية. وكنت ألاحظ صمود هؤلاء «القوميين» الذين كانوا يعانون، بالإضافة إلى «تعتير» السجن، من شح المصاري. فما كانوا يملكون قرشاً واحداً ولا يستلمون من الخارج أي قرش. كانوا بالفعل مناضلين صامدين، منضبطين، تحملوا الأمرّين!!

ـ بعد الجميزة:

بعد حصول عملية الجميزة، صدرت مذكرة توقيف بحق أنطون سعاده. وكنت مكلفاً بإلقاء القبض عليه. فراقبته من منزل مقابل لمركز إجتماعاته وكانت الأوامر المعطاة لي باعتقاله. لكنني لم أنفذها ولم أعتقل الزعيم وقتها لأنني كنت مقتنعاً بأن اعتقاله ليس لمصلحة لبنان، بل سيؤدي، حسب تقييمي للوضع، إلى مشاكل كان لبنان بغنى عنها. فالحزب كان قوياً جداً في تلك المرحلة، أي أواخر العام 1948 والدولة اللبنانية كانت في طور

النشوء والإنطلاق، وكان حسني الزعيم على اتصال بالحزب وفي الوقت نفسه كان الرجل يهدد لبنان عسكرياً، لذلك، رأيت أن اعتقال أنطون سعاده قد يؤدي إلى إحداث مشاكل بين السلطتين اللبنانية والسورية، فأخذت على عاتقي مسؤولية عدم اعتقاله استناداً لهذا التحليل. ولم تكن السلطة السياسية آنذاك تفكر بهذه الأمور وبنتائجها، كانت مأخوذة بمشاكل أخرى.

لم أعتقله، واستفدت من قوة موقعي، خصوصاً أن مديرية الأمن العام كمؤسسة لم تكن شيئاً آنذاك. فالشخص هو الذي كان يخلق المركز والموقع. وقد استطعت أن أفرض شخصيتي وهيبة المسؤولية عبر موقعي وأسلوب عملي. وكنت أستعمل صلاحياتي وأتصرف في أمور مهمة جداً. وبما يخص هذه الحادثة وافقني الجميع لأن تحليلي كان سليماً ومنطلقاً من مصلحة لبنان. كنت «بعرف شغلي»!!

بعد حادثة الجميزة وذهاب سعاده إلى دمشق استدعاني مجلس الوزراء وأبلغني بأن الدولة اللبنانية غير قادرة على الاتصال بحسني الزعيم. وبما أنني أعرفه، وسجنت معه مدة 6 أشهر كلفني مجلس الوزراء أن أجتمع به لإبلاغه رغبة السلطة اللبنانية باعتقال أنطون سعاده زعيم الحزب السوري القومي الإجتماعي.

فذهبت إلى الشام، وقابلت حسني الزعيم وأبلغته ما كلفت به، وأنني موفد من قبل السلطة اللبنانية للقضية كذا وكذا. وكان قد حضر هذا اللقاء إبراهيم الحسيني قائد الشرطة العسكرية في دمشق، ونذير فنصه مدير مكتب حسني الزعيم. لم أناقش الرئيس

السوري إذ أنني لم أكن مكلفاً إلا بإبلاغه. وعلي أن أنفذ التعليمات فقط لا غير. وهو بالمقابل يجيبني مباشرة، فعدت إلى بيروت ونقلت انطباعي عن تردد حسني الزعيم إلى المسؤولين اللبنانيين.

بعد فترة قصيرة، استدعاني الرئيس رياض الصلح وأبلغني أن حسني الزعيم سيسلمنا أنطون سعادة وقال لي: «عليك أن تذهب اليوم في الليل إلى المصنع، وستلتقي هناك بضابط في الجيش، تستلم أنطون سعادة من السوريين وتسلمه للجيش».

الساعة الثانية ليلاً، وصلت إلى حدود المصنع. وكانت وقتها مفتوحة ولا وجود لأمن عام أو جمارك. التقيت بالضابط العسكري ومعه جنديان. انتظرنا مدة ربع ساعة، عندها وصل 12 أو 15 مخبر سوري باللباس المدني في عدة سيارات وكان معهم «الزعيم». سلموني «الزعيم» كان هادئاً كعادته، لم يقل شيئاً، كان مدركاً خطورة الوضع، ويعرف تماماً ماذا سيحدث له. بكلمات أدق كان مستقبلاً مصيره بهدوء ورصانة. وسلمت «الزعيم» بدوري إلى الضابط العسكري الكبير. فصعد معه في سيارة جيب عسكرية محاطاً بالجنديين. وسرت أنا بسيارتي أمامهم. عندما وصلنا قرب عنجر، أشار لي الضابط العسكري الكبير بالتوقف. فتوقفت، وترجل الضابط من سيارته ثم اقترب مني قائلاً: «معي أوامر بتصريفو، شو رأيك»؟ أذهلتني المفاجأة، فأجبته مباشرة وبحدة: «أنا أمانع بشدة. نحن لسنا قتله. وهذا التصرف ليس تصرفاً سليماً بحق الدولة». فقال لي: «أنا كمان من رأيك»!

تابعنا المسير حتى وصلنا قرب ثكنة الفياضية. نزلت من سيارتي وقلت للضابط: «انتظرني هنا، سأعود». وانطلقت صوب منزل رياض الصلح. أبلغته أننا نفذنا المهمة. فماذا نفعل الآن؟ لم يتفوه بكلمة واحدة. كان هادئاً بل جامداً، لم يظهر أي انفعال أو أي تعبير. فاجأني أنه لم يطرح عليّ أي سؤال. لم يحاول أن يعرف كيف تمت العملية. لم يقل شيئاً. نهض من مكانه، أمسك الهاتف تحدث إلى نور الدين الرفاعي وأمره بأن يتوجه إلى ثكنة الفياضية ليتسلم «الزعيم». وقال لي: «تعا معي عالقصر الجمهوري». عندما وصلنا إلى القصر، أخبر الصلح رئيس الجمهورية الذي أظهر انفعالاً شديداً وبدا متوتراً. وهنا أحب أن أشير إلى أن الخطأ لا يقع على رياض الصلح وحده. وخطأ الحزب أنه ركز في ثأره على هذا الرجل فقط رغم أن هناك عدداً كبيراً من المسؤولين المحليين يريدون إعدام سعادة، على الأقل أربعة منهم كان موقفهم أشد عنفاً وقساوة من موقف رياض الصلح. ولما استشارهم بشارة الخوري بهذا الموضوع، كان موقف رياض الصلح شبه محايد. وقد أجاب رئيس الجمهورية: «اصطفلو، هيدي مسألة متعلقة بالروم وبالمسيحيين. أنطون سعادة مسيحي. أنتو قرروا. أنا ما إلي علاقة»!.

بعد الفياضية، انتهت القضية بالنسبة لي. ولم أشأ معرفة أي شيء يتعلق بها. لم تعجبني هذه القصة منذ بدايتها. خصوصاً بعدما عرفت مسبقاً بقرار تصفية أنطون سعادة، لذلك آثرت أن لا أطلع على تفاصيلها اللاحقة. ونظراً للموقف الصارم الذي اتخذته بعدم القبول بتصفية أنطون سعادة على الطريق، لم يعد

أي من المسؤولين يستشيرني بأي أمر. فقد دافعت عن مبدأ عدم قتل الناس بهذه الطريقة، رغم ذلك، غطيت العسكر وقرار الجيش يومها وتحملت كل المسؤولية، مع أنه كان باستطاعتي أن أربك السلطة العسكرية وأجعلها مضطرة لأن تبرر موقفها هذا.

لقد أعلنت بصدق أن القضية لم تكن نظيفة إطلاقاً. نتيجة هذا الموقف، تغير موقف الحكومة تجاهي، وبات عدائياً بشكل مبطّن. لكنني كنت أشعر بأنني أقوى منهم ولم أهتم لموقفهم هذا رغم أنهم حاولوا تحجيم صلاحيات مديرية الأمن العام وتسليم قسم منها إلى الشرطة. وكان رئيسها آنذاك ناصر رعد. لكنني جابهتهم بقوة السلاح وأعطيت أوامر مشددة بألا تسلّم المرافق العامة للبوليس حسبما جاء في المرسوم الذي صدر بهذا الشأن. وقد نجحت في مواجهتي ولم تقلص صلاحيات مديرية الأمن العام. وهذه الحادثة كانت المواجهة الأولى بيني وبين المسؤولين الحكوميين بعد قضية أنطون سعاده.

في عملية اغتيال سعاده شيئان ملفتان، تصميمهم على قتله، ثم عملية «سلق» المحاكمة التي أكدت بشكل فاضح ضعف الدولة وضعف المسؤولين الذين نفذوا هذه القضية. و«سلق» المحاكمة ناجم عن الخوف من ردات فعل داخلية. فالحزب كان قوياً والدولة ضعيفة بأشخاصها ومنهج تفكيرها وتصرفها.

لقد سمعت أن الحكومة كانت قد خصصت جائزة مالية كبيرة لمن يساهم في اعتقال سعاده. لكنني لا أعرف ما إذا نالها إبراهيم الحسيني أو غيره. وكوني لم أكلف بتسليم الجائزة فأنا لا أعلم

ما إذا حصل عليها إبراهيم الحسيني أو نالها أحد غيره، أو ربما يستحسن القول «آحاد» غيره!

بصراحة أقول: أنا لبناني قبل أي شيء، . . ولكنني لو كنت أعرف أن لبنان سيصل إلى ما وصل إليه اليوم، لحاربت مع أنطون سعاده!

ـ من روايات كاتب المحكمة العسكرية إبراهيم بري:

كان المدعي العام يحقق مع نفر من القوميين الموقوفين الذين جُلِبوا من بيوتهم بتهمة العصيان المسلح على الدولة، وقبل أن ينتصف النهار، نهار السابع من تموز/يوليو، إذا بمخابرة تلفونية تقرع هاتف سجن الرمل في سيار الدرك في بيروت، تطلب حضور يوسف شربل على جناح السرعة، فلملم المدعي العام أوراقه وطلب مني مرافقته إلى قيادة درك بيروت لأمر هام. فوضعت قلم الحبر في جيبي، ودلفت مع رئيسي إلى إحدى السيارات المنتظرة. ومن سجن الرمل راحت السيارة تنهب الأرض والشوارع نهباً لتصل بعد دقائق معدودة إلى قيادة الدرك. وهناك شاهدت شخصية، لم أكن قد رأيتها من قبل، تخرج محاطة بالجنود والمستنطقين والضباط. وسألت، فعرفت بعد حين أنه أنطون سعادة. . . العاصي على الدولة. وقد نقل بعدها مباشرة بحراسة مشددة إلى المحكمة العسكرية. وطلب مني شربل مرة ثانية أن أرافقه إلى المحكمة. وبعد الساعة الثانية عشرة بقليل وصلنا إلى قاعة المحكمة العسكرية وجلست مقابل المدعي العام شربل ورئيس المحكمة المقدم كرم. وفي أقل من دقيقة أدخل الزعيم سعادة قاعة المحكمة محاطاً

بالحرس والرشاشات والبنادق. كان يرتدي بدلة بنية فاتحة جيدة الهندام لا بل ممتازة جبهته العريضة بدت تغطي الأعين على اتساعها. ابتسامته المهذبة كانت تتحدى وحشية الذئاب الذين تحلّقوا حوله فاغري الأشداق. كان في عينيه نظرة تضيء المكان رغم قتامة المشهد وصرامته.

وبعد أن هدأ المكان من قرقعات أحذية الجنود واستقر كل في مكانه، بادرت المحكمة وسألت سعاده هل ترغب في تعيين محام، فأجاب نعم، وسمّى إميل لحود. فجيء بإميل لحود إلى قاعة المحكمة، وأُعلم برغبة سعاده في توليه الدفاع عنه. فقبل لحود، لكنه طلب من المحكمة إمهاله أسبوعاً لدراسة القضية، خصوصاً أنها كثيرة الملفات والوقائع. فتشاورت المحكمة هنيهة لتعود وترد على طلب محامي الدفاع رافضة منحه الأسبوع المطلوب. فعاد لحود وطلب ثلاثة أيام، فعادت المحكمة بعد التشاور ورفضت المهلة كذلك. عندها أدرك لحود لغز المحكمة، وعلم أن مصير الرجل مقرر سلفاً بدفاع أو بدونه، فاعتذر عن قبول مهمة الدفاع الصوري الذي تريده المحكمة وخرج من القاعة وهو يقول: آسف. الزعيم يستطيع أن يدافع عن نفسه. عندها طلبت المحكمة من أحد الضباط أن يدافع عن الزعيم مراعاة لشكليات القوانين المرعية الإجراء.

وبعدها أعلن بدء المحاكمة، فأخرج جميع المدنيين باستثناء بعض الصحفيين الذين سمح لهم التقاط الصور التذكارية، حيث توجهت العدسات كلها إلى سعادة وهو خلف القفص الحديدي

يبتسم ابتسامة المطمئن، وكأنه وحده غير المعني بما يجري في القاعة. وأخذت الأسئلة تنهار على سعادة كالسيل، وكلها تنبع من أبجدية الموت والإعدام. وكان سعادة يجيب عليها برباطة جأش وبشجاعة نادرة، أسئلة تتبعها أسئلة لا يمكن لذاكرتي أن تحفظ منها بعد عشرات السنين إلا سؤالاً واحداً ما زال يرن في خاطري إلى الآن، لأن سعادة أجاب عليه جواباً نشر الهيبة والتهيب بين كل الحضور قضاة كانوا أم حراساً. سأله رئيس المحكمة عن سبب إعلان العصيان على الحكومة، فرد سعادة قائلاً بصوت واضح لا تراجع أو مساومة فيه. «لقد أهين الحزب أيها السادة لذا أعلن الثورة ليرد على الإهانة».

رئيس المحكمة: لماذا؟ هل إذا أهين الحزب تعلن الثورة على الدولة وتقتل رجالها في ثورتك؟

سعاده: «قلت أهِين الحزب وعندما يهان الحزب ليس أمامه إلا رد الإهانة بالثورة، وفي الثورة يقع ضحايا». وأردف قائلاً: «أنا المسؤول الوحيد عن إعطاء الأمر بالثورة».

ثم انتقلت المحكمة لسؤال سعاده عن أهداف حزبه على الصعيد اللبناني، فكان رد سعاده الواضح الصريح على هذا هو تقريره أن لبنان جزء من سوريا الطبيعية. وهناك عقبة أساسية تحول بين اللبنانيين وبين هذه القناعة هي الطائفية حصراً. وعليه فإن غاية الحزب في تحرير المواطن اللبناني من الطائفية، وهذا يصب في صميم الشأن القومي. إذ عندما تزول الطائفية حقاً تصبح علاقة لبنان طبيعية وخارج إطار الاتهام.

وكانت المحكمة كلما رأت سعاده يخاطبها من فوق، حيث لا يمكن لمنطقها أن يطاله، تعود وتحاول حصر القصة في إطارها الجنائي، «عصيان مسلح على الدولة». . . إطلاق النار على عناصر قوى الأمن ومهاجمة المخافر. . . اقتناء السلاح. وكان سعادة، مقابل هذه النقطة التي تريد المحكمة حصره ضمنها، كان سعادة يرافع دائماً بمنطق قومي، ويربط كل سؤال وكل حادثة وكل تهمة بالخطر الصهيوني وبمصلحة القضية القومية، وكانت فلسطين والخطر اليهودي على لبنان إحدى أبرز نقاط دفاعه وتوضيحاته للتفاصيل التي رافقت نشوء الحزب منذ تأسيسه حتى وقوف زعيمه في تلك اللحظة في قاعة المحكمة العسكرية في بيروت.

قاربت الساعة الثالثة ظهراً ورشاشات الأسئلة تصب نحو سعاده بشكل غزير وهو يجيب على كل سؤال بجواب مفحم، وإذ به يوقف فجأة دولاب المحاكمة، ويطلب من المحكمة شيئاً من الطعام، وتفرس أعضاء المحكمة في وجوه بعضهم البعض كأنما فاجأهم سعاده، إذ بينما هي تحاكمه عن العصيان ومهاجمة المخافر، يقول لها بكل بساطة أنه يحس برغبة في الطعام!!

عندها طلبت المحكمة من أحد الرتباء في الشرطة أن يحضر لسعاده طعاماً. فأسرع الرتيب وأحضر بعد دقائق صحناً من المعكرونة وكوباً من اللبن. فوضع الطعام أمام سعاده الذي استأذن المحكمة في الأكل، وتناول ملعقتين من المعكرونة وأردفها بثلاث ملاعق من اللبن، بينما هيئة المحكمة بأسرها قضاةً وحراساً وجدراناً تراقب الرجل، كأنهم لم يشاهدوا قبل ذلك رجلاً يأكل.

وبعد أن احتسى سعاده ملعقة اللبن الثالثة طلب رفع الطعام، فرفع حالاً ليفاجئ سعاده المحكمة بمتابعة جوابه على السؤال الأخير الذي كانت المحكمة قد طرحته عليه قبل الطعام، ومن النقطة ذاتها.

بعد تعرفي العملي على شخصية الزعيم اكتشفت أنني تعرفت على شخصية لا مثيل لها، وبدأت أحس بالخوف والخشية على مصير هذا الرجل، خصوصاً أن رئيس الشعبة الثانية الملازم أول حصواني قال لي قبل انتهاء المحاكمة : «سيعدم، سينفذ به الحكم حالاً». وعاد سعاده يتابع طريقته في الرد على أسئلة المحكمة، إلى أن فرغت جعبتها من تلك الأسئلة الحاقدة الموتورة ووقف بعدها المدعي العام يوسف شربل ليباشر مرافعته الاتهامية بقضية الزعيم حيث ابتدر المحكمة شعراً لصفي الدين الحلي يقول فيه: «إن الزرازير لما قام قائمها توهمت أنها صارت شواهينا».

وأكمل يوسف شربل مرافعته سجعاً يقصد به الإساءة إلى الزعيم كشخص، وإلى حزبه، ومد في هذا الإيقاع حوالي ثلث ساعة معدداً مهاجمة المخافر والعصيان والثورة على الدولة من قبل الحزب، ومحملاً سعادة والقوميين المسؤولية، وختم مرافعته مطالباً بإنزال عقوبة الإعدام بسعادة.

وفي أثناء مرافعة يوسف شربل كان الزعيم ينظر إليه ويهز رأسه، ثم يدون على وريقة ملاحظاته على مرافعة المدعي العام. وعندما أتى دور سعاده في الدفاع والرد نظر إلى أعضاء المحكمة ووقف مبتدئاً دفاعاً استمر أكثر من ساعتين.

في النصف ساعة الأولى استولى سعاده على مشاعر الحاضرين في المحكمة بمن فيهم الحرس الذين أخذوا يبدلونهم كل عشر دقائق، وتقوقعت هيئة المحكمة أمام سعاده الذي كان يحلّق أمامها في دفاعه وكأن على رؤوس أعضائها الطير، وكأني بيوسف شربل قد خاف أن يميل أعضاء المحكمة نحو سعاده، فانتبه إلى نفسه، وأخذ يقاطع سعاده بدفاعه على طريقة أن يسأله ماذا يقصد بهذا أو بذلك لكي يذهب أو يخفف على الأقل من سحر الدفاع الذي كان يتدفق من لسان سعاده في تفنيده منطلقات النيابة العامة. مركزاً على أهمية العامل القومي الذي يحدد سياسة الحزب، وعلى كيد السلطة للقوميين وخططها لضربهم، وعلى الأخطار المصيرية التي تعصف بالأمة جراء الخطر اليهودي عليها، ومن العصف الطائفي الذي لا يقل خطراً عن الخطر اليهودي نفسه.

كان سعاده يتكلم ويوسف شربل يحاول جهده مقاطعته للتخفيف من جو التأثر بسعاده الذي ولده الزعيم بين الحاضرين. لكن كل هذا لم يكن كافياً، واستمر دفاع الزعيم متفجراً كالسيل في لغة عميقة الأصول والجذور حتى ليشعر المرء أن سعاده يخاطب الأمة والتاريخ، ولا يرد على جزاريه.

دخلت منزلي قبل منتصف الليل، وكنت أقول لنفسي: سعاده لن يعدم، ففي لبنان لا يقدم القضاء على خطيئة كهذه، لكنني أفقت في صباح الثامن من تموز على الخبر الفاجع، . . إذ كانت أصوات باعة الصحف ترن في شوارع بيروت: «مصرع الزعيم». . «إعدام الزعيم». . .

ـ محاكمة أنطون سعاده: اغتيال باسم القانون:

يرويها عبد الله قبرصي.

لم يسبق في تاريخ المحاكمات السياسية، في العالم أجمع، وفي التاريخ القضائي منذ أصبح في العالم قضاء وقانون مكتوب، أن جرت محاكمة متهم خلافاً لكل النصوص ولكل الأعراف ولأبسط حقوق الإنسان كذلك، كما هي محاكمة أنطون سعاده.

سلم حسني الزعيم أنطون سعاده إلى السلطات اللبنانية، في السادس من تموز/يوليو ليلاً مشترطاً أن يقتل في الطريق إلى بيروت، وألا تجري محاكمته لئلا تفتضح خيانته. وكان مندوب الحكومة نور الدين الرفاعي مدير قوى الأمن الداخلي والمير فريد شهاب مدير الأمن العام.

إلا أن حسني الزعيم على ما يروي عديله نذير فنصة في مذكراته كان قد صمم على تسليم أنطون سعاده لقاء أموال قبضها من الموساد «الإسرائيلي» كما اكتشف رفيقنا الباحث جان دايه وتحت ظروف دولية عربية وأجنبية.

يروي الباحثون أن سعاده دخل القصر الجمهوري وحده، لأن مرافقه صبحي بركات سيق إلى السجن. وعندما قابله حسني الزعيم قال له: «هؤلاء جماعتك، شوف شغلك معهم». وهكذا نشرت الصحف. فما كان من سعاده إلا أن رمى المسدس الذي أهداه إياه حسني الزعيم عربوناً لصداقته وإثباتاً للقيام بتنفيذ تعهداته، في وجه حسني الزعيم، واتجه صوب نور الدين الرفاعي وفريد شهاب،

اللذين اصطحباه إلى سيارة حكومية لبنانية وأجلساه بينهما، بينما كان إلى جانب السائق جندي مسلح.

عندما دخلت السيارة إلى وادي الحرير، طلب نور الدين الرفاعي من سعاده أن ينزل من السيارة لقضاء حاجة لنفسه. فهمّ سعاده بالنزول، إلا أن المير فريد منعه من ذلك.

وصلت إلينا هذه الواقعة فتوجهنا أنا ونزار فؤاد أبو عجرم، أديب قدورة والدكتور جورج صليبي إلى قصر المير فريد في الحدث، فشكرناه بحرارة، وقد سمعته بإذني يقول: «لو نور الدين قتل سعاده في وادي الحرير كنت مصمماً على قتله»!..

المهم والتاريخي، أن سعاده أودع ثكنة الدرك اللبناني قرب مستشفى أوتيل ديو وجاء كل من بشارة الخوري ورياض الصلح لمشاهدته ليطمئنا إلى أنه في قبضتهما.

عين القاضي أديب عفيش محققاً لاستجوابه وكان مدعي عام التمييز يوسف شربل يمثل الحق العام، وكان يحضر جلسات التحقيق على ما روى لي شخصياً صديقي النقيب الراحل المحامي الكبير جان جلخ، الذي أخبرني نقلاً عن شربل أن هذا الأخير سأل أنطون سعاده ساخراً: «يا أنطون، تعرف مصيرك فقل لنا ماذا تشعر الآن»، أجاب سعاده بهدوئه ورصانته وكبريائه: «أعرف أنني سأموت لكن حزبي باق».

نشرت الصحف، وتبين لي من ملف الدعوى الذي اطلعت عليه بعد حين بواسطة رئيس القلم صديقي الراحل ميشال أبو شقرا أن التحقيق والمحاكمة وإجتماع بعض أعضاء لجنة العفو في القصر

الجمهوري وأخذ توقيع المير مجيد ورياض الصلح وبشارة الخوري، وتنفيذ الحكم على جناح بيروت، أن كل هذه المعاملات، تمت في عشرين ساعة. وقد ذكر النائب نعيم مغبغب في مقالة نشرها في مجلة «الجمهور» بالتفصيل كل المخالفات التي ارتكبها التحقيق والمحكمة ولجنة العفو، وبيّن أنها تشكل فضائح لا مخالفات فحسب.

ولكي نذكر للتاريخ بعض الحقائق، نروي ما قاله لنا الرئيس العلامة وزير العدل والرئيس الأول لمحكمة التمييز ولمجلس القضاء الأعلى الراحل الأستاذ إميل تيان، قال: «دعيت إلى القصر الجمهوري بعد منتصف ليل الثامن من تموز لأرأس لجنة العفو للنظر في حكم الإعدام الذي أصدرته المحكمة العسكرية، فرفضت قائلاً.. لجنة العفو تجتمع في قصر العدل لا في القصر الجمهوري، وبدعوة من رئيسها لا بدعوة من رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة». وهكذا فعل عضو اللجنة الراحل جورج السيوفي. أما اللذان لبّيا وخالفا ووافقا على الحكم فهما رضا التامر وزهدي يكن.

وقد جيء بالكاهن برباري ليُعرِّفه ويناوله القربان المقدس في تلك الساعة المبكرة من صباح الثامن من تموز.

طلب سعاده مقابلة زوجته وبناته فرفض طلبه. سأله القاضي فؤاد بولس الذي كان رئيس محكمة بيروت ما هي وصيته الأخيرة، فأجاب: «إن لي قطعة أرض في ضهور الشوير فيها نزل غير مكتمل تسجل على اسم زوجتي وبناتي بالتساوي، كما أملك أربعماية ليرة لبنانية توزع على الأربع بالتساوي».

لقد سمعت وأنا نائم قريباً من مكان إعدام سعاده في الرملة البيضاء ـ الجناح صوت الرصاصات التي اخترقت جسده، وأفقت مذعوراً ثم عدت إلى النوم معتقداً أنني أبصر مناماً.

في ساحة الإعدام، قال سعاده لجلاديه، شكراً، ثم أطلق آية البطولة الأسطورية عندما قال لهم: «دعوا عيني مفتوحتين لأرى...».

كنت قبل الثورة القومية الإجتماعية الأولى وكيلاً عند رجال الشرطة العسكرية إذا سيق أحدهم للمحاكمة بتهمة ما، وكان قائدهم النقيب حبيب بريدي (زحلة) من أعز أصدقائي.

استسلمت أنا على يده، بعد إعدام سعاده بشهرين فأنزلني في منزله ليلة واحدة ليسلمني في اليوم التالي إلى المحكمة، كانت عينا الرجل محمرّتين فقال لي: «لا أزال أبكي أنطون سعاده. أنا أطلقت على رأسه رصاصة الرحمة وقد أوصاني بأن أنقل إلى زوجته وصيته الأخيرة. فرجوته أن يقولها لي فأجاب: للأمانة لا أستطيع. إرادة سعاده كانت أن أنقلها إلى زوجته وحدها. ومات الرجل بسكتة قلبية. قبل أن يوصل الوصية إلى الأمينة الأولى زوجة سعاده».

حكم المحاكم باسم الشعب اللبناني، وفي دعوى أنطون سعاده، حكمت المحكمة باسمها وباسم الحكومة فقط، فالشعب اللبناني ـ إلا الذين باعوا أنفسهم ـ حكم على المحكمة وحكمها الجائر رافضاً أي تعليل أو تبرير. الشعب اللبناني كان في حدقته الرافض لحكم الإعدام على سعاده والمهلل والمكبر لبطولته

الأسطورية، الصوت الصارخ في وجه المحكمة والحكم بإدانة الحكم والمحكمة.

لقد كتب القائد الشهيد كمال جنبلاط استجواباً إلى الحكومة اللبنانية مؤرخاً في 9 أيلول/سبتمبر 1949 بيّن فيه المخالفات والضغوط الدولية وتدخل بعض رجال الدين الإجرامي، كما ذكر عبقريات أنطون سعاده وبطولته وعظمته. كما كتب غسان تويني في جريدة «النهار» في 9 تموز/يوليو مقاله الشهير: «سعاده المجرم الشهيد» الذي أثبت فيه أن الحكم على أنطون سعاده كان أشبه بالقضية الإدارية، فحوكم وحكم بالسجن ثلاثة أشهر قضاها في سجن الرمل.

ومؤخراً قرأت تصريحات، ثم قرأت في الاثني عشرية للوزير والنائب السابق المحامي الكبير ادمون رزق، قوله: «إن الحكم بإعدام أنطون سعاده كان اغتيالاً بكل معنى الكلمة Un arr assina tur et sirple.

ولأننا في صدد المخالفات (هل يمكن تعدادها) نذكر أول ما نذكر أن سعاده دعا للدفاع عنه المحامي الأشهر سيد المنبر الجنائي دون منازع في لبنان والعالم العربي الوزير والنائب أيضاً إميل لحود (عم رئيس جمهوريتنا الحالي إميل لحود)، فحضر الأستاذ لحود إلى المحكمة العسكرية وطلب مهلة 24 ساعة لدراسة الملف، فرفض طلبه فانسحب، فناداه سعاده قائلاً: يا إميل أريدك أن تبقى. فخرج غاضباً لا يرد على سعاده ولا على أحد، هاله ما يجري فرفض أن يكون شاهد زور. فأصبح سعاده بلا محام يدافع عنه.

أما المحكمة التي حكمت على سعادة، فرفضت أن تعترف بأن جرمه سياسي لا يجوز فيه حكم الإعدام بل الاعتقال المؤبد عملاً بنصوص من المواد: 166 ـ 167 ـ 168، من قانون العقوبات الساري المفعول آنذاك.

إن محاكمة سعاده خرق فاضح ـ باعتراف مفوض الحكومة آنذاك الأستاذ الراحل ميشال تلجة ـ لكل مواد قانون أصول المحاكمات الجزائية، فلماذا أسردها واحدة واحدة، كما كان خرقاً لنص قانون العقوبات في مواده166 ـ 167 ـ 168 فلماذا الشرح والتعليل؟

هل يمكن أن نغفر للمحكمة التي حكمت بالإعدام رفضها للمحامي الكبير إميل لحود ـ الذي نفتخر أننا تتلمذنا على يده إعطاءه مدة 24 ساعة ليدرس الملف؟ هل هذا الجرم قابل للغفران؟ وهل كان يمكن للمحكمة أن ترتكب تلك المخالفة لولا أنها كانت محمية من الحكومة القائمة؟

نكتب. ونتأمل ونستذكر ونتألم ونغضب ونثور، ولكن المطلوب هو الإجابة على هذا السؤال: هل استشهد سعاده من أجل هذا أم من أجل إنتصار القضية القومية الإجتماعية التي أنشأها ونذر حياته لها وبذل دمه من أجلها؟

حسني الزعيم
(1897 - 1949)

حسني ابن الشيخ رضا بن محمد بن يوسف الزعيم. ولد في حلب عام 1897. كان والده مفتياً في الجيش العثماني، وكان فاضلاً من رجال العلم، استشهد في هجوم على قناة السويس في الحرب العالمية الأولى سنة 1915. أما والدته فكردية، وله شقيقان، الأول الشيخ صلاح الزعيم والثاني بشير الزعيم.

درس حسني الزعيم في المدرسة الحربية بالآستانة، وقبل أن يتم دراسته اختير ليكون من ضباط الجيش العثماني. اعتقله البريطانيون في الحرب العالمية الأولى، ثم تطوع في جيش فيصل الذي دخل دمشق وحارب العثمانيين. وفي عهد الإنتداب الفرنسي تطوع في الجيش الفرنسي، وتابع علومه العسكرية في باريس. بعد وصول قوات فيشي إلى سورية انقلب على الديغوليين، وحارب ضدهم. وفي عام 1941 اعتقله الديغوليون، وأُرسل إلى سجن الرمل في بيروت حتى 17 آب/ أغسطس 1943، حيث أُفرج عنه، وسُرح من الجيش وهو برتبة كولونيل (عقيد).

منذ عام 1945 ظل يتردد على السياسيين وأعضاء مجلس النواب

لإعادته إلى الجيش، فتعرف على رئيس تحرير صحيفة «ألف باء» نذير فنصة، الذي توسط له وأعاده إلى الجيش، فعين رئيساً للمحكمة العسكرية في دير الزور، ثم انتقل إلى دمشق مديراً لقوى الأمن. وفي أيلول/سبتمبر 1948 أصدر رئيس الجمهورية مرسوماً بتعيين الزعيم قائداً للجيش بعد ترفيعه إلى رتبة زعيم.

تطورت العلاقة بين الزعيم ونذير فنصة، بعد زواج الزعيم من شقيقة زوجة فنصة. عرف عنه إدمانه على شرب الخمر، ولعب القمار، وحب الظهور والمغامرة بصورة مسرحية ملفتة للانتباه. أصيب بمرض السكري الذي جعله عصبي المزاج، متهوراً.

كان الزعيم منذ صغره تواقاً للسلطة. له كلمة مأثورة: «ليتني أحكم سورية يوماً واحداً ثم أُقتل بعده».

يعتبر حسني الزعيم، صاحب أول انقلاب عسكري في تاريخ سورية المعاصر، ففي ليلة 30 آذار/مارس 1949 قام بانقلابه متفقاً مع بعض الضباط، فاعتقل رئيس الجمهورية شكري القوتلي، ورئيس وزرائه وبعض رجاله، وحل البرلمان، وقبض على زمام الدولة وتلقب بالمشير. وألّف وزارة، ودعا إلى انتخابه رئيساً للجمهورية، فانتخب في 26 حزيران/يونيو 1949.

يقول أوين في كتابه «أكرم الحوراني»: «...لقد تأكد حديثاً بعد السماح بنشر بعض الوثائق السرية، وبعد ما يقرب من أربعين عاماً من انقلاب حسني الزعيم، تورط الولايات المتحدة بأول انقلاب عسكري في العالم العربي...»، وكان قد أُشيع لسنوات بأنها ساندت انقلاب حسني الزعيم، كما كان مايلز كوبلند عضو

المخابرات المركزية السابق قد ذكر في كتابه «لعبة الأمم» عن المساعدات الأميركية لحسني الزعيم. ولكن روايته لم تؤخذ آنذاك على محمل الجد، واستناداً لما كتبه فإن سورية كانت على حافة اضطراب سياسي عنيف، بينما كانت حكومة الكتلة الوطنية عمياء عنه. ورأى السفير الأميركي في سورية أن «الأوضاع ستأخذ أحد مجريين: إما احتمال قيام الانتهازيين قريباً مع مساعدة السوفيات بانتفاضة دموية، أو أن يسيطر الجيش على السلطة بمساعدة الأميركيين السرية للمحافظة على النظام، إلى حين إحداث ثورة سلمية». ويقول المؤلف أيضاً: «. . .وهكذا شرعت المفوضية الأميركية بالقيام بعملية هدفها تشجيع الجيش السوري على القيام بانقلاب، من أجل الحفاظ على سورية من الاختراق السوفياتي، وجلبها إلى طاولة السلام مع إسرائيل، ولم يكن حسني الزعيم الخيار الأول لفريق العمل السياسي الأميركي المشرف على العملية، ولكنه أصبح هدفها لأنه لم يكن هناك الكثير مما يمكن عمله. لقد رأى فيه الأميركيون نواحي إيجابية عديدة، فقد كانت له مواقف شديدة العداء للإتحاد السوفياتي، وكان يرغب في الحصول على مساعدات عسكرية أميركية، بالإضافة لاستعداده للقيام بعمل بناء بخصوص القضية الفلسطينية. واستناداً للوثائق السرية التي سمح بنشرها التقى الزعيم حسني الزعيم عدة مرات مع مسؤول في السفارة الأميركية، للنقاش حول الانقلاب، وقد بدأت هذه اللقاءات في أواخر 1948، وانتهى الإعداد للانقلاب أوائل 1949، وفي شهر آذار/ مارس من العام نفسه تقدم حسني الزعيم بطلب المساعدة من الأميركيين للقيام بانقلابه.

دفع حسني الزعيم ثمناً للدول الكبرى لاعترافها به، إتفاقياتٍ تخولها إقامة نفوذ ومصالح لها في سورية، ففي 30 حزيران/ يونيو سُمح لشركة التابلاين الأميركية أن تمارس عملها، وأن تنشئ المطارات وسكك الحديد، وأن تشتري البضائع وتقيم المنشآت المعفاة من الرسوم والضرائب، مقابل حصول سورية على مبلغ 20 ألف إسترليني سنوياً.

كما صادق على الإتفاق الموقع بين سورية وشركة المصافي المحدودة البريطانية، بشأن المصب في بانياس لتصدير البترول العراقي. ونصت الإتفاقية حصول الشركة على إمتياز لمدة سبعين عاماً لإنشاء وصيانة مصفاة أو مصافي في الأراضي السورية، على أن تؤول ممتلكات الشركة في سورية إلى الحكومة السورية بعد أن تنتهي مدة الإمتياز، وتتعهد الحكومة السورية لقاء العائدات بإعفاء الشركة من الضرائب والرسوم وعدم انتزاع الأراضي التي تمتلكها طول مدة الإمتياز. وتتعهد الحكومة بإعطاء الشركة أفضلية في الموانئ السورية، وأحقيّتها في إنشاء وصيانة ميناء أو موانئ في سورية لأغراض المشروع، وأن تضع عوامات لربط السفن وتنشئ إشارات وأضواء على الشاطئ وحواجز لصد الأمواج. ولها حق إنشاء السكك الحديدية، والطرق البرية وإنشاء وصيانة شبكات هاتفية وبرقية ولاسلكية. وتتعهد الحكومة بمنح موظفي الشركات الأجانب تسهيلات خاصة لتنقلاتهم عبر مراكز الحدود. وتحصل الحكومة على عائدات نسبية (6 ملايين جنيه عن أول مليوني طن من الإنتاج، و10 ملايين جنيه عن 4 ملايين طن، و13 مليون جنيه عن 6 ملايين طن وما فوق).

في 7 تموز/ يوليو 1949 سلم الزعيم إلى الحكومة اللبنانية أنطون سعادة زعيم الحزب القومي السوري الإجتماعي، الذي التجأ إليه وكان محكوماً عليه بالإعدام، ليتم إعدامه في 8 تموز/ يوليو، مما أثار سخط السياسيين وعامة المواطنين عليه.

فقد الزعيم في غضون ثلاثة أشهر معظم شعبيته، وأثار عداء مختلف فئات المواطنين. فسياسته الموالية للغرب أثارت عليه الفئة المحايدة، وتصرفاته جلبت عليه سخط الزعماء الدينيين وأتباعهم من المدنيين، وأساليبه الأوتوقراطية قوضت آمال الليبراليين. والأهم من ذلك كله أنه خلق سخطاً بين الضباط بتعيينه اللواء عبد الله عطفة - الذي أخفق كقائد للجيش السوري في الحرب الفلسطينية - وزيراً للدفاع، وكذلك بترقيته لكثير من أصدقائه ومؤيديه في الجيش.

وضع حد لحكم الزعيم حين أطاح به خصومه العسكريون ليلة 13 آب/ أغسطس 1949. وضُم إليه رئيس وزرائه محسن البرازي ونذير فنصة مستشاره الخاص، واجتمع المجلس الحربي الأعلى برئاسة الزعيم سامي الحناوي، وأجرى محاكمة سريعة لرؤوس العهد، وأصدر حكمه بإعدام حسني الزعيم ومحسن البرازي، وبعد لحظات من صدور الحكم نُفذ بهما حكم الإعدام رمياً بالرصاص، وذلك في 14 آب/ أغسطس 1949.

محاولة اغتيال
محمد رضا شاه بهلوي في العام 1949
(1919 ـ 1980)

محمد رضا شاه بهلوي، شاه (ملك) إيران في الفترة من (1941 ـ 1979)، الذي أدى به منهجه التغريبي الانفتاحي وحكمة الدكتاتوري إلى سقوطه في الثورة الإسلامية عام 1979.

ولد محمد شاه في طهران، وهو الابن الأكبر لرضا خان الذي حكم إيران في الفترة ما بين (1925 ـ 1941)، وقد نودي بمحمد شاه وريثاً للعرش عام 1926. تلقى تعليمه الإبتدائي والثانوي في سويسرا، وعاد في العام 1935 ليخدم في الأكاديمية العسكرية في طهران. تزوج ابنة الملك المصري فاروق الأول في العام 1939، وانفصل عنها في 1949، وتزوج بعدها مرتين في 1950 و1959.

في العام 1941 تخوف كل من الإتحاد السوفياتي وبريطانيا العظمى من تعاون محمد شاه مع النازية الألمانية، مما دفعهما إلى إحتلال جزء كبير من إيران وإكراه رضا شاه على التنازل عن مسؤولياته ونفيه خارج البلاد، واستدعوا ابنه محمد شاه لتولي الحكم.

بدأ محمد رضا شاه حقبة جديدة من الحكم وكان عليه أن يواجه فوضى عارمة في السياسة والإقتصاد.

وفي العام 1949 نجا من محاولة اغتيال محققة من قبل أحد أعضاء حزب «توده Tudeh» اليساري.

وفي بداية الخمسينيات تطور خلاف بينه وبين محمد مصدق أحد المتحمسين القوميين، مما اضطره إلى الهرب لفترة وجيزة عاد بعدها ليبدأ برنامجه الإصلاحي عام 1963 بالتعاون مع الولايات المتحدة أطلق عليه «الثورة البيضاء»، يتضمن إعادة توزيع الأراضي بين المواطنين، وعمليات بناء واسعة، والقضاء على الأمية وتحرير المرأة. ولكن التنفيذ العملي للبرنامج أدى إلى مزيد من التمييز الإقتصادي بين الناس، وتوزيع عوائد النفط بشكل عادل، مما عرضه لمزيد من موجات الانتقاد الواسعة لا سيما من علماء الدين الذين غضبوا من سياسته المتعاونة مع الغرب.

ومع تعالي أصوات الغضب الشعبية، خصوصاً في بداية السبعينيات شدد محمد شاه من سياسته القمعية، وانتهج سياسة سرية قمعية بواسطة جهاز الـ «سافاك» لمحاولة قمع النزاعات الداخلية. أثارت تلك السياسة شغباً واسعاً في إيران، وفي العام 1978 تنامى التأييد الواسع للقائد الديني في المنفى آية الله الخميني.

في 16 كانون الثاني/يناير 1979، هرب شاه بهلوي خارج البلاد، وعاد الخميني وتسلم القيادة. وفي أواخر كانون الثاني/يناير من العام نفسه هاجم مجموعة من الإيرانيين السفارة الأميركية في طهران، وطالبوا بالشاه مقابل إطلاق سراح الرهائن المحتجزين في السفارة. بقي الشاه خارج إيران وتوفي في مصر عام 1980.

سامي الحناوي
(1898 - 1950)

هو محمد سامي حلمي الحناوي، ولد في مدينة إدلب سنة 1898، وتخرج من مدرسة دار المعلمين بدمشق سنة 1916، ودخل المدرسة العسكرية في استانبول فأقام فيها لمدة عام.

خاض معارك قفقاسيا وفلسطين في الحرب العالمية الأولى، ثم دخل المدرسة الحربية بدمشق عام 1918 وتخرج بعد عام برتبة ملازم ثان، وأُلحق بالدرك الثابت في سنجق الاسكندرونة، وكان من قواد الجيش السوري في معركة فلسطين سنة 1948 حيث رقي إلى رتبة عقيد.

عندما ثار حسني الزعيم على شكري القوتلي وأبعده عن الحكم، أبرق الحناوي يؤيد الانقلاب ويعلن ولاءه لحسني الزعيم، فجعله هذا زعيماً (كولونيل) وقائداً للواء الأول، ولما ضج الناس من سيرة حسني الزعيم، اتفق الحناوي مع جماعة كان بينهم ثلاثة من حزب أنطون سعادة فاعتقلوا الزعيم ورئيس وزرائه محسن البرازي، وأعدموهما بعد محاكمة عسكرية سريعة يوم 8 تموز/يوليو عام 1949، وأقاموا حكومة مدنية يشرف على سياستها العسكريون

وفي مقدمتهم سامي الحناوي، وقد لعب فيها عديله الدكتور أسعد طلس وهو من مدينة حلب ومن كبار موظفي وزارة الخارجية وكان له دوراً مهماً للاتجاه نحو الوحدة مع العراق.

بعد يومين على الانقلاب سلم الحناوي السلطة رسمياً إلى هاشم الأتاسي الرئيس الأسبق الذي أذاع فوراً تشكيل الوزارة، ثم أعلن الحناوي أن مهمته الوطنية المقدسة قد انتهت، وأنه سيعود إلى الجيش، وكانت تشكّلت لجنة بعد ساعات من وقوع الانقلاب ضمت هاشم الأتاسي وفارس الخوري، ورشدي الكيخيا، وناظم القدسي وأكرم الحوراني، أوصت بتشكيل حكومة مؤقتة يرأسها هاشم الأتاسي تعيد للبلاد الحياة الدستورية، وقد سيطر «حزب الشعب» على شؤون الحكومة الجديدة، واحتل أعضاؤه الوزارات التي اشترط الحزب إحتلالها باستمراره ـ الخارجية والداخلية ـ بناء على توصيات صاحب الانقلاب سامي الحناوي.

استمرت الوزارة برئاسة هاشم الأتاسي من 14 آب/ أغسطس عام 1949 حتى 10 كانون الأول/ ديسمبر عام 1949 دون أن يحصل تبديل بين أعضائها، وكان من بين الموضوعات التي عالجتها:

1 ـ استمرار العمل بالأحكام الصادرة في عهد حسني الزعيم: فقد أعلنت الحكومة احترامها للإتفاقيات المعقودة في عهد الزعيم وأبرزها إتفاق شركة التابلاين لإمرار النفط السعودي عبر سورية، وإتفاق شركة أنابيب العراق لإمرار الزيت العراقي عبر سورية، وإتفاقيات التصفية للمسائل المعلقة بين سورية وفرنسا، ويأتي في مقدمتها الإتفاق النقدي.

اضطرت الحكومة لاتخاذ هذا الموقف بعد اتصالات مع الوزراء المفوضين لكل من الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا الذين أكدوا موقف حكوماتهم بعدم الاعتراف بالانقلاب الجديد ما لم يعتبر تلك الإتفاقيات نافذة.

2 ـ تطهير الجهاز الحكومي: فبعد أسبوع من تولي حكومة الأتاسي مهامها تلقت مجموعة من المراسيم بعزل بعض الموظفين وإحالة البعض الآخر على التقاعد موقعة من الزعيم سامي الحناوي ومؤرخة بتاريخ 13 آب/أغسطس عام 1949. وجرت مداولات بين الحكومة وصاحب الانقلاب الحناوي، لكنه أصر على عزلهم لأن وزراء حزب الشعب لا يميلون إليهم.

3 ـ انتخاب جمعية تأسيسية لوضع دستور جديد للبلاد، وهدف «حزب الشعب» من ذلك هو استبعاد عودة السيد شكري القوتلي لاستلام منصب رئيس الجمهورية، لهذا أقرت الوزارة المراسيم التي أصدرها حسني الزعيم ومن ضمنها مرسوم قبول استقالة القوتلي وحل مجلس النواب. وكانت النتيجة انتخاب هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية، وأهم المواضيع التي ركز عليها في إجتماعات الجمعية التأسيسية: الوحدة السورية ـ العراقية والتي عكسها نص قسم رئيس الجمهورية الذي جرت الموافقة عليه وجاء على الشكل التالي: «أقسم بالله العظيم أن أحترم قوانين الدولة وأحافظ على إستقلال الوطن وسيادته وسلامة أراضيه، وأصون أموال الدولة، وأعمل لتحقيق وحدة الأقطار العربية» وكان الحناوي أقرب إلى الجهات التي حبذت هذا الاتجاه.

نجحت حكومة «حزب الشعب» في الحقلين المالي والإقتصادي عندما أقر مجلس الوزراء السماح بتصدير القطن فارتفعت أسعاره، وكذلك سمح بتصدير كمية من القمح إلى الخارج فحققت أرباحاً تحولت نحو شراء كمية من الذهب فازدادت نسبة التغطية الذهبية للعملة السورية.

بعد النكسات التي أصابت جهود زعامة «حزب الشعب» لإقرار الصيغ الدستورية الكفيلة بإعلان الإتحاد مع العراق، اتفق أقطاب الحزب مع اللواء سامي الحناوي على قيام الجيش باعتباره الورقة الأخيرة المتاحة في أيديهم، بالتحرك لتحقيق هذا الهدف، وبتاريخ 16 كانون الأول/أكتوبر عام 1949 وجه اللواء سامي الحناوي دعوة إلى خمسة من كبار الضباط للإجتماع به لمناقشة موضوع الإتحاد السوري ـ العراقي، فشعر هؤلاء بأن حضورهم يعني وضعهم تحت سلطة قائد الجيش فيفرض عليهم ما يريد، فاتخذوا التدابير اللازمة لاعتقاله، وبالفعل اعتقل الحناوي وأسعد طلس وآخرين من أنصارهما، وكان هذا الانقلاب الثالث بقيادة أديب الشيشكلي.

سُجن الحناوي مدة ثم أُطلق سراحه، فغادر دمشق إلى بيروت، وهناك ترصده محمد أحمد البرازي فاغتاله بالرصاص في 30 تشرين الأول/أكتوبر عام 1950 انتقاماً لمحسن البرازي ونقل جثمانه من بيروت إلى دمشق فدفن فيها.

اشتهر سامي الحناوي بالخلق الكريم والإخلاص في عمله وبأنه كان طيب القلب.

ـ ظروف انقلاب الحناوي ودوافعه:

في 14/ آب/أغسطس 1949، أطيح بحسني الزعيم في انقلاب قام به الحناوي قائد اللواء الأول، وقد أثار هذا الانقلاب تكهنات من أن هناك أيادي خارجية تورطت فيه..

وكان الانقلاب نكبة حادة لأصدقاء الزعيم السابقين، فأعلن الملك فاروق الحداد الرسمي لمدة ثلاثة أيام في مصر، كما أن الصحافة الأميركية حزنت على الزعيم، حيث صورته بأتاتورك سوريا، ورثته كبار صحفها.

وكانت أصابع الاتهام موجهة إلى بريطانيا، فقد نشرت صحيفة «فرانس تيرو» الفرنسية تقول: «إن نظام الزعيم كان معادياً لكل المشاريع البريطانية في سوريا». وذكر باتريك سيل أن الحناوي كان خيار العراق للإطاحة بحسني الزعيم[1]. وتتفق معظم المصادر على أن الحكومة العراقية، وقد امتعضت من اتجاه الزعيم وسياسته الممالئة لمصر، تاقت لترى في دمشق حكومة على صلة ودية معها، وكانت مستعدة لأن تدفع مقابل إزاحته ـ وقد دفعت الكثير من أجل ذلك ـ فكان الزعيم الحناوي وصهره أسعد طلس ومساعدوه في الجيش هم وسيلة السياسة العراقية، إضافة إلى تأييد حزب الشعب.

كان الحناوي لا يتمتع بالمؤهلات المطلوبة التي تساعده على البقاء في السلطة، ولربما كان العميل الغبي لمطامع العراق،

(1) «الحرب السرية في الشرق الأوسط»، أندرو راثمل، ترجمة محمد نجار، ص 74 ـ 78.

ولأعداء حسني الزعيم داخل سوريا، ولم يمارس أية قيادة سياسية فعالة في تمرده.

روى حسن الأطرش أنه قابل أكرم الحوراني الذي رأى وجوب إزاحة الزعيم، وأن الضباط الدروز يجب أن يسهموا في إزاحته، فقال: «لم أوافق على مقتل حسني الزعيم، ويكفي أن يقبض عليه ويودع السجن، ولكن الحوراني قام من وراء ظهري بعقد إتفاق مع عدد من الضباط الدروز الذين كان لمعظمهم صلات بـ«الحزب القومي السوري»، وكان لديهم سببان للسعي إلى الانتقام، وذلك أنهم دروز وقوميون سوريون متحمسون للثأر».

وكان حسني الزعيم قد أمر كتيبة مدرعة بالتوجه إلى جبل الدروز حيث يوجد المتآمرون المتمردون، فهم يملكون كمية من السلاح، ويستعدون للتمرد[1].

وكان على رأس الانقلابيين الضابطان الدرزيان أمين أبو عساف وفضل الله أبو منصور من جبل العرب، الذي انقلب عليه حسني الزعيم حين ساورته الشكوك في تآمر سكانه عليه متعاونين مع الهاشميين وحزب الشعب، وقد أرسل الزعيم قوة كبيرة إلى حامية السويداء ليلقي الرعب في نفوس سكان الجبل. ولذلك تعاون الضباط الدروز وزعماء الجبل وأكرم الحوراني للإطاحة بالزعيم[2].

والحقيقة أن القيادة العراقية كانت قد رتبت للانقلاب، واتفقت

(1) «**الصراع على سوريا**»، باتريك سيل، ص 104 ـ 106.
(2) «**الانقلابات العسكرية في سوريا**»، محمد أبو عزة، ص 74 ـ 77.

مع الضابط السوري الطيار عصام مريود، لتكون طائراته على أهبة الاستعداد لنقل الانقلابيين إلى بغداد إذا فشلت تلك المحاولة[1].

وسرت شائعة قوية بين الناس ورجال الصحافة أن اغتيال حسني الزعيم ومحسن البرازي، لم يكلف الوصي على عرش العراق ونوري السعيد أكثر من مائة ألف دينار، وزعت بمعرفة أحد المقربين جداً من الحناوي، على المتآمرين. وقد انكشف دور العراق برد الفعل الفوري، إذ أرسل كلٌ من الملك عبد الله، ونوري السعيد بتهانيهما مع وفودهما إلى الزعيم الجديد في دمشق فور نجاح الانقلاب[2].

ـ أضواء على الانقلاب الجديد وصاحبه:

إن الحناوي قد أمر بأن يذاع البلاغ العسكري رقم 1 في 14/ آب/ أغسطس 1949، والذي جاء فيه: «قام جيشكم الباسل بالانقلاب لينقذ البلاد من الحالة السيئة التي وصلت إليها، ولكن زعيم ذلك الانقلاب ـ حسني الزعيم ـ أخذ يتطاول هو وحاشيته على أموال الأمة، ويعبث بالقوانين وحرية الأفراد، ولهذا وبعد الاعتماد على الله عزم جيشكم الباسل أن يخلص البلاد من الطاغية ورجاله، فأنقذ شرف البلاد، وآل على نفسه أن يسلم الأمر إلى الأحرار المخلصين من رجالات سورية، وسيعود الجيش إلى ثكناته، ويترك السياسة إلى رجالاتها»[3].

---

(1) «النكبات والمغامرات» بشير فنصة، ص 238.
(2) «الصراع على سوريا» باتريك سيل، ص 107.
(3) «الانقلابات العسكرية في سورية»، محمد أبو عزة، ص 73.

وكان أول مرسوم أصدره اللواء سامي الحناوي ليلة 14 آب/ أغسطس قد قضى بتعيين عديله الدكتور أسعد طلس أميناً عاماً لوزارة الخارجية من الدرجة الأولى، وكان أسعد طلس هو الذي يدير السياسة الخارجية والداخلية من وراء الستار. لقد انتقم أسعد طلس لكرامته المهدورة، وكان انتقاماً رهيباً حقاً.

كما أصدر الحناوي مرسوماً يقضي بتأليف حكومة جديدة، عين فيها الأتاسي رئيس الجمهورية السابق رئيساً لمجلس الوزراء، وعين فيها خالد العظم وزيراً للمالية، وناظم القدسي للخارجية، وعفلق للمعارف، وأكرم الحوراني للزراعة. ونُشر بعد أسابيع من الانقلاب الثاني قانون الانتخابات الجديد وقد وصفته الصحف بأنه تقدمي يقضي على سيطرة رجال الإقطاع والمال، وأعطيت المرأة فيه حق التصويت.

وصرح أكرم الحوراني بأن هذا القانون ألغى المذهبية كخطوة أولى أي ألغى الطائفية، تتلوها نتائج إجتماعية كبيرة. . . وعادت جريدة «البعث» للصدور، ودارت مباحثات بين أقطاب «البعث» و«حزب الشعب» حول إمكان وضع قائمة انتخابية مشتركة بين الحزبين، وأعلن «الحزب الوطني» على لسان رئيسه بأنه لن يشترك في الانتخابات لأن الضمانات غير كافية. وبدأ الزعيم الجديد يندفع بخطوات حثيثة، نحو الطريق التي سلكها الزعيم الراحل ـ حسني الزعيم ـ، حتى أن أحد نواب حزب الشعب اقترح إقامة تمثال للحناوي في ساحة المرجة، بوصفه محرر الشعب من

الطغيان؟![1]. وعقدت الجمعية التأسيسية جلستها قبل ظهر الاثنين في 12/ 12/ 1949، وانتخب السيد رشدي كيخيا رئيساً لها، وحضر الجلسة اللواء الحناوي وكبار الضباط من مؤيديه. ثم عقدت الجمعية جلسة أخرى في 14/ 12/ 1949، انتخبت فيها السيد هاشم الأتاسي رئيساً للدولة، وبعد خمسة أيام من هذا التاريخ، فوجئ الناس ببلاغ رقم 1 لانقلاب جديد[2].

والحقيقة أنه بعد أن استتب الأمر قليلاً لجماعة الانقلاب الثاني سرعان ما دب الخلاف بين ما سمي بالمجلس الحربي الأعلى، وضباط الوحدات في مختلف القطاعات العسكرية، وأصبح قائد الانقلاب في واد، وضباطه في واد آخر، كل ذلك رغم تأليف حكومة مدنية، ومن ثم إجراء انتخابات نيابية، وتأليف جمعية تأسيسية جديدة، وإعلان دستور جديد. وسرعان ما برز من صفوف الجيش ضباط ينتمون إلى أحزاب معينة، وكتل وعشائر وطوائف متباينة. عصفوا بالانقلاب وقائده الحناوي، وبدأت لعبة الانقلابات تأخذ منحى جديداً.

كان الحناوي جندياً بسيطاً قليل المطامح السياسية، خدم دون أن يلمع في الجيش العثماني ولا القوات الخاصة، وكانت خطوته الأولى في رفع الحظر عن الأحزاب السياسية وتسليم السلطة إلى المستقلين في البلاد[3].

---

(1) «النكبات والمغامرات»، بشير فنصة، ص 213.
(2) «النكبات والمغامرات»، ص222 ـ 223، وص 225.
(3) «النكبات والمغامرات»، بشير فنصة، ص 213.

وبعد أن أسدل الستار على الفصل الثاني من سلسلة الانقلابات العسكرية، بدأت الصحف والإذاعات والمحافل السياسية، تتناول الحناوي بالتشهير والتجريح، وتتهمه بخيانة الجمهورية وبيع البلاد للأجانب، فأصبح معالي اللواء سامي الحناوي بين ليلة وضحاها عسكرياً خائناً، فسبحان مغير الأحوال.

الملك عبد الله بن الحسين الأول
(1882 ـ 1951)

ـ نبذة عن تاريخ الأردن:

في العاشر من حزيران/ يونيو عام 1916 أعلن الشريف الملك الحسين بن علي ثورة العرب الكبرى من أجل تحرير الأرض والإنسان وإنشاء الدولة العربية المستقلة، ولتحقيق مكانة العرب التي يجب أن تأخذ وضعها الصحيح في هذا العالم الذي يضطرب ويخوض الحروب من أجل المصالح الإقتصادية والسياسية، ومن أجل القومية والإستقلال.

من أرض الحجاز، من مكة المكرمة انطلقت رصاصة الثورة ولتبدأ معها إنطلاقة النهضة الشاملة للعرب جميعاً، فهي ثورة صاغها المفكرون والمتنورون العرب برعاية وقيادة الشريف الهاشمي لتحقيق الأهداف التي تدارسها أعضاء الجمعيات والمنتديات الأدبية والسياسية على مدى نصف قرن من الزمان يريدون إعلاء الكلمة، ولوضع العرب على طريق التقدم والأعمار والبناء بعد أربعة قرون من التغييب والعيش في الجهل بعيداً عن منائر العلم ومصادر الارتقاء في البقاع المختلفة من هذا العالم.

كانت الأرض الأردنية هي المسرح الرئيسي لعمليات الثورة العربية الكبرى وميدان العمل السياسي أيضاً، فتركزت قيادات الثورة العربية في معان وحولها وفي الزرقاء لتهيئ للأعمال القادمة، وقاتل العرب فوق الأرض مدة ثلاثمائة يوم، واكتسبت أرض الأردن أهمية خاصة بسبب موقعها الاستراتيجي وتوسطها ومحاذاتها لمنطقة عمليات الحلفاء في فلسطين، وكان المسرح الأردني هو الأكبر، والعمليات فيه هي الأطول، وتركيز القوات فيه هو الأكثر، إضافة إلى توفر عوامل عديدة أسهمت في نجاح العمل العسكري العربي وأهمها هو إخلاص أهل الأردن ووفاؤهم وإيمانهم برسالة الثورة العربية.

خاضت الثورة العربية الكبرى حروباً بمستوى عمليات الحرب العالمية الأولى، وحققت إنتصارات كبيرة، وقدمت للعرب نموذجاً في النصر والإنجاز واعترف الحلفاء بفضل الثورة العربية الكبرى في تحقيق النصر في مسرح الحرب العام، وتوج إنتصار الثورة بدخول الجيش العربي إلى دمشق يوم الثاني من تشرين الأول/أكتوبر عام 1918 ولتبدأ مرحلة الدولة العربية الدستورية بقيادة الأمير فيصل بن الحسين الذي أعلن الدستور، ونظم مؤسسات الدولة، ورفع راية الثورة العربية وعلم الدولة العربية السورية بألوانه الأربعة مضافاً إليه النجمة السباعية وتُجْرى الانتخابات البرلمانية التي قدَّمت للأمة مجلساً برلمانياً باسم المؤتمر السوري العام الذي أرسى قواعد السلطة التشريعية، وأكمل صورة الدولة العربية الحقيقية.

لكن لم تكن رغبات العرب بالإستقلال والوحدة تلتقي مع

الأطماع الأخرى التي تقدمت بصورة الجيش الزاحف على دمشق، وليتقابل الجيشان العربي والفرنسي في منطقة ميسلون، وتكون الغلبة للأقوى بالعدة والسلاح، ولكن لم تتراجع روح الثورة العربية ولا رغبة الإستقلال ولا إرادة الحق، فما كاد الملك فيصل بن الحسين يغادر أرض بلاد الشام حتى تقدمت قوات الثورة العربية من جديد بقيادة سمو الأمير عبد الله بن الحسين لتصل إلى معان في يوم 21/ 11/ 1920، ليكون في هذا الوصول الاستمرار للقيادة الهاشمية والتصميم على تحقيق الأهداف التي قاتل وضحى من أجلها القادة الهاشميون والعرب.

الأردن جزء من سوريا، ويشكل المحافظة الجنوبية التي رأسها رضا الركابي الذي أصبح فيما بعد أحد رؤساء الحكومات الأردنية، وبعد إحتلال سوريا الشمالية بشقيها ـ سوريا ولبنان ـ وخضوع فلسطين للإنتداب البريطاني الذي ابتدأ كإحتلال، بادر أهل شرق الأردن في محاولة منهم لتنظيم أنفسهم بتشكيل حكومات محلية لإدارة المناطق كانت على النحو التالي:

حكومة إربد: وكان القائمقام فيها هو علي خلقي الشرايري يتولى شؤون الإدارة.. وقد أوفد هربرت صموئيل المندوب السامي البريطاني في فلسطين الميجر سمرست (Summerset) إلى إربد وعقد إجتماعاً في أم قيس أسفر عن معاهدة أو إتفاقية، هي في الحقيقة مجموعة مطالب تعبر عن الرغبة لدى أهل شرق الأردن في تنظيم شؤون شرق الأردن وتأسيس المناطق والإدارات لتنتظم في دولة برئاسة أمير عربي هاشمي.

حكومة السلط: استمر في شؤون الإدارة فيها مظهر رسلان، وهو نفسه الذي كان قائمقام السلط في أثناء العهد الفيصلي، وقد ساعده الميجر كامب (Camp) في شؤون الإدارة إضافة لمجلس منتخب ضم ممثلين عن السلط ومادبا وعشيرة العدوان.

حكومة الكرك: وقد تولى الإدارة فيها الشيخ رفيفان المجالي، وقد بدأ بممارسة أعماله بعد انتهاء الحكم الفيصلي في دمشق، وقد أرسل هربرت صموئيل مندوباً هو الميجر كلنفيك (Clinvick) إلى الكرك للمساعدة في تنظيم الأمور. وقد جرت انتخابات في الكرك تشكل على أثرها مجلس أطلق عليه اسم المجلس العالي، مؤلف من الشيخ رفيفان المجالي والشيخ حسين الطراونة وسلامة المعايطة والخوري عودة الشوارب وعبد الله العكشة ونايف المجالي، ومثّل الطفيلة موسى المحيسن وعبد الله العطيوي.

وتشكّلت مجموعة أخرى من الحكومات المحلية وهي لا تقل أهمية لدورها الكبير وهذه الحكومات هي:

- **حكومة دير يوسف**: وقد شكلها كليب الشريدة.
- **حكومة عجلون**: وقد شكلها الشيخ راشد الخزاعي.
- **حكومة جرش**: وضمت قضاء جرش وعشائر بني حسن وناحية المعراض وتم تعيين محمد علي المغربي كقائم مقام لها.
- **حاكمية الرمثا**: وهذه كانت على شكل ناحية وقد كانت تابعة لحوران ثم ألحقت بقضاء عجلون الذي كانت إربد جزءاً، منه وقد تولى إدارة هذه الناحية السيد ناصر الفواز الزعبي.

ـ حالة الأردن العامة في عهد الحكومات المحلية:

لقد كان الحال في شرق الأردن بعد انفصاله عن مركز الإدارة في العاصمة دمشق حكماً مضطرباً، والرؤيا المستقبلية غير واضحة، وكثرت التوقعات التي تحمل في مجملها التشاؤم والقلق، ولم تكن هذه الحكومات والإدارات المحلية لتستطيع القيام بأعباء الحكم المتكامل. إضافة إلى أن نواحي البلاد أخذت تشهد اضطرابات وتشكيل حكومات وإدارات قبلية مختلفة في أطراف البادية الأردنية وهذا أثر قد زاد الأمر سوءاً.

ولعل الوضع العام لهذه الحكومات لا يمنحها القدرات اللازمة، ونستطيع أن نصف هذه الحكومات كما يلي:

أولاً: لا زالت رواسب الخلافات العشائرية سائدة بين القبائل وهذه تؤثر في التأييد أو القبول لأنماط الزعامات المختلفة، ويعني هذا استمرار الخلافات الداخلية.

ثانياً: عدم توفر أهم أدوات الحكم وهي القوة العسكرية التي تستطيع حماية الحدود والحيلولة دون العبث بالأمن.

ثالثاً: كانت الفترة التي هي بين انتهاء الحكم الفيصلي في 24 تموز 1920 وحتى بدء الاتصالات مع سمو الأمير عبد الله بن الحسين ووصوله إلى عمان في 2 آذار/ مارس 1921 فترة تصفية حسابات عشائرية أو انكفاء لعادات وولاءات سابقة وقيادات ضعيفة استندت على أسس من العشائرية والعصبية القبلية.

رابعاً: لم تكن هناك أنظمة وقوانين أو دستور يحكم بموجبه بل كانت تشريعات تستند على القضاء البدوي التي تعجز عن إعطاء

الحق لضعيف أو الفصل في القضايا الإدارية الأخرى.

إن البحث في شرق الأردن في فترة الشهور السبعة التي سبقت وصول الأمير عبد الله إلى عمان يلقي الضوء ليس فقط على الجانب السياسي والإداري وإنما على الجانب الإقتصادي والتربوي حيث كان هذا الجانب مغيباً تماماً في ظل الانشغال بقضايا الزعامات والخلافات القبلية. ولكن رغم كل ذلك فقد اجتمع الأردنيون وأجمعوا على مصلحة البلاد وضرورة أن تكون هذه الديار بلد الخير والوفاء مثلما هي أصلاً بلد الشهامة والأصالة.

هذه الحكومات المحلية لا تستطيع أن تقوم بأعباء الحكم لافتقارها أصلاً إلى مقومات الدولة وعناصر الإدارة الأولية، وهذا الحال إنما هو نتيجة بقاء سوريا الجنوبية بلا إدارة أو سلطة مباشرة فكانت المبادرات من أهل شرق الأردن لتنظيم شؤونهم وكان ذلك الإجتماع الذي رسم ملامح الدولة المستقلة للأردن في أم قيس في الثاني من أيلول/ سبتمبر 1920.

عينت بريطانيا هربرت صموئيل مندوباً سامياً في فلسطين في شهر حزيران/ يونيو 1920 الذي بدأ اتصالات واسعة مع الزعامات العربية في شرق الأردن واستقباله للوفود العديدة منهم للبحث في شؤون البلاد، بعد الفراغ السياسي والذي نتج بمغادرة فيصل بن الحسين المنطقة في شهر آب/ أغسطس 1920.

وللحقيقة فإنه قبل مغادرة فيصل بن الحسين ميناء حيفا فقد وفد إليه العديد من شيوخ المنطقة ليستشيروه في العديد من القضايا، فكانت نصيحته بأن يقيم أهل البلاد ببلادهم وأن يتعاونوا مع

الانكليز للارتقاء وللوصول إلى الإستقلال التام، فقد كان مع فيصل بن الحسين في حيفا علي خلقي الشرايري الذي طلب منه فيصل أن يعود إلى إربد ليحافظ على الاتجاه الوطني هناك وينظم شؤون منطقته، وكذلك زاره الشيخ رفيفان المجالي متصرف الكرك وطلب منه مثلما طلب من علي خلقي الشرايري.

وليس ذلك فحسب بل حمل الشريف محمد علي البديوي رسالة من الأمير فيصل إلى ميرزا بك في عمان والتي يأمل الملك فيصل أن تكون مركزاً للمقاومة الوطنية ضد الفرنسيين، وقد كانت رسالة فيصل شفوية تشرح ما يجب عمله، أما نص الرسالة فكانت قصيرة وكما يلي:

«الأعز ميرزا بك رئيس عشائر الشراكسة. حامل هذه الرسالة الشريف محمد علي بن البديوي، وقد أخبرناه بما يلزم من الرأس. المطلوب الاعتماد على أقواله كما هو المأمول».

نشطت الاتصالات الشرق أردنية مع بريطانيا من خلال المندوب السامي هربرت صموئيل، هذه الاتصبالات التي دفعت صموئيل لزيارة شرق الأردن حيث وصل إلى السلط يوم 21 آب/ أغسطس 1920 واجتمع بحشد كبير من عشائر الأردن في الجنوب والوسط والشمال، تحدث الأردنيون فيه عن مطالبهم وحاجتهم لإنهاض البلاد وتجنيبها احتمالات الغزو أو التجزئة.

جاء هربرت صموئيل إلى السلط بعد سلسلة من الإجراءات التي تمت من قبل، فقد أبرق للأمير فيصل بن الحسين وهو في ميناء حيفا وقبل مغادرته ببرقية هذا نصها:

«أود أن أبلغكم أنه بعد حوادث دمشق التي وقعت في الشهر الماضي، زارني بعض مشايخ شرقي الأردن، وطلبوا إنشاء إدارة بريطانية، وردتني رسائل من عندهم ومن بعض أعيان السلط بهذا المعنى. ولما كان الإتفاق المعقود بين الحكومتين البريطانية والفرنسية يقضي بأن تكون البلاد الواقعة جنوبي خط «سايكس بيكو» ضمن منطقة النفوذ البريطاني لا الفرنسي، فالحكومة البريطانية تميل في هذه الحالة إلى تعيين عدد قليل من الضباط لمساعدة أهل شرق الأردن على تنظيم حكومتهم ووسائل الدفاع عنها. ولذلك دعوت زعماء البلاد من عجلون شمالاً إلى الطفيلة جنوباً لمقابلتي في السلط يوم السبت القادم للمشاورة في الأمر». إن هذه البرقية تلخص أمرين هما:

أولاً: إن بريطانيا تحترم العرش الهاشمي ومكانته بين العرب، وتدرك احترام العرب ووفاءهم وولاءهم لهذه القيادة التي قادت حركة النهضة العربية.

ثانياً: إن بريطانيا أدركت رغبة الأردنيين في تنظيم أنفسهم وإنشاء الدولة منعاً لوصول الأطماع التي بدأت تلوح في الأفق.

من هنا كان الإجتماع في السلط كما جاء في مضمون برقية هربرت صموئيل، وكانت كلمته التي تحدث بها في الإجتماع كما يلي: «منذ وقوع الحوادث الأخيرة في دمشق زارني في القدس كثيرون من مشايخ وأعيان بلاد شرقي الشريعة، وأخذت رسائل من غيرهم ومن بعض كبار رجال مدينة السلط وقد التمسوا مني أن

أسعى في امتداد الإدارة البريطانية إلى هذه البلاد، حيث إنكم تعرفون أن الحكومة البريطانية اتفقت مع الحكومة الفرنسية أن لا يكون لها حق المداخلة بها قطعياً. . .

من مدة قصيرة تلقيت برقية من لندن تفيد أن الحكومة الفرنسية قد ثبّتتْ نفوذها في الشام فلذلك أصبح من اللازم فصل هذه المنطقة عن إدارة حكومة الشام. . .» ويستكمل هربرت صموئيل حديثه مع أعيان شرق الأردن:

«ستسألونني ما هو نوع المساعدة التي تقدمها لكم الحكومة البريطانية، إنها لا تقصد إلحاقكم بإدارة فلسطين بل تريد تأسيس إدارة مستقلة تساعدكم على حكم أنفسكم، وسيرسل لكم عدد قليل من المعتمدين السياسيين ورجال القضاء من ذوي الحنكة والدراية والمعرفة التامة بالأهالي وباللغة العربية من الذين تعرفون أكثرهم شخصياً، ليكونوا في مدنكم الكبيرة، ويساعدوكم على تنظيم القوات للدفاع عنكم أمام أي تعدٍّ من الخارج، وتنظيم الدرك المحلي لتأكيد النظام وترويج التجارة السليمة، إن هؤلاء المعتمدين ينظرون في أمر تنفيذ العدالة وإنفاق الضرائب التي تدفعونها بأمانة في سبيل احتياجاتكم، ويشاورونكم في الغايات التي تصرف الأموال لأجلها، وفي أمر تحسين وتصليح الطرق وبناء المدارس وترتيب الرعاية الطبية. . .».

لقد كان هذا الإجتماع البداية لائتلاف أردني ينسج الوحدة الوطنية والاهتمام بكل قضايا المنطقة، فلا غرابة في أن يطالب الشيخ سلطان العدوان والشيخ رفيفان المجالي بالعفو التام عن

الشيخ أمين الحسيني وعن عارف العارف في نفس الإجتماع ويحصلا على ذلك ويتقدم عارف العارف ليتحدث في نفس الإجتماع ليشكر أهل شرق الأردن ويشكر المندوب السامي البريطاني.

لقد أرسل هربرت صموئيل توصياته وأرسل أيضاً رسالة للملك جورج الخامس بتاريخ 12 أيلول/ سبتمبر 1920 يصف الأوضاع في شرق الأردن يكرر فيها ما جاء في برقيته لفيصل بن الحسين في حيفا وكذلك ما جاء في حديثه في إجتماع السلط ومداولاته مع شيوخ العشائر الأردنية.

عاد هربرت صموئيل إلى فلسطين تاركاً الميجر كامب (Camp) والكابتن برانتون (BrEnton) ومعهما 12 شرطياً من فلسطين وفي مصادر أخرى ذكرت أنه ترك 50 شرطياً للإسهام في تنظيم شؤون البلقاء.

ـ مؤتمر أم قيس:

دفعت الاتصالات والمشاورات أهل شرق الأردن للعمل بشكل جدي وسريع فتداعوا لإجتماع أم قيس الذي حضره الميجر سمرست كمندوب عن المندوب السامي البريطاني في فلسطين والذي كان مقيماً في طبريا حينها، وقد توصل المؤتمرون لإتفاق عرف باسم معاهدة «أم قيس» في 2 أيلول/ سبتمبر 1920، أي بعد عشرة أيام تقريباً من إجتماع السلط الذي كان في 21 آب/ أغسطس 1920، وقد تشكّلت المعاهدة من 16 بنداً تعكس الرؤيا البعيدة لأهل شرق الأردن ووعيهم السياسي، وحسّهم الوطني وغيرتهم على

الأرض العربية جميعاً، وتالياً بنود هذه الإتفاقية التي دعت لإنشاء حكومة عربية واضحة الحدود.

أولاً: أن يكون لهذه الحكومة أمير عربي.

ثانياً: أن يكون لها مجلس عام للإدارة وسن القوانين.

ثالثاً: أن لا يكون لها أدنى علاقة بفلسطين.

رابعاً: الدعوة لمنع الهجرة اليهودية منعاً باتاً ومنع بيع الأراضي لليهود أيضاً.

خامساً: أن يكون للحكومة جيش وطني.

سادساً: للحكومة وحدها الحق في إبقاء السلاح مع الأهالي أو تجريدهم منها.

نلاحظ في هذه البنود الست التصميم على إستقلالية شرق الأردن في وحدة أرض لها جيش يدافع عنها، في جوار أرض عربية أخرى (فلسطين) لها إستقلالها التام، وأما بقية البنود فهي:

سابعاً: العفو عن المجرمين السياسيين داخل المنطقة.

ثامناً: حرية التجارة مع المناطق المجاورة، وإعطاء البلاد حقها من واردات الجمارك في سوريا.

تاسعاً: الطلب بأن تتولى الحكومة الوطنية إدارة سكة حديد الحجاز كونها وقفاً إسلامياً.

عاشراً: يكون شعار هذه الحكومة العلم السوري ـ الذي أصبح فيما بعد علم المملكة الأردنية الهاشمية ـ.

حادي عشر: تقدم بريطانيا لنا السلاح والعتاد والأدوات الفنية.

ثاني عشر: تكون بريطانيا منتدبة على عموم سوريا تأميناً للوحدة.

ثالث عشر: يكون نهر الأردن الحد الغربي للمنطقة.

رابع عشر: يكون للحكومة معتمدون في الخارج لتمثيلها.

خامس عشر: تكون المراجعات مع المندوب السامي باعتباره نائب ملك بريطانيا.

سادس عشر: تتعهد بريطانيا بصد الفرنسيين إذا أرادوا اجتياز الحدود.

هكذا كانت البدايات: الأردنيون يتحركون في كل اتجاه مدركين لكل الظروف المحيطة، آخذين العبر والدروس من الأحداث التي عاصروها وعايشوها، واتجه الأردنيون للتنسيق مع بريطانيا لتقوية مركزهم ولحفظ البلاد من التدخلات المحتملة التي تستهدف الأرض والسكان.

مساعي جديدة وجادة بدأها أهل شرق الأردن، فقد بدأت الاتصالات مع الأمير عبد الله بن الحسين الذي كان قد وصل إلى معان في 21/ 11/ 1920 ولتبدأ عملية التأسيس الحقيقي لحكومة شرق الأردن.

بينما كانت الأحداث تتسارع في شرق الأردن بعد انجلاء الموقف ووضوحه في لندن، كانت الحجاز ترقب مجريات الأحداث هذه. وقد وجهت دعوة في وقت سابق للأمير فيصل أن

يأتي للحجاز بعد إجباره على الخروج من سوريا، إلا أنه آثر أن يمارس النضال السياسي من خارج البلاد العربية، ولعل في ذلك حكمة أرادها فيصل بن الحسين، لأن في عودته للحجاز تعني الاعتراف بالأمر الواقع، من هنا كانت رسائله وإجاباته لكل من اتصل به خلال إقامته في حيفا، وقبل أن يغادر في 18 آب/أغسطس 1920 إلى بور سعيد ومن ثم إلى إيطاليا. ولكنه ركّز في نصائحه وإرشاداته على أن تكون عمان قاعدة النضال بكل أنواعه، وكانت اتصالاته مع والده الحسين وشقيقه الأمير عبد الله تؤكد هذا المعنى.

من هنا كانت مبادرة الأمير عبد الله بن الحسين للقدوم لشرق الأردن ليكون نائباً لشقيقه ملك سوريا فيصل بن الحسين.

جاء في مذكرات الملك عبد الله بن الحسين التي صدرت عام 1962 ما نصه: «ثم حدثت حوادث الشام وخرقت فرنسا حرمة الحق والعهد، وهجومها على سوريا والكارثة التي حلت بخروج الملك فيصل منها ثم ما حدث للوزراء السوريين الموالين لفرنسا في درعا، وطلب أهل الإخلاص من أنصار القضية العربية في سوريا إرسال من ينوب عن الملك فيصل من الشخصيات الملكية في البيت الهاشمي، وقد كنت حينذاك لا أشتغل بوظيفة، فاستأذنت والدي، وطلبت إليه أن يحمّلني تبعات هذه الحركة شخصياً، فأذن لي، وتوجهت من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ومنها بالخط الحديدي إلى معان فوصلنا بمشقة شديدة - لخراب الخط - بعد شهر وكان الوصول بتاريخ 11 ربيع الأول 1339هـ الموافق 21 تشرين الثاني/ نوفمبر 1920م».

ويتحدث جلالة الملك الشهيد عن يوم وصوله إلى معان فيقول: «وقوبلت بحماس من أهل معان وباديتها، ووجدت هناك الأمير آلاي غالب بك الشعلان أي (غالب باشا الشعلان)، وكان هذا يقود فرقة الهجانة العثمانية في المدينة المنورة، ولطالما اصطدمت قواته بالمفارز العربية الهاشمية، ثم ترك المدينة إلى تركيا وعاد وأثبت إخلاصه وترقى إلى أن صار في رتبة أمير لواء في الجيش العربي رحمه الله، ووجدت هناك الرئيس عبد القادر الجندي - عبد القادر باشا الجندي الآن - والرئيس محمد علي العجلوني، والمرحوم خلف بك التل وغيرهم..».

يلخص ما كتبه عبد الله بن الحسين في مذكراته الأسباب التي دفعت به لتحمل تبعات هذه الحركة لينوب عن فيصل في بلاد الشام، وعندما وصل الأمير عبد الله إلى معان كانت قد انتهت مرحلة الاتصالات الأردنية البريطانية ووضع أهل شرق الأردن ميثاق «أم قيس» الذي ينص البند الأول فيه على أن يتولى أمر شؤون البلاد أمير عربي...

لقد اكتسب أبناء الشريف الحسين بن علي مكانة خاصة في نفوس العرب جميعاً... فقد كان أهل العراق ينتظرون قدوم الأمير عبد الله بن الحسين للبدء بتأسيس دولة هناك وكانت حكومة الحجاز قائمة بقيادة الملك الشريف الحسين بن علي، ومن ثم نجله الأمير الملك علي بن الحسين. وفي الشام كانت المملكة العربية السورية بقيادة الملك الدستوري بموجب مقررات المؤتمر السوري العام في 8 آذار/مارس 1920 الذي نادى بجلالة

الملك فيصل بن الحسين ملكاً على سوريا بأقاليمها الأربعة.

وبوصول الأمير عبد الله بن الحسين إلى معان فإنه قد وصل إلى أرض حجازية حينها، وفور وصوله بدأ اتصالاته من أجل سوريا الكبرى، وبدأ عمله بإصدار منشور في 5 كانون الأول/ ديسمبر 1920، ودعا كل أعضاء المؤتمر السوري العام والضباط العرب في الجيش السوري وشيوخ العشائر إلى الالتحاق به في معان، وأعلن أنه نائب ملك سوريا. ويذكر الأمير عبد الله أنه تلقى إجابات مختلفة، ولكن موقف أهل شرق الأردن كان مختلفاً. وهنا يقول سمو الأمير: «وكان موقفي بعيداً عن التقول الحسن، ولكن كان الأمر على خلاف ذلك في شرقي الأردن، فقد هرع الناس إليّ يدعونني إلى عمان فكنت أجيبهم بأنني فاعل إن شاء الله...».

أما منشور الأمير عبد الله بن الحسين إلى أهل سوريا الذي صدر من معان فقد نص على ما يلي: «لا أجد في نفسي أدنى ريب أو أقل شبهة، في أن أبناء الوطن السوري سيتلقون بياناتنا التالية بقلوب ملؤها التصديق والإخلاص. فليعلم أبناء سوريا إن ما أصابهم من الضياع المحزن، من اعتداء رجال الاستعمار الفرنسي على وطنهم ومبادرتهم بسرعة فظيعة غريبة لهدم عرشهم في أول سعيهم لتشكيل حكومتهم التي وضعت أساسها على سياسة الولاء والصداقة لكل الأمم على الإطلاق، وقد أثر هذا على حواس كل عربي على وجه الأرض، وفي الوقت نفسه نعلم علماً يقيناً أن أبناء سوريا الكرام هم من جملة المفاخر العربية وركن من أركان الجامعة القحطانية والعدنانية لا يرضون بالذل ولا ينقادون إلى من جاء

لإهانتهم في عقر دارهم، وإنهم لا يعذرون أبناء جنسهم إذا منعوا عنهم يد المعونة والمدد في مثل هذه الآونة الخطيرة..

كل عربي يعلم إنكم يا أبناء سوريا تستنصرون وتستثيرون حميته ليأتيكم مسرعاً ملبياً مقبلاً غير مدبر... ومن حيث توالت علينا الدعوات وصمَّت آذاننا الصرخات، فها أنا قد أتيت مع أول من لبَّاكم نشارككم في شرف دفاعكم لطرد المعتدين عن أوطانكم بقلوب ذات حمية وسيوف عدنانية هاشمية...».

هذه المقدمة لبيان الأمير عبد الله بن الحسين إنما هي إلقاء الضوء على الحقبة الزمنية تلك التي كان العرب خلالها منقسمين إلى ثلاثة أقسام في آسيا: هي بلاد الجزيرة العربية، ومنطقة الخليج العربي، وبلاد الشام، هذه التي تشكل أركان الجامعة القحطانية العدنانية والتي أشار الأمير عبد الله إليها، ويؤكد من جديد الأمير عبد الله على هدفه الرئيسي وهو إنقاذ عرش سوريا إنتصاراً للحمية العربية. ويكمل الأمير عبد الله منشوره لأهل سوريا فيقول: «ليعلم من أراد إعانتكم وابتزاز أموالكم وإهانة علمكم واستصغار كبرائكم، إن العرب كالجسم الواحد إذا شكا طرف منه اشتكى كل الجسم.

ليعلم أبناء سوريا أن هؤلاء المعتدين قد عدُّوكم من جملة من أدخلوه تحت عار استعمارهم وضعوهم في مصاف الزنوج والبرابرة، وظنّوا أنكم لستم من ذوي الغيرات وأصحاب الحميات.

كيف ترضون بأن تكون العاصمة الأموية مستعمرة فرنسية؟ إن رضيتم بذلك فالجزيرة لا ترضى وستأتيكم غضبى، وإن غايتنا الوحيدة هي كما يعلم الله، نصرتكم وإجلاء المعتدين عنكم».

يؤكد الأمير عبد الله هنا على ضرورة التعاضد من أجل إنقاذ سوريا، وهنا يستكمل سموه في حديثه فيقول: «وها أنا ذا أقول، ولا حرج، بأنني قد قبلت تجريد بيعة مليككم فيصل الأول عن الأكثرية الغالبة التي جددت تلك البيعة على يدي. . .».

«وإنني سأعود إن أبقاني الله حياً إلى وطني يوم نزوح عدوكم عن بلادكم وعلى هذا اليمين بالشرف. . . وآمركم حينئذ وبلادكم بأيديكم، متّعكم الله بالعز والسؤدد والرفاهية والمجد. . .».

لقد أحدث وجود الأمير عبد الله في معان واتصالاته ودعوته للعرب للإجتماع للبدء في العمل إنتصاراً للقومية وللنهضة ولمعاني العروبة والأصالة ولعل أهم الآثار التي تركها هذا الحدث:

أولاً: التأكيد على أن مبادئ النهضة العربية هي مبادئ تطبيقية عملية جاءت لتبقى حية في النفوس ترتقي بالإنسان العربي بما يليق ومكانته الصحيحة.

ثانياً: إن الجميع يعمل لهدف واحد وإن اختلف المكان.

ثالثاً: عززت إجراءات الأمير عبد الله هذه، موقف الأمير فيصل الذي كان قد وصل إلى لندن بعد رحلته من حيفا إلى بورسعيد ثم إلى إيطاليا وبعدها إلى لندن حيث قابل الملك جورج الخامس، الذي أكد بدوره أن القضية العربية ستكون موضع اهتمام بريطانيا وقد أرسل فيصل مضمون اتصالاته ببرقية لشقيقه عبد الله في معان.

وقد جاءت زدود الفعل ما بين مشكك ومؤيد لما يجري، ولكن

العرب في غالبيتهم إذا ما أخذنا تلك الظروف السائدة كمقياس حكم فإنهم يتجهون نحو قبول إرساء الدول العربية واستمرار المملكة العربية السورية التي أنشأها فيصل في سوريا. . . .

وهنا نورد ما حدث بين الأمير عبد الله ومظهر بك رسلان الذي كان متصرفاً للسلط حينها. فقد خشي مظهر رسلان تطورات الوضع فأرسل رسالة إلى الأمير عبد الله وهو في معان يقول فيها أنه «بلغ الحكومة الوطنية عزمكم على زيارة شرق الأردن، فإن كانت هذه الزيارة لمجرد السياحة فإن البلاد ستقابلكم بالترحيب، وإن كانت لأغراض سياسية فالحكومة ستتخذ كل الأسباب المانعة لزيارتكم. . . ».

هذه كانت رسالة مظهر رسلان زعيم الحكومة الوطنية الذي أصبح فيما بعد رئيس الوزراء لإحدى حكومات شرق الأردن وكان من الرجال المخلصين الأوفياء، وهنا نورد إجابة الأمير عبد الله بن الحسين.

«إنني سأزور شرق الأردن زيارة إحتلالية، وأنا عينت من الحكومة العربية الملكية في سوريا، وإنني أنوب الآن عن جلالة الملك فيصل، ويجب أن تعلم ذلك، وإنه لمن واجبك تلقي الأوامر من معان وإلا فسيعين غيرك محلك».

كانت هذه الإجابة قبل أيام قلائل من مغادرة الأمير عبد الله معان باتجاه عمان. . . كانت هذه الإجابة، إجابة قائد مصمم على تحقيق الهدف، لا يخشى في سبيل الحق والأهداف السامية شيئاً.

وهكذا ابتدأ الركب الهاشمي يتنقل من معان إلى عمان الذي

ابتدأ محمله في يوم الاثنين في 20 جمادى الثانية سنة 1339هـ. الموافق للثامن والعشرين من شباط/ فبراير من عام 1921م. . . .

تحدثنا عن وصول سمو الأمير عبد الله بن الحسين إلى معان في 21 تشرين الثاني/ نوفمبر 1920 وبدء اتصالاته لتحقيق الأهداف التي من أجلها وصل إلى هذه المنطقة. . . هذه الأهداف التي باركها الشريف الحسين بن علي الذي ودع نجله عبد الله عند مغادرته مكة المكرمة ـ والذي انتقل إلى المدينة المنورة ليبدأ رحلته من هناك إلى معان والتي استغرقت سبعة وعشرين يوماً رافقه فيها الشريف شاكر بن زيد وعلي ابن الحسين الحارثي الذي كان له الدور في الاتصالات في شرق الأردن والشريف محمد علي البديوي ومنصور بن فتن وعقاب بن حمزة والشيخ مرزوق التخيمي الهيمق ومحسن الحارثي وحسن الشقران، وعدد من الضباط العراقيين وهم داوود المدفعي ومحمود بك الشهواني وسعيد الطلال.

ـ عمان والتأسيس:

انطلقت رحلة التأسيس يوم الاثنين 28 شباط/ فبراير 1921 لتحط الرحال في عمان في ظهر يوم الأربعاء 2 آذار/ مارس 1921 ليكون ذلك اليوم، يوم ميلاد شرق الأردن الذي نما واكتمل ليصبح المملكة الأردنية الهاشمية في 25 أيار/ مايو . . 1946.

وقد قام سمو الأمير عبد الله بوداع أهل معان الذين أحسنوا الضيافة وكانوا أهل الكرم والجود والأصالة، وخطب سموه في الجمع كلمة مختصرة هي سامية في معناها حيث قال سموه:

«إنني الآن مودعكم، وأود أن لا أرى بينكم من يتعزى إلى إقليمه الجغرافي، بل أحب أن أرى كلاً منكم ينتسب إلى تلك الجزيرة التي نشأنا فيها وخرجنا منها، والبلاد العربية كافة هي بلاد كل عربي. . .».

غادر الأمير عبد الله معان بعد أن تهيأت الظروف وبعد أن قدَّم أهل شرق الأردن عريضة لسموه رفعها سعيد خير والذي ترأس حملة لجمع التبرعات لتمويل رحلة التأسيس، هذه العريضة التي وقّعها العديد من زعامات شرق الأردن أحدثت أثراً كبيراً لدى القيادات البريطانية وحرّكت بعض الاتجاهات المعارضة. فعندما وصل سموه إلى محطة الجيزة يوم الثلاثاء الأول من آذار/ مارس 1921، اعترض سموه عند باب القطار مظهر رسلان حاكم السلط حينها وقال لسمو الأمير:

«أرجو أن تعودوا إلى معان، فإن المعتدين البريطانيين في شرق الأردن قد انسحبوا إلى فلسطين وأخلوا الطريق لفرنسا كي تخرجكم إن دخلتم».

وهنا يصف الأمير عبد الله هذا الموقف في مذكراته فيقول:

. . . «وكانت يده ترتجف وهو متعلق بشباك عربة القطار، فقلت له: لا بأس عليك ولا خوف علينا، ثم دفعت يده من ملتزمها فانحط إلى الأرض. . .».

استقبل سموه في محطة الجيزة شيوخ القبائل من بني صخر وأكرموا وفادة الأمير ومن بصحبه من شيوخ الحويطات والكرك ومعان الذين رافقوه في رحلة التأسيس هذه. . . وأقام سموه ليلته

بين عشيرته وأهله، وفي اليوم الثاني الأربعاء أكمل القطار رحلته إلى عمان ليحط في ماركا الشمالية الساعة الحادية عشر ظهراً من يوم الأربعاء الثاني من آذار/مارس من عام 1921 واستقبله أهل عمان وشيوخ المنطقة والشراكسة وأهل ناعور ووادي السير وغيره.

لقد كان الاستقبال ليؤكد تصميم شرق الأردن على الارتقاء في البلاد نحو الأفضل وأكد أيضاً على الإجماع على قيادة الأمير الهاشمي عبد الله بن الحسين لهذه الديار...

ورغم معارضة بريطانيا لقدوم الأمير عبد الله إلى عمان ومحاولتها ثني سموه عن طريق التشويش وتوزيع المنشورات المضادة رغم ذلك فقد كان المستر كير كبرايد ببزته العسكرية في مقدمة المستقبلين حيث كان يمثل بريطانيا في عمان ويرتبط بالسير هربرت صموئيل في فلسطين...

ـ الخطاب الهاشمي الأول فوق أرض الأردن:

في اليوم التالي الخميس 3 آذار/مارس 1921 خطب سمو الأمير عبد الله في الجموع، وتالياً نص هذا الخطاب الأول فوق الأرض الأردنية:

«سروركم بنا وترحيبكم لنا وإجتماعكم علينا أمر لا يستغرب. أنتم لنا ونحن لكم وإنني لم أغفل كلمة مما جاء به خطباؤكم ووطنيتكم أمر لا يخفى على الكون كله، وضالتكم المنشودة هي عبارة عن حقكم الذي تطلبونه، ويمكنني أن أقول بأن الله لا يترككم هكذا، وإني أقول لكم بأنه إذا جاء الوقت لاستعمال ما تستعمله

الأمم من القوة عند ذلك تثبتون بأنكم ما وجدتم ضعفاء، ولكن لا تموتوا بلا شرف، فلا أريد منكم إلا السمع والطاعة، وما جاء بي إلاّ حميتي وما تحمّله والدي من العبء الثقيل. ولو كان لي سبعون نفساً بذلتها في سبيل الأمة لما عددت نفسي إني فعلت شيئاً».

هذه هي أول كلمات الأمير الهاشمي عبد الله الذي تحمّل المشاق والأعباء وواجه الصعاب والتحديات، سواء من بعض أهل البلاد أو من أصحاب النفوذ لكن إرادة الأمير الهاشمي هي التي أكدت حقيقة أن الحق سيعلو مثلما كان يعلو هذا الحق على صفحات الجريدة الأولى في شرق الأردن، جريدة «الحق يعلو» التي كانت تصدر في معان...

ويتحدث سموه في كتاب المذكرات في الصفحة 165 فيقول: «وبعد الدخول جرى إحتلال المنطقة بكاملها وكانت تصدر الأوامر من عمان... وكان الناس في فترة لا يزور أحدٌ أحداً، البلقاء للبلقاء، وعجلون ولواؤها لعجلون وأهله، والكرك والطفيلة كذلك، فجمعنا كل هذه الأقطار ووحّدناها وزال الخلاف بينها.

ـ مفاوضات التأسيس وتكوين الدولة الأردنية:

وصول الأمير عبد الله بن الحسين إلى شرق الأردن هو الوصول إلى منطقة سوريا الجنوبية التي تقع جنوب خط إتفاقية «سايكس بيكو»، ولم يغب عن باله أبداً النضال من أجل إعادة الأمور إلى وضعها الصحيح في دمشق... وهنا بدأت الاتصالات مع السير هربرت صموئيل في القدس في الوقت الذي تواجد فيها المستر

تشرشل وزير المستعمرات البريطانية وأيضاً كان المستر لورنس يتواجد في السلط حينها. . . وإجتماع هؤلاء في هذه المنطقة إنما هو لسببين:

أولاً: مراقبة فرنسا ومدى التزامها بإتفاقية «سايكس بيكو»، إضافة لتطور الأوضاع في داخل سوريا ولبنان.

ثانياً: متابعة الوضع في شرق الأردن إثر وصول الأمير عبد الله بن الحسين رغم التحذيرات البريطانية تلك التي أظهرت القلق من الوضع الجديد والذي ازداد الآن. . .

أرسل المندوب السامي البريطاني هربرت صموئيل العديد من التقارير إلى الحكومة البريطانية بدءاً من مطلع شهر كانون الثاني/ يناير 1920، تتحدث عن ازدياد النشاط الهاشمي في المنطقة، وإن الأمير عبد الله لديه خطة لمهاجمة الفرنسيين في دمشق، وإن عمان أصبحت مركزاً لكل الأحرار والوطنيين التي كانت تسميهم السلطات الفرنسية والبريطانية بالخارجين عن القانون. . .

كانت هذه الأحداث تتسارع في عمان، والشريف الحسين بن علي يتابع الوضع من الحجاز، وهنا أرسل الشريف حسين برقية للأمير يقول فيها: «إن وزير المستعمرات البريطاني المستر تشرشل موجود في القدس وربما طلب زيارة وادي عربة أو رغب في أن يدعوك إلى القدس ليراك، فإذا كان أحد الشقين من رغباته فأتم ذلك بكل إكرام ورعاية. . .».

ولم يمضِ وقت طويل حتى استلم سمو الأمير عبد الله دعوة من السير هربرت صموئيل يدعوه لزيارة القدس ومقابلة وزير

المستعمرات ونستون تشرشل. . . وأجاب سمو الأمير الدعوة وانتقل إلى السلط والتقى بلورانس الذي كان في انتظاره، وغادروا عبر وادي شعيب باتجاه القدس ويتحدث الأمير عبد الله عن هذه الزيارة فيقول: «وتوجهنا في اليوم التالي إلى القدس، وتغدينا بالطريق عند المدفع التركي المقذوف في نهير شعيب، وكان معي في سيارتي لورنس وكانت سيارة عسكرية بريطانية يقودها جاويش بريطاني. وكان معي في الركب كل رجالات سوريا وفلسطين ورأيت بالنزل في أريحا جل أعيان فلسطين وعلى رأسهم موسى كاظم الحسيني رحمه الله، ومن علماء، وأعيان ومحامين ورؤساء روحيين فكانت خطب حماسية وأجوبة مناسبة. . .».

ويستمر سموه في وصف لقاء ذلك اليوم وما دار من مداخلات مع هربرت صموئيل ومع لورنس الذي لم ينفك عن نقل أفكار صموئيل للأمير عبد الله وهما في طريقهما من السلط إلى القدس. . .

«لقد كان واضحاً أن بريطانيا تسعى لإعادة ترتيب أوضاع المنطقة، ليس من أجل مصالح سكان المنطقة وأوضاعهم وإنما حفظاً للمصالح البريطانية وللنفوذ والوجود البريطاني في المنطقة الذي أصبح مهدداً بسبب النفوذ الفرنسي. . . ومن هنا كانت مطالبة هربرت صموئيل لحكومته مستمرة بأن ترسل بريطانيا قوات عسكرية لإحتلال شرق الأردن. . . وقد كان يقلق بريطانيا حينها الوضع في العراق حيث برزت مسألة عرش العراق، ويقلقها أيضاً النشاط الهاشمي والتفاف الشعب حول الأمير عبد الله بن الحسين. . .

إضافة لعدم ارتياحها لمواقف الشريف الحسين بن علي المتشددة والثابتة من القضايا العربية».

ولعل هذه كانت محاور المباحثات ما بين الأمير عبد الله وونستون تشرشل هذه المباحثات التي ضمت المندوب السامي في فلسطين هربرت صموئيل والسكرتير العام لفلسطين السير وندهام ديدس والكولونيل لورنس ومن الجانب العربي كان عوني عبد الهادي.

ويصف سمو الأمير عبد الله بن الحسين طبيعة هذا الإجتماع وما دار به حيث يقول في النسخة الأصلية لمذكراته صفحة 168:

«ففتح الحديث وزير المستعمرات بذكر المقاصد الطيبة التي جمعت بريطانيا والعرب في الحرب وبالآمال المنوطة بتلك الروح وبذكر التعاون الذي حصل في الحرب، ثم ذكر جهود بريطانيا في الحيلولة دون حدوث جديد بين فرنسا والعرب»، ثم قال: «لذلك ولأن إنكلترا محايدة في القضية بين العرب والفرنسيين وهم حلفاؤها فإنها تنصح ـ وهو يبلغ هذه النصيحة إليّ ـ بلزوم انصراف الأمير فيصل بن الحسين عن سوريا وسفره إلى العراق ليرشح نفسه لمُلك العراق. . . وإن الحكومة الإنكليزية تعلم أن فرنسا لا تشتغل بوجه إلا للشخص الذي تعتمد عليه، وإن طلاّب عرش العراق كثيرون منهم ابن النقيب، ومنهم ابن سعود، وخزعل علي خان، وإنه يجب عليّ أن أساعد على هذا الغرض وأؤثر على والدي أن يقبل به، وأن أؤثر العراق أن يرضوا بالأمير فيصل وأن أُبقي هنا في شرق

الأردن على تفاهم معهم، فأسير في الناس سيرة تبتعد عن تحدي الفرنسيين، وأنه إذا تم هذا فأنه يؤمل أن تعيد فرنسا النظر في الأمر، وبالنتيجة فأنه يعتقد الاستطاعة بعد ستة أشهر في أن يهنينا برجوع الشام إلى أيدينا. . .».

لقد استمرت المناقشات والمباحثات التي تناولت قضايا مختلفة وسموه يفكر في مستقبل هذه الأمة، وإنه يعمل من أجل صالحها وبمشورتها وهذا واضح من كلماته التالية في ختام المباحثات:

«أما فيما ينبغي أن أعلمه هنا فإنني أوافق على وجاهة الرأي، ولكن لا أستطيع قبوله حتى أعرضه على زعماء البلاد وأحزابهم، وهم هنا معي ومن غاب فله من يمثله، وأجيبكم غداً في مثل هذه الساعة، أما أهل فلسطين فهم يرفضون وعد بلفور ويصرون على عروبة فلسطين، وكذلك ولا نستطيع أن نرضى بفناء أهل فلسطين من أجل يهود العالم، وإنهم ليسو كالنبات أو الشجر كلما قُلِّم نبت ولهذا شأن يطول. . .».

وانتهت المباحثات هذه بقرار زيارة هربرت صموئيل إلى عمان لوضع الأساس للإتفاق على تشكيل للإدارة في جميع نواحيها: الجيش، المال والمعارف، والعدلية وسائر الفروع.

إننا ونحن نتحدث عن نشأة الدولة الأردنية علينا أن ننظر للوقائع والأحداث بالمنظار الملائم الذي به ندرك الظروف والأوضاع التي كانت سائدة في العقد الثالث من القرن العشرين. وقد نتوقف كثيراً وملياً عند بعض الأحداث ولا نستطيع تصور مجرياتها لتأثرنا بخصائص هذا العصر الذي يشهد تحولات وتغيرات

سياسية هذه نفسها ستكون غريبة عن الجيل الذي سيأتي بعد ستين أو سبعين سنة.

لقد نشأت الدولة الأردنية في ظروف سادتها الأطماع الاستعمارية التي أهملت رغائب الشعوب وأصابها الغرور والغطرسة بعد خروجها منتصرة من الحرب العالمية الأولى ووجدت نفسها أمام تركة كبرى تلك التي اصطلح عليها «المسألة الشرقية» فأغرقت هذه الدول في أسلوبها وعقد الإتفاقيات حولها.

مباحثات الأمير عبد الله بن الحسين في القدس مع ونستون تشرشل استغرقت 3 جولات في 28 و29 و30 آذار/ مارس 1921، والتي تم فيها بحث العديد من القضايا في ضوء ما أفرزه مؤتمر الشرق الأوسط في 12 آذار/ مارس 1921، وكذلك توصيات لورنس وتوصيات واقتراحات هربرت صموئيل، إضافة للمطالب اليهودية باعتبار أرض الأردن هي جزء من وعد بلفور، ولكن نجاح الأمير عبد الله في مفاوضاته مع تشرشل كان سبباً في إصدار قرار من عصبة الأمم التي كانت تمثل الشرعية الدولية حينها بالاعتراف بشرق الأردن كوحدة جغرافية وسياسية مستقلة وقد صدر القرار في 23 أيلول/ سبتمبر 1922، وقد نص هذا القرار الذي وافقت عليه عصبة الأمم على ما يلي:

«لا تطبق المواد التالية من صك الإنتداب الفلسطيني على القطر المعروف باسم شرقي الأردن والذي يشمل جميع المقاطعات الواقعة إلى شرق خط يمتد من نقطة واقعة على خليج العقبة على بعد ميلين إلى الغرب من بلدة العقبة، ماراً من منتصف وادي عربة

والبحر الميت ونهر الأردن حتى المنطقة التي يلتقي فيها هذا النهر بنهر اليرموك ثم منتصف هذا النهر حتى الحدود السورية».

انتهت مباحثات الأمير عبد الله مع ونستون تشرشل في 30 آذار/ مارس 1921، ليعود بعدها سموه إلى عمان وليشرع بتشكيل أول حكومة أردنية في الحادي عشر من نيسان/ أبريل عام 1921 برئاسة رشيد طليع وهو درزي، وقد سمي الرئيس حينها باسم «الكاتب الإداري» وسمي المجلس بـ «مجلس المشاورين» الذي تشكل من سبعة أعضاء هم:

رشيد طليع كاتباً إدارياً ورئيس مجلس المشاورين ووكيل الخارجية، الأمير شاكر بن زيد (حجازي) نائب لشؤون العشائر، الشيخ محمد الخضر الشنقيطي قاضي القضاة (حجازي)، مظهر بك رسلان (سوري) مشاور العدلية والصحة والمعارف، علي خلقي بك مشاور الأمن والانضباط، حسن بك الحكيم مشاور المالية، أحمد مريود معاون نائب العشائر.

لقد أسرع الأمير عبد الله بن الحسين في تشكيل هذه الحكومة استعداداً لزيارة المندوب السامي في فلسطين هربرت صموئيل، وقد كانت هذه خطوة دستورية لها أهدافها لإظهار القدرة الأردنية بقيادتها الهاشمية لأن تتحمل مسؤولياتها في ظروف صعبة ودقيقة للغاية.

وفي 17 نيسان/ أبريل 1921 قدم هربرت صموئيل إلى عمان ومعه السكرتير الإداري والمدني وندس ولورنس واللورد إدوارد هاي، وتعتبر هذه أول زيارة لممثل دولة عظمى لهذه الدولة الناشئة التي مضى على وجودها فقط ستة وأربعون يوماً وكحكومة خمسة

عشر يوماً وقد تبادل سمو الأمير، والمندوب السامي الكلمات وجاء في كلمة المندوب السامي:

«كان من دواعي سروري إنني حظيت بمقابلة صاحب السمو الأمير عبد الله بدار الحكومة في القدس بمناسبة زيارته لفلسطين، كما حظيت بمقابلة السير ونستون تشرشل أحد أعضاء الوزارة الإنجليزية.

إن الحكومة البريطانية ترحب بالفرصة السانحة للتعاون في شرقي الأردن مع سمو الأمير عبد الله، الذي لها في حسن نيته وصداقته كل ثقة، وهي تقدر قيمة الصداقة وحسن النية التي تجلت في خلال هذه الحرب الضروس التي دارت رحاها في كل هذه المدة الطويلة، وتعلم الحكومة البريطانية كما تقدر الخدمات التي قدمتها جيوش العرب في ذلك الكفاح وترغب في أن توطد زمن السلم دعائم التحالف الذي بني خلال هذه الحرب».

وكان جواب الأمير عبد الله بكلمة موجزة تلخص فكرة العروبة لهذه الدولة الناشئة حيث قال سموه: «إنني أشكر فخامتكم على خطتكم القومية وأقول بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن الحاضرين إن الأمة العربية ستبرهن على أنها قادرة على تحقيق الآمال التي وضعت فيها وإنها جديرة بكل ما تساعدهم فيه حليفتهم الكبرى».

ـ استقرار الدولة والإستقلال الأول:

رغم أن أحداثاً عديدة قد وقعت في منطقة شرق الأردن استهدفت أمن البلاد واستقرارها إلا أن سمو أمير البلاد استمر في

خطته التي تستهدف تحقيق الإستقلال واستكمال إجراءات الدولة الدستورية، ولهذه الغاية فقد قام سموه وبمعيته الرئيس رضا الركابي بزيارة إلى لندن في 3 تشرين الأول/أكتوبر عام 1922 وعاد في مطلع كانون الثاني/يناير عام 1923، بعد مفاوضات طويلة أسفرت عن مشروع معاهدة أردنية - بريطانية بحيث بقي رئيس مجلس المستشارين لإتمام مراسيم التوقيع عليها وقد تحدث سموه عن زيارته حيث قال: «لا شك أنكم تتطلعون إلى ما ستسمعونه عن رحلتي وإنها والحمد لله فيها كل ما هو مطابق لمصالحكم ورغائبكم، خصوصاً أمر إستقلال منطقتكم فإنه الجزء المهم من سلسلة التشبثات التي ستطلعون على تفاصيلها بعد قدوم دولة رئيس المستشارين المتخلف هناك لإنهاء هذه الأغراض.

وعلاوة على هذا أقول لكم إنني رجعت وكلي رجاء في الوصول بمشيئة الله إلى النتيجة الحسنة فيما رمت إليه النهضة العربية المستندة إلى الآمال القومية وإنني كما قلت للجموع في موقفي هذا عند قدومي إلى هذه المنطقة كما تتذكرون، من أنه لو كانت لي سبعون نفساً فقدمتها كلها في سبيل القومية والوطن لما رأيتني قمت بالواجب». وواصل سموه حديثه: «ولكن لخدمة الوطن وجوهاً ولكل وجه سبباً، وأفضل تلك الوجوه وأسلمها عاقبة أقلها ضرراً، ومع إنني عالم بثقل ولوازم الوطن ومقتضياته ومتاعب الوصول إلى غاياته، أقول إن كل هذه الصعاب ستذلل إن شاء الله بالحكمة القومية والتعقل العبقري اللذين ورثتموهما عن آبائكم مع الاتكال على الله في كل الأحوال».

وأضاف سمو الأمير عبد الله:

«ويحسن بي القول هنا أيضاً إنني قد عدت من هذه الرحلة وأنا مشاهد آثار المودة البريطانية التي سنجني باستمرارها حقائق المنافع المرموقة، وكما إنني عظيم الرجاء في أن الحكومة الفرنسية الفخيمة الموجودة الآن، على الوجه المعلوم بالقسم الشمالي من وطننا المحبوب، لا تحمل حقداً على قوميتنا وقضيتنا وإننا بمشيئة الله سنصل قريباً إلى إسعاد الوطن كله بتعضيد دولتي التحالف الكبيرتين وانكشاف الآمال الشريفة القومية على وجه المطلوب».

وقدّم سموه الشكر في كلمته لأهل البلاد على احترامهم لسيادة الوطن خلال غيابه ولكل الموظفين الذين قاموا بواجباتهم وختم سموه حديثه بقوله: «وهنا أعلن بلسان الصرامة تأكيد عزمي السابق من جعل هذه البلاد دعامة وأمان، ترتاح لحسن إدارتها أقطار محبيها خالية من وجود شكاوي قاطنيها ومجاوريها... وأتعشم إنني أصبت بهذه الصورة ما يرتأيه محبو الوطن وطالبو الخير له.

والله الموفق لما فيه النجاح والمصوب لما فيه السداد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

نورد هنا خطاب سمو أمير البلاد لأنه بحق وثيقة تاريخية تتحدث عن ظروف المفاوضات وأهدافها وبتلك الصيغة البليغة التي كان يتحدث بها سموه، صيغة الشعر والأدب الذي كان لسموه المجالس الخاصة بهما سواء في قصر رغدان وفي المصلى في الغور الأردني.

ومثلما اختط الأردن طريق بناء مؤسسات الدولة فإنه انتقل أيضاً إلى مرحلة إعلان الإستقلال وقد مر ذلك بمرحلتين:

المرحلة الأولى: إعلان الإستقلال في 25 أيار/ مايو 1923.

المرحلة الثانية: اعتراف بريطانيا بهذا الإستقلال بصفتها الدولة المنتدبة بموجب قرار عصبة الأمم المتحدة الصادر بتاريخ 23 أيلول/ سبتمبر 1922، وقد جاء هذا الاعتراف في نهاية شهر تشرين الأول/ أكتوبر 1922.

في 15 أيار/ مايو عام 1923 أقيم حفل رسمي شارك فيه رجالات الأردن وفلسطين وأيضاً السير هربرت صموئيل ومعه الجنرال كلايتون الذي يعمل في المكتب العربي في القاهرة والذي كان له دور كبير خلال عمليات الثورة العربية الكبرى، وقد ألقى سمو أمير البلاد خطبة طويلة استهلها بمقدمة تاريخية عن مجد الأمة العربية وما أصاب هذه الأمة بعد العهد العباسي من تغييب وطمس. . . وهنا يقول سموه: «فوقعت النهضة العربية المباركة على يد من اختاره الله سبحانه وتعالى قواماً لها وقائداً لأمورها. . .».

وتحدث سمو أمير البلاد عن مفاوضاته مع ملك بريطانيا مثمناً اعتراف جلالته بإستقلال هذا القسم من المملكة العربية وإن الحكومة ستشرع بتعديل قانون الانتخاب ووضع القانون الأساسي لشرق الأردن.

وشكر سموه كل الذين ساهموا في إنجاز المعاهدة أو في خطوات الإستقلال وإرساء قواعد الدولة، وخص بالشكر المندوب

السامي في فلسطين وكبير المعتمدين المستر فلبي وتناول فرنسا في حديثه حيث قال:

«إني لآمل أن يكون موقف الدولة الفرنسية الفخيمة تجاه قضيتنا العربية المقدسة وتجاه القسم الشمالي الباقي من وطننا المحبوب آخذ بها إلى عهد جديد كافٍ للدلالة على احترام أبناء الثورة الفرنسية لحرية الأقوام وإستقلالها».

وأضاف سموه عن يوم الإستقلال: «وإني آمل أن يكون هذا اليوم سعيداً للأمة تتخذه عيداً تظهر فيه سرورها وحبورها ومنه تعالى نستمد العون ونسأله أن يطيل بقاء وتوفيق جلالة أمير المؤمنين مولانا الحسين بن علي بن محمد بن عون والله ولي التوفيق».

ولكن هل كان اعتراف بريطانيا بالإستقلال كاملاً، وهذا ما ورد في حديث هربرت صموئيل في نفس المناسبة ويوم الاحتفال عندما نقل تحيات الملك جورج الخامس واستعرض الدور العربي في الحرب العالمية الأولى وإسنادهم للحلفاء، مما كان له أثر كبير في تحقيق الإنتصار، وتناول المعاهدة ما بين بريطانيا والشريف الملك الحسين بن علي والذي قال عنها: «إن المعاهدة تدل على أن النهضة العربية قد دخلت في طور جديد». ولكن ما يهمنا هنا هو حديثه التالي:

«وها نحن نحتفل الآن، بالإتفاق الذي عقد مع سمو الأمير في أثناء زيارته لجلالة الملك جورج والحكومة البريطانية، ولا يخفى عليكم أن الإتفاق ينص على اعتراف حكومة جلالة الملك بوجود حكومة مستقلة في شرق الأردن برئاسة صاحب السمو الأمير

عبد الله بن الحسين، شريطة أن توافق جمعية الأمم على ذلك، وأن تكون حكومة شرق الأردن دستورية، تمكّن جلالة الملك من القيام بتعهداتها الدولية فيما يتعلق بتلك البلاد بواسطة إتفاق يعقد بين الحكومتين».

وأعرب صموئيل عن إعجابه بهذه الدولة الفتية التي شقت طريقها وسط القلاقل والتحديات والاضطرابات سواء من جهة الشرق بالغزوات التي تعرضت لها أو من الشمال من مضايقات الفرنسيين وملاحقتهم للوطنيين خاصة بعد حادثة محاولة اغتيال الجنرال غورو.

لقد استمر الإعمار الداخلي وبناء القوات المسلحة والارتقاء بمؤسسات الدولة الدستورية إلى أن عقدت معاهدة ما بين سمو الأمير عبد الله ابن الحسين وملك بريطانيا الذي فوض المارشال بلوفر حيث وقعت المعاهدة في القدس في العشرين من شباط/ فبراير 1928، وقد تضمنت المعاهدة إحدى وعشرين مادة، ويوجد نص هذه المعاهدة في الجريدة الرسمية «جريدة الشرق العربي» العدد 185 الصادر بتاريخ 26 آذار/ مارس 1928.

ـ بدء الحياة البرلمانية الأردنية:

ولتنظيم شؤون الدولة وإرساء قواعد الديمقراطية، فقد جرت أول انتخابات تشريعية وتبعها افتتاح الدورة الأولى للمجلس التشريعي الأول المنعقد في شرق الأردن يوم السبت الواقع في 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 1929، حيث ألقى سمو الأمير عبد الله خطاب العرش الذي استعرض فيه أحداث الساعة ونقتبس من الخطاب ما يلي:

«لقد حمل إلي فخامة المندوب السامي البريطاني لشرق الأردن في زيارته الأخيرة نص المعاهدة المبرمة من صاحب الجلالة البريطانية مشفوعة بكتاب من فخامته يقول فيه إنه قد أمر أن يحيطنا علماً باعتراف الملك بوجود حكومة مستقلة في شرق الأردن وإنه قد عهد إلينا بالتشريع والإدارة في تلك الإمارة بلا قيد غير التحفظات المنصوص عليها في إتفاقية شرق الأردن وأن يُؤَدّى إلينا ما يُؤدّى للأمراء الملكيين ورؤساء الدول من تحية مألوفة».

وتالياً نص الاعتراف بإستقلال شرق الأردن والذي صدر في 29 تشرين الأول/ أكتوبر 1929.

صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن الحسين المعظم أمير شرق الأردن بعمان:

«وقد أمرت أن أحيط سموكم علماً بأنه بناءً على اعتراف جلالة الملك بوجود حكومة مستقلة في شرق الأردن وبما أنه قد عهد إلى سموكم بالتشريع والإدارة في تلك الإمارة بلا قيد غير التحفظات المنصوص عليها في إتفاقية شرق الأردن، لذلك أعلن صاحب الجلالة موافقته على إطلاق واحد وعشرين مدفعاً تحية لسموكم في الظروف المألوفة وهي التحية التي تؤدى عادة للأمراء المالكين ورؤساء الدول».

وتفضلوا صاحب السمو بقبول خالص احتراماتي

تشانسلور

المندوب السامي لشرق الأردن

وبذلك تحقق إستقلال إمارة شرق الأردن التي كانت تعرف باسم حكومة الشرق العربي في عام 1929 في التاسع والعشرين من شهر تشرين الأول/ أكتوبر.

إن قصة تكوين الدولة الأردنية إنما هي قصة النهضة العربية التي استهدفت إنشاء الدولة العربية التي تنهض بأعباء المسؤولية وتؤكد الشخصية العربية وتعيد العرب إلى غابر مجدهم ليأخذوا مكانهم الصحيح. بينما كان فيصل بن الحسين يغادر الديار العربية لم ينس رغم كل الضغوط والظروف وحدة البلاد العربية على أساس فكر ومبادئ النهضة العربية، فكانت اتصالاته وهو في حيفا إسهاماً فاعلاً في البدء بتشكيل الدولة العربية الأردنية الهاشمية بعدما حصل ما حصل إثر معركة ميسلون، وكان التقدم الهاشمي الجديد نحو بلاد الشام حيث بدأ عبد الله بن الحسين زحفه لتبقى مبادئ النهضة حية ماثلة وليبقى العرب كما هو عهدهم أصحاب إستقلال وسيادة، فكانت خطوات التأسيس في شرق الأردن وكان الإستقلال الذاتي في عام 1923، ثم الإستقلال المعترف به في التاسع والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر 1929.

نشطت إثر هذه التطورات الحركة الديمقراطية في الأردن خاصة بعد أن كفل القانون الأساسي لشرق الأردن الذي صدر في 16 نيسان/ أبريل 1928 وتألف من سبعين مادة في سبعة فصول تناولت حقوق الشعب وواجبات الأمير وحقوقه والتشريع والقضاء والإدارة ونفاذ القوانين والأحكام.

وهنا ظهرت عدة أحزاب منها حزب الإستقلال العربي الذي

تعود نشأته لعام 1921 عندما طلب الأمير عبد الله من رشيد طليع تأليف حزب سياسي، وتشكل حزب «العهد العربي» الذي أعلن أن برنامجه هو على أساس إستقلال جميع البلاد العربية تحت إدارة الملك الحسين بن علي وأنجاله ويعود تأسيسه أيضاً إلى عام 1921 وجمعية الشرق العربي التي دعت إلى إستقلال سوريا بحدودها الطبيعية و«حزب الشعب الأردني» الذي تشكل في عام 1927. وتطور العمل الحزبي ليخرج بالمؤتمر الوطني الأول في مقهى حمدان بعمان في 25 تموز/يوليو 1928 والذي دعا إلى إستقلالية الدولة وحقوق الشعب، هذا المؤتمر الذي انتخب الشيخ حسين الطراونة رئيساً، وتشكل أيضاً الحزب الحر المعتدل والذي تشكّلت إدارته من رفيفان المجالي رئيساً، هاشم خير وسعيد المفتي ومحمد الإنسي ونظمي عبد الهادي وتشكّلت أحزاب أخرى بموجب القانون الأساسي لشرق الأردن مثل «حزب التضامن الأردني» و«الحزب الوطني الأردني» و«حزب الإخاء الأردني» وعقدت مؤتمرات عدة مثل مؤتمر التضامن الإقتصادي الأول وتشكل هذا المؤتمر من شخصيات منهم ماجد العدوان وحمد بن جازي ودليوان المجالي وخليل المدانات وشمس الدين سامي وحديثة الخريشة وراشد الخزاعي ومحمد الفنيش، وقد ناقش المؤتمر موضوع جدولة ديون المزارعين وتوزيع ضريبة الأعشار وغير ذلك.

إن الفترة ما بين توقيع المعاهدة الأردنية ـ البريطانية عام 1923، وحتى فترة إعلان إستقلال الأردن عام 1946 كانت حافلة بالأحداث، عدا عن النشاط السياسي الديمقراطي الحرّ الذي كفله القانون الأساسي لشرق الأردن فقد حدثت بعض القلاقل الداخلية

التي سرعان ما عولجت. ونشبت الثورة الفلسطينية عام 1936 تلك التي وقف الأردنيون معها، هذه الثورة التي رفعت علم الثورة العربية الكبرى شعاراً لها ولا زال علمها حتى الآن.

وبدأت الحرب العالمية الثانية عام 1939 هذه التي كررت أحداث الحرب العالمية الأولى في المنطقة، فاشترك الجيش الأردني بفاعلية فيها، وشاركت قواته في منطقة صحراء العلمين، ودخلت القوات الأردنية إلى سوريا عام 1941 لقتال حكومة فيشي الموالية لدول المحور ووصلت قواته إلى حمص، ودخلت هذه القوات إلى العراق إثر انقلاب رشيد عالي الكيلاني، وأثناء الحرب كانت الاتصالات مع بريطانيا لإعلان الإستقلال التام للدولة الأردنية فكان رد بريطانيا أن انشغالها في الحرب يمنعها حالياً من التفكير في مثل هذه القضايا. وما إن انتهت الحرب حتى طلب الأردن من بريطانيا أن تفي بوعودها. فكان ذلك أولاً بإبرام معاهدة جديدة وقعت بشكل نهائي في 17 حزيران/ يونيو 1946 وقد تألفت من أربع عشرة مادة إضافة لملحق من عشر مواد، وقد نصت المعاهدة على التعاون الثنائي في جميع المجالات وكذلك اعتراف بريطانيا بإستقلال شرقي الأردن، وأن تكون مدة المعاهدة خمسة وعشرين عاماً، وقد أدلى سمو الأمير بتصريح حول المعاهدة لجريدة فلسطين التي كانت تصدر في يافا حينها في 12/ 5/ 1946 يقول فيه: «إنني أعتبر المعاهدة الأردنية ـ الإنكليزية بركة على القطر وخير ما يمكنني الحصول عليه، ولا تقل أهميتها بحال عن أهمية المعاهدات العراقية ـ الإنكليزية، هذا إذا لم تكن خيراً منها».

لقد شهدت البلاد تطورات عديدة منذ نشوء الإمارة، فقد تضاعف حجم الأردن عام 1925 إثر ضم معان والعقبة بعد إتفاقية «جِدّة» الموقعة بتاريخ 25 حزيران/ يونيو 1925، ونشطت حركة المقاومة السورية ونشبت الثورة الفلسطينية ومن ثم نشبت الحرب العالمية الثانية. في ضوء كل هذه الأحداث فإن القيادة الهاشمية لم تنس الواجب القومي ولا الواجب الوطني المؤسس على فكر نهضة العرب، فقد أدلى سمو الأمير عبد الله بتصريح أيضاً لجريدة في يافا قال فيه حينها في 11/ 5/ 1946 «لقد كان هدف والدي بناء عالم عربي موحد، ويجب أن يتألف في سوريا وشرق الأردن وفلسطين دولة واحدة. ولو لم تكن هذه الدولة مقسمة اليوم لكان في مقدورها الدفاع عن نفسها ضد أي عدوان وتحقيق أماني العالم العربي».

لقد كان الأردن أول كيان دستوري عربي يحمل صفات الدولة، وكان هذا البلد النموذج لتكوين الدولة المستقلة، ونقتبس هنا من محضر الإجتماع أثناء لقاء القمة السوري ـ الأردني في عمان بتاريخ 28/ 11/ 1950 الذي ضم إضافة لجلالة الملك عبد الله كلاً من الدكتور ناظم القدسي رئيس وزراء سوريا ومعالي الزعيم فوزي سلو وزير الدفاع السوري حيث قال جلالة الملك عبد الله «إننا نحن آل البيت السبب الأول في رفعة العرب، فمجدهم الأول انبثق من بين يدي محمد صلى الله عليه وسلم ومجدهم الثاني انبثق من لدن باعث الثورة العربية الكبرى، ونحن السبب في إيجاد من نسميهم اليوم بأصحاب جلالة وأصحاب سمو وأصحاب فخامة وغير ذلك».

ونظراً لهذه التطورات فقد التأم المجلس التشريعي الأردني

الخامس في 25 أيار/مايو 1946م تُليت فيه مذكرة رئيس الوزراء المؤرخة في 15 أيار/مايو 1946 التي تؤيد القرار الخاص بإعلان البلاد باسم المملكة الأردنية الهاشمية استناداً لحق تقرير المصير ووعود الأمم المتحدة ونظراً للتضحيات التي قدمها الأردن التزاماً بالمعاهدات والمواثيق، وتالياً نص القرار التاريخي الذي يعلن الأردن باسم المملكة الأردنية الهاشمية. «تحقيقاً للأماني القومية وعملاً بالرغبة العامة التي أعربت عنها المجالس البلدية الأردنية في قراراتها المبلغة إلى المجلس التشريعي، واستناداً إلى حقوق البلاد الشرعية والطبيعية وجهادها المديد وما حصلت عليه من وعود وعهود دولية رسمية، وبناء على ما اقترحه مجلس الوزراء في مذكرته رقم 521 بتاريخ 15/ 5/ 1946. فقد بحث المجلس التشريعي النائب عن الشعب الأردني أمر إستقلال البلاد الأردنية إستقلالاً تاماً على أساس النظام الملكي النيابي، مع البيعة بالملك لسيد البلاد ومؤسس كيانها عبد الله ابن الحسين، كما بحث أمر تعديل القانون الأساسي الأردني على هذا الأساس بمقتضى اختصاصه الدستوري، ولدى المداولة والمذاكرة تقرر بالإجماع الأمور التالية:

أولاً: إعلان البلاد الأردنية دولة مستقلة إستقلالاً تاماً وذات حكومة ملكية وراثية نيابية.

ثانياً: البيعة بالمُلك لسيد البلاد ومؤسس كيانها وريث النهضة العربية عبد الله ابن الحسين بوصفه ملكاً دستورياً على رأس الدولة الأردنية بلقب حضرة صاحب الجلالة (ملك المملكة الأردنية الهاشمية).

ثالثاً: إقرار تعديل القانون الأساسي الأردني طبقاً لما هو مثبت في لائحة قانون تعديل القانون الأساسي الملحق بهذا القرار.

رابعاً: رفع هذا القرار إلى سيد البلاد عملاً بأحكام القانون الأساسي ليوشح بالإرادة السنية حتى إذا اقترن بالتصديق السامي عُد نافذاً حال إعلانه على الشعب، وتولت الحكومة إجراءات تنفيذه مع تبليغ ذلك إلى جميع الدول بالطرق السياسية المرعية.

ـ أول إرادة ملكية سامية:

صادق جلالة الملك المعظم على قرار إعلان الإستقلال مصدّراً أول إرادة ملكية سامية موشحاً القرار بالعبارة التالية:

«متكلاً على الله تعالى أوافق على هذا القرار شاكراً لشعبي واثقاً لحكومتي».

وقد جرى احتفال كبير قدمت فيه وثيقة البيعة بالملك وأُهديَ جلالته مصحفاً شريفاً من رئيس بلدية عمان وألقيت كلمات عدة رد جلالته عليها بقوله:

«إنه لمن نعم الله أن يدرك الشعب بأن التاج معقد رجائه ورمز ومظهر ضميره ووحدة شعوره، بل إنه لأمر الله ووصية رُسُله الكرام أن يطالع الملك بالعدل وخشية الله لأن العدل أساس الملك، ورأس الحكمة مخافة الله، وإننا في مواجهة أعباء ملكنا وتعاليم شرعنا وميزان أسلافنا، المثابرون بعون الله على خدمة شعبنا والتمكين لبلادنا والتعاون مع إخواننا ملوك العرب ورؤسائهم لخير العرب جميعاً ومجد الإنسانية كلها».

وكان من مقررات الدولة الأردنية إعتبار يوم 8 آذار/ مارس عطلة رسمية تأكيداً لاحترام عرش فيصل بن الحسين صاحب أول إستقلال عربي يعلن حينها بموافقة المؤتمر السوري العام. وتقرر استمرار رفع علم سوريا الطبيعية وإقراره دستورياً كتأكيد على واحد من أهم أهداف النهضة العربية الداعي للوحدة العربية.

هكذا كان الإستقلال الأردني الناجز ونترك التفاصيل التي تمتلئ بها الكتب التي تتحدث عنها وتزخر بها المكتبة الأردنية وكذلك مراكز حفظ الوثائق.

لقد تطور الأردن دستورياً وهو يزداد تصميماً على تحقيق الوحدة والحرية والحياة الأفضل والعمل من أجل خدمة القضايا العربية فقد قاتل الجيش العربي في حرب عام 1948 وقدم الشهداء وحافظ على القدس والضفة الغربية وتمكن من إبقائهما لتكون الضفة الغربية أساس الدولة الفلسطينية.

وحقق الأردن أفضل نموذج لوحدة اندماجية في 24 نيسان/ أبريل 1950، عندما أعلن مجلس برلمان الشعب الأردني والفلسطيني الوحدة التامة، ولم يتوان هذا البلد عن الإشتراك في كل الجهود العربية فكان هو صاحب الدعوة لإنشاء مؤسسة القمة العربية التي دعا إليها جلالة الملك الحسين المعظم طيب الله ثراه منذ المؤتمر العربي الأول عام 1964 واكتسب الأردن بفضل قيادته الهاشمية سمعة دولة مميزة جعلته يشارك من خلال قواته المسلحة في عمليات حفظ السلام وواجبات هيئة الأمم المتحدة في مختلف بقاع العالم.

لقد كان هذا البلد دوماً بلد المبادئ والأصالة والوفاء لقيادته الهاشمية المعتز بانتمائه للثرى العربي، هذا البلد الذي يقول عنه جلالة الملك الحسين بن طلال طيب الله ثراه:

«وبلدكم الأردن هذا هو وارث مبادئ الثورة العربية الكبرى في الوحدة والحرية والإستقلال لكل العرب، عاش على ساحة عزيزة من ساحات النضال القومي منذ رفرفت في سمائه بقيادة عبد الله بن الحسين وهو قائد من قادة الثورة العربية الكبرى ومؤسس الأردن، وقد التف حوله وأعانه العديد من رجال الرعيل الأول وأهل السابقة من أبناء الأردن وفلسطين وسوريا ولبنان والعراق والجزيرة العربية وغيرها من ديار العروبة، تجمعهم آمال واحدة وتحدو مسيرتهم غايات واحدة».

في 20 تموز/ يوليو عام 1951، ذهب الملك عبد الله بن الحسين (الأول) إلى القدس ليؤدي صلاة الجمعة في المسجد الأقصى مع حفيده الأمير حسين، وفي طريقه إلى المسجد، تم اغتيال عبد الله بسلاح ناري أطلقه مصطفى شكري عشي، فأرداه قتيلاً على درجات الحرم القدسي.

بعدها توج الابن الأكبر لعبد الله الملك طلال بن عبد الله كخلف لوالده، ولكن خلال عام، أجبر على التنحي بسبب مرض نفسي، فأعلن ابنه الأمير حسين ملكاً على الأردن في 11 آب/ أغسطس عام 1952 وكان عمره آنذاك 16 سنة ولم يكن يبلغ السن القانونية، فشُكّل مجلساً للوصاية على العرش، وتم تتويجه ملكاً في 2 أيار/ مايو عام 1953.

رياض الصُّلح
(1894 ـ 1951)

ـ البداية والنشأة النضالية لرياض الصُّلح:

وُلِد رياض الصُّلح في صيدا عام 1894 لعائلة ظهرت على المسرح السياسي والإقتصادي في جنوبي لبنان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أبوه رضا الصُّلح كان حاكماً للنبطية ثم قائم مقام لصيدا وعضواً في مجلس المبعوثين التركي عن بيروت.

مع اندلاع الحرب الكبرى عام 1914 وجدت تركيا نفسها تُقاتل على جبهتين مع الخارج ضد دول الحلفاء، وفي الداخل ضد الحركات القومية الإستقلالية التي كانت تُهدد بتقسيم أراضي الإمبراطورية وتشتيت قواتها.

في هذه المرحلة كان الصلح يشارك بشكل كبير ومكثف في الحركة السياسية التي برزت في صيدا، وكانت هذه الحركة تدعو العرب إلى أخذ موقف واضح، ألا يدخلوا في الحرب، وأن لا يكونوا ضد العثمانيين.

في ذلك الوقت وصلت معلومات للقائد التركي في سوريا ولبنان إن رياض الصُّلح وعبد الكريم الخليل يعدّان لثورة في جبل عامل، وهذا كان من أسباب اعتقال رياض الصُّلح ونفيه إلى الأستانة بسبب صغر سنه.

وعندما انهزمت تركيا في الحرب العالمية الأولى انضم الصُّلح إلى الأمير فيصل ليشكل أول حكومة عربية في صيدا. بعد شهر من إعلان ولاء الصيداويين لحكومة دمشق العربية دخلت قوات الحلفاء بقيادة الجنرال أللنبي إلى المدينة وبدأت مرحلة نضالية جديدة في حياة رياض الصُّلح ضد الإنتداب الفرنسي.

وانقسم الناس يومئذ في لبنان كما في سوريا أيضاً، وأكثر في سوريا، بأن فريقاً من اللبنانيين تقبّل الإنتداب وكان هنالك فريق آخر يرون أنهم ملزمون ببيعة في أعناقهم للملك فيصل الذي كان أُعلِن ملكاً على سوريا الكبرى ومنها لبنان وفلسطين والأردن واللاذقية وأنطاكيا وكريكيا إلى آخره.

في دمشق التي ارتحل الصلح إليها من صيدا بعد دخول الفرنسيين وسقوط الحكومة العربية كلّفه الأمير فيصل الاتصال بأعضاء مجلس إدارة جبل لبنان حيث ارتبط الصُّلح بعلاقات وثيقة بالزعامات المسيحية.

بعد أن وضعت الحرب الكبرى أوزارها تنكّر الإنكليز لوعودهم بإقامة دولة عربية بزعامة الشريف حسين، وبعد مؤتمر سان ريمو قررت فرنسا فرض إنتدابها على سوريا ولبنان تنفيذاً لإتفاقية سايكس بيكو التقسيمية، جرّد الجنرال سراي حملة عسكرية على سوريا عبر

الأراضي اللبنانية وجرت معركة ميسلون التي أدّت إلى سقوط دمشق بيد الفرنسيين وسلخ أقضية بعلبك والبقاع الغربي وحاصبيا وراشيا عن سوريا وضمها إلى لبنان.

بعد معارك ميسلون سقطت دمشق، وسقطت باقي الأراضي السورية فما كان من مجال أمام الزعماء العرب ومنهم رياض الصُلح إلا التوجه نحو بلد يستطيعون العمل فيه فكانت القاهرة أول محطة لهم.

في مصر تأسس المؤتمر السوري العام، بعدها تأسست منه لجنة مثلت المؤتمر السوري العام في جنيف، وكان الصلح من أعضاء هذه اللجنة مدة أربع سنوات.

وأهمية هذا المؤتمر أنه اعترف لأول مرة بخصوصية لبنانية شرط أن لا تكون مُرتبطة بالاستعمار الفرنسي وتُترك الحرية لهذه الفئات اللبنانية أن تتوحّد مع سوريا، لبنان مع فلسطين ولكن بإرادتها.

في العام 1924 انتقل الصُلح إلى باريس حيث نجح في السيطرة على حركة طلابية كان شكّلها الطلاب اللبنانيون والسوريون هناك، ومع اندلاع الثورة السورية في عام 1925 استنفر الصُلح طاقات اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري ـ الفلسطيني لدعم هذه الثورة، ولم يكتفِ بالعمل عن بعد فذهب إلى سوريا ولكنه اعتُقل ونُفي.

كان دور رياض الصُلح في هذه الثورة تجنيد اليسار الفرنسي لتأييد وحدة بلاد الشام المُتحررة من الفرنسيين وبالتالي تزويد الثورة بالسلاح.

قضى الفرنسيون على ثورة عام 1925 السورية بينما نصَّب البريطانيون فيصل ملكاً على العراق، وأقاموا عبد الله ملكاً على الأردن، وتقرَّبوا من الزعماء السوريين الهاربين من فرنسا. ومع تحقُّق الهدوء في سوريا عام 1928 سمحت السلطات الفرنسية لرياض الصُّلح بالعودة إلى لبنان.

عام 1928 كان له تصريحه الشهير الذي يقول فيه: «إنني أفضل أن أكون في دولة لبنانية مستقلة في كيانية لبنانية مستقلة على أن لا أكون في إمبراطورية عربية تحت سلطة الاستعمار».

في العام 1935 اعتقل المفوض الفرنسي رياض الصُّلح ووضعه في الإقامة الجبرية في القامشلي، أقصى شرقي سوريا، نجح رياض في الهرب وعاد سرّاً إلى بيروت ليتوجه بعد ذلك إلى باريس ويلعب دوراً أساسياً في إنجاز معاهدتي 1936 بين فرنسا وكلاً من سوريا ولبنان.

في بداية المفاوضات لم يكن رياض الصُّلح ضمن الوفد، وكانت المفاوضات جدية وفيها أخذ وعطاء، وعندما يقع السوريون في مشكلة يطلعوا الفرنسيين عليها ولكن دون إعطاء الحلول لها، فيذهبوا حينها إلى رياض الصلح ليأخذوا منه الحلول، ويقول لهم ما يجب أن يعملوا، فانتبه الفرنسيون إلى ذلك، وعلموا أن رياض الصلح هو مرجعهم في المفاوضات، فأصروا حينها على حضور الصلح المباحثات.

ـ دور رياض الصُّلح في إستقلال لبنان:

بعد الاعتراف السوري بالكيان اللبناني احتدم الصراع بين سلطات الإنتداب الفرنسي والشارع اللبناني بشأن الوصول إلى إستقلال تام عن فرنسا، وفيما واصل الفرنسيون تضييق الخناق على الوطنيين انفجر الصراع داخل البيت اللبناني بين فئة تؤيِّد الحماية الفرنسية وفئة أخرى تطالب بالإستقلال التام، هذا التنافس استمر حتى موعد انتخابات عام 1943 حيث تخلَّى الصُّلح عن صديقه التاريخي إميل إدة وتحالف مع بشارة الخوري ذو التوجه العربي.

إميل إدة لم يكن يستطيع أن يخرج عن الخط الذي رسمه لنفسه، لأنه لا يمكن أن يكون هناك كيانية لبنانية بمعزل عن الوجود الفرنسي، من هذه النظرة اتخذ بشارة الخوري هذا الموقف مع مجموعة من القيادات اللبنانية آنذاك وهو بالدخول إلى العالم العربي وإقامة علاقات جيدة معه. والذي كان يُشجع هذه الحالة هو النحَّاس باشا في مصر وأيضاً البريطانيون، الذين كانوا يقصدون إخراج فرنسا من بلاد الشام أو بالأحرى من سوريا ولبنان.

فازت الكتلة الدستورية في الاستحقاق الانتخابي في عام 1943 وانتخب بشارة الخوري رئيساً للجمهورية. كلَّف الخوري الصُّلح بتشكيل الحكومة. وبعد وضع أسس الميثاق الوطني عمدت حكومة الصُّلح إلى تعديل الدستور وإلغاء جميع المواد التي تعترف بالإنتداب الفرنسي في لبنان، أسرعت السلطات الفرنسية إلى اعتقال أعضاء الحكومة ورئيس الجمهورية. ونزل اللبنانيون إلى الشوارع مطالبين بإطلاق سراح المعتقلين وتحقيق الإستقلال التام.

بعد نجاحه في خوض معركة المصالح المشتركة مع الفرنسيين وخوض معركة الإستقلال قرر الصُّلح دعم إعادة انتخاب بشارة الخوري رئيساً للجمهورية لدورة ثانية. تحضيراً للانتخابات الرئاسية جنَّدت الدولة اللبنانية كل أجهزتها لتزوير أول انتخابات نيابية تُجرى بعد الإستقلال عام 1947 لمنع فوز مرشحي المعارضة المتمثلة بـ«الكتلة الوطنية» و«الحزب السوري القومي الإجتماعي».

وباتت انتخابات العام 1947 مضرب المثل على التزوير في الانتخابات السياسية الديمقراطية.

في الثاني من آذار/ مارس عام 1947 زحفت حشود السوريين القوميين الإجتماعيين لاستقبال قائدهم العائد بعد اغتراب قسري دام نيفاً وثماني سنوات لقيادة رفقائه في الصراع في سبيل تحقيق مطلبهم الأسمى.

يقول قائد السوريين القوميين الإجتماعيين: «نقف اليوم أمة حية. وأنقذتم شرف الأمة وحيدين. رجالكم القائدون والنهضة في السجون مُكبلين، ولكن رؤوسهم مرتفعة وإرادتهم ثابتة وعزيمتهم صادقة لا يضنون هماً، ولا يوقعون شيئاً يدل على تراجع قيد شعرة. ها هو موقف الأمة لا غيره».

بعد عودته من الأرجنتين أشرف أنطون سعادة على إعادة تنظيم حزبه وتحصينه، ورأى في قرار تقسيم فلسطين عام 1947 المدخل لفضح الأنظمة العربية التي ساهمت في ضياع الأراضي المحتلة. دعوات سعادة لقتال الحركات الصهيونية وإرساله عشرات القوميين إلى أرض المواجهة أخاف السلطات اللبنانية وبدأ كل فريق يُعد العدة للانقضاض على الآخر.

شكّلت عودة الزعيم أنطون سعادة إلى الوطن حدثاً حزبياً وحدثاً قومياً بإمتياز، وألقى الزعيم خطاب العودة الذي دعا فيه السوريين القوميين الإجتماعيين إلى العودة إلى ساحة الجهاد القومي وإلى التمسك بالمبادئ القومية الإجتماعية التي وضعها وناضل من أجلها الحزب.

الاختلاف الأول بين رياض الصُلح والقوميين كان اختلاف على العقيدة، رياض الصُلح كان مؤمناً بلبنان وبالعالم العربي، وكان قومياً بإمتياز، القوميين كان عندهم سوريا.. سوريا الكبرى من ضمن سوريا يعني قبرص والهلال الخصيب، وهذا الشيء يتنافى مع قضية الوطن اللبناني.

نتجت عن نكبة فلسطين عام 1948 تداعيات على المستوى العربي، كان أبرزها الانقلاب الذي نفّذه الضابط السوري حسني الزعيم في الحادي والثلاثين من آذار/ مارس عام 1949 ضد الرئيس شكري القوتلي الصديق الحميم لرياض الصُلح بحجة تقويم الأوضاع تجاه القضية الفلسطينية.

هذا الانقلاب دفع العلاقات بين بيروت ودمشق نحو التأزُّم بسبب التهديدات التي أصدرها قائد الانقلاب الجديد ضد لبنان، في أواخر نيسان/ أبريل عام 1949 زار رئيس الحكومة اللبنانية رياض الصُلح دمشق والتقى رئيسها حسني الزعيم حيث اتفقا على وضع حد للفتور في العلاقات الشخصية بينهما.

ـ دور الصُّلح في القضاء على معارضة أنطون سعادة:

تهيَّأت الفرصة للسلطة اللبنانية في اشتباكات الجميزة في التاسع من حزيران/ يونيو عام 1949 بين حزبي «الكتائب» و«القومي» ورأت أن السبيل بات مُمهدا للخلاص من خطر أنطون سعادة وحزبه. لم يصمد الحزب القومي وقتاً طويلاً أمام هجوم حكومة الصُّلح، وعلى الرغم من إحتلاله لبعض المراكز العسكرية فإن السلطة أطبقت على أعضاء الحزب وشلَّت حركتهم ما دفع بأنطون سعادة للفرار إلى سوريا للاحتماء برئيسها حسني الزعيم.

حمَّل القوميون رياض الصُّلح مسؤولية إعدام قائدهم واتهموه بأنه وراء تسليم سعادة للبنان مستغلاً علاقاته برئيس الوزراء السوري محسن البرازي والملك عبد الله وملك مصر فاروق الذين مارسوا ضغوطاً وحسب وجهة نظر القوميين على حسني الزعيم لتسليمه للسلطات اللبنانية.

حوكم أنطون سعادة محاكمة غير عادلة، وأكبر غلطة ارتكبها رياض الصُّلح أنه قبل أن تكون المحاكمة في هذا الشكل، ولم يكن الصلح وحده المسؤول.

تعرض رياض الصلح لمحاولة اغتيال باءت بالفشل، وفي الليلة نفسها عقد مجلس أمن الدولة اللبنانية إجتماعاً استثنائياً قرر خلاله اعتقال كل الذين شاركوا في التخطيط لاغتيال رياض الصُّلح، حُكِم على توفيق حمدان ـ المُلقَّب بأبو رافع والذي أطلق النار على الصُّلح ـ بالإعدام وعلى رفاقه الثلاثة بأحكام متفاوتة، لكن رئيس الوزراء اللبناني رياض الصُّلح تدخَّل لدى رئيس

الجمهورية بشارة الخوري لإبدال حكم الإعدام بحكم أخف.

ويقول توفيق حمدان: «أبوي كان رجال ختيار ويمكن بعدها فيه المشاعر الطائفية رغم إنو قومي يعني تكاثروا وتجمَّعوا رجال الدين وكذا وراحوا لعند رياض الصُّلح. رياض الصُّلح قال لأبوي أنا صَافِط حقي ما أقيم دعوى. أنا حقي الشخصي صَافطه، إنما الحق العام».

ـ انتقال الصلح إلى صفوف المعارضة:

تراكم الخلافات بين رياض الصُّلح وبشارة الخوري دفعت رئيس الحكومة إلى تقديم استقالته في الرابع عشر من شباط/ فبراير من عام 1951 مُختتماً عهد التعاون المستمر بين الرجلين منذ الإستقلال، وانتقل الصُّلح إلى صفوف المعارضة.

ـ نهاية الطريق:

في 16 تموز/ يوليو من عام 1951 استشهد رئيس الحكومة الإستقلالي ورجل الدولة البارز رياض الصلح، وهو الذي كان قبل نشوء الكيان اللبناني أحد أبرز المناضلين القوميين العرب، وله صفحات ناصعة عن العطاء القومي على مستوى مساحة الوطن العربي، ومن العطاء على المستوى الوطني اللبناني.

وكان الرئيس الصلح قد استقال من رئاسة الحكومة في 14 شباط/ فبراير 1951، منهياً بذلك رحلة طويلة مع الحكم، ومع الرئيس الإستقلالي الأول بشارة الخوري، معتبراً أن الإستقلال قد تم، وأن مهمته قد انتهت.

أما على الصعيد القومي فكان يشعر بالمرارة من جراء اغتصاب فلسطين، وإعطاء الجزء الآخر لملك الأردن الملك عبد الله.

في ذاك العام (1951)، زار ملك الأردن لبنان، وأبدى رغبة في مقابلة رياض الصلح، لكن هذا الأخير ترك بيروت مغادراً إلى إحدى القرى الجنوبية، هرباً من تلك الزيارة، وبعد أسبوع أرسل الملك عبد الله رسولاً خاصاً إلى رياض الصلح يدعوه إلى زيارة الأردن، لكنه اعتذر. وفي نهاية شهر حزيران/يونيو 1951 اتصل الملك عبد الله شخصياً برياض الصلح مصراً على حضوره إلى عمان لأمر بالغ الخطورة، لأن هناك أموراً وطنية خطيرة، سيفرح لها قلب رياض الصلح لدى اطلاعه عليها.

وفعلاً توجه الصلح في 13 تموز/يوليو إلى عمان يرافقه الدكتور نسيب البربير ومرافقه الخاص عبد العزيز العرب والصحافيان بشارة مارون ومحمد شقير. وفور وصوله اختلى الملك عبد الله بالصلح في قصر بسمان، وفي اليومين عقدت بين الرجلين 3 جلسات أحيطت بالكتمان، وكشف الصلح عن جانب من هذه المحادثات في اتصال مع عائلته عشية عودته إلى بيروت، مشيراً بالقول: غداً نلتقي وتسمعون مني أشياء تفرحون وتسعدون بها، إن لكم عندي بشرى يسعد بها ولها كل عربي.

بعد ظهر الاثنين في 16 تموز/يوليو نزل رياض الصلح من غرفته في فندق فيلادلفيا للعودة إلى بيروت، فاندفع إليه أحد الأشخاص وصافحه، حيث تبين للجميع أن لا أحد يعرفه بتاتاً.

وسار موكب الصلح من الفندق إلى المطار، وعند محطة سكة الحديد اندفعت سيارة في داخلها 3 أشخاص فتجاوزت الموكب، وانطلقت منها الأعيرة النارية على رياض الصلح، فأودت بحياته، وتبادل مرافق رياض النار مع المهاجمين فقتل أحدهم، ويدعى مخايل الديك تبين أنه الشخص الذي اندفع في الفندق لمصافحة المغدور، وأصيب المهاجم الثاني ويدعى محمود أديب صلاح بجراح، فيما فر المهاجم الثالث ويدعى اسبيرو حداد إلى معسكر بريطاني، حيث تولى الإنكليز تهريبه إلى البرازيل، أما بالنسبة لصلاح، فقد توفي لاحقاً في المستشفى في ظروف غامضة ومريبة.

وأمام هذا الواقع المأساوي طرحت تساؤلات عدة ما زالت حتى الآن من دون أجوبة:

- لم يتوصل التحقيق الذي أجري إلى معرفة مدبري الجريمة؟
- مقتل الجاني فوراً من قبل حراس الملك؟
- لماذا إلحاح الملك على استدعاء رياض الصلح إلى عمان؟
- لماذا غادر رئيس وزراء الأردن إلى بيروت في صباح اليوم الذي اغتيل فيه رياض الصلح وتحديداً قبل تنفيذ عملية الاغتيال بساعات؟
- كيف توفي الجاني في المستشفى مع أن إصابته لم تكن قاتلة؟
- كيف هرب الجاني الثالث إلى البرازيل؟
- لماذا لم يبادر المرافق العسكري الأردني في سيارة رياض الصلح إلى إطلاق النار على القتلة فور اعتراض سيارتهم للموكب؟

إلى هذه التساؤلات، يبقى لافتاً أن الملك عبد الله اغتيل بعد 4 أيام من اغتيال رياض الصلح.

وثمة تساؤلات عديدة أخرى تبقى مطروحة عن سبب هذا الاغتيال، وخصوصاً ما له علاقة بالبعد القومي وما له علاقة بالتطورات الداخلية في لبنان. فقد تأكد أن استدعاء رياض الصلح من قبل الملك عبد الله، لإبلاغه باعتباره رجل ثقة عن مشروع يجري العمل له وهو إقامة نوع من الإنماء بين الأردن والعراق، وكما يؤكد الصحافي الراحل محمد شقير، فإن الملك عبد الله اختار رياض الصلح لإقناع العرب بهذا المشروع، نظراً لما للصلح من مكانة واحترام لدى معظم القادة العرب آنئذٍ.

وهناك اجتهادات أخرى ترى أن الضابط الإنكليزي غلوب باشا، الذي كان مسؤولاً في الجيش الأردني، هو المخطط لعملية الاغتيال مع بعض المسؤولين في الأردن اعتراضاً على مسعى الصلح لوحدة العراق والأردن وربما سوريا، كما يقال أن رياض الصلح أبلغ الملك عبد الله بضرورة طرد غلوب باشا وجميع الضباط الإنكليز من الجيش الأردني.

أما على المستوى اللبناني، فكان اغتيال رياض الصلح يعني نهاية زعيم إسلامي ووطني كبير، قادر على ضبط وإقناع الشارع، وهذا ما أبرزته التطورات التي حدثت بعد سنة واحدة من اغتياله، حيث فرض على الرئيس بشارة الخوري الاستقالة في نصف ولايته الثانية، بضغط مباشر من بريطانيا، أو ما كان يطلق عليه الرئيس بشارة الخوري على سبيل التفكه «الحق على الطليان».

سميرة موسى
(1917 ـ 1952)

محطة القطار التي لم نصل إليها أكثر إثارة من المحطة التي طويناها.. والمرأة التي لم تأت أجمل من المرأة التي أتت.. والشخصية التي لم نكتب عنها أشد غموضاً من الشخصية التي كتبنا عنها.. فالجديد هو السحر الطازج الذي لم نتوصل إليه.. ولو كان المعلوم أهم من المجهول لبقيت الدنيا على حالها.. متنقلة بين ظلام الكهف وفروع الشجر.. إن السندباد ليس حالة جغرافية فقط.. وإنما هو حالة نفسية وسياسية وعلمية وعاطفية وإجتماعية أيضاً. لسنوات طوال ظلت الدكتورة سميرة موسى شخصية محاطة بالغموض.

ولدت سميرة موسى في 3 آذار/مارس من العام 1917، في قرية سنبو الكبرى ـ مركز زفتى في محافظة الغربية. سميرة موسى عليان الابنة الرابعة لوالدها الذي عزم على ألا يفرق في التعليم بين بناته السبع وأبنائه الذكور الذين رزق بهم بعد ذلك. في السنة الثانية من عمرها جاءت ثورة عام 1919 لتنادي بحرية الوطن.. وفتحت سميرة عينيها على أهالي قريتها الذين يجتمعون باستمرار في دار الحاج

موسى يناقشون الأمور السياسية المستجدة ويرددون شعارات الإستقلال الغالية، هيأ هذا المناخ لسميرة أن تصاغ امرأة وطنية تعتز بمصريتها وعروبتها دائماً.. وعندما شبت فتاة يافعة.. وجدت تياراً آخر ينادي بحرية تعليم المرأة.. في جميع مراحل التعليم.. كان من قياداته صفية زغلول، وهدى شعراوي، ونبوية موسى، وغيرهن، إلا أن هذا التيار أثر تأثيراً غير مباشر على تقدم سميرة في علمها... وضحى والدها الحاج موسى بكثير من التقاليد السائدة ليقف إلى جانب ابنته حتى تكمل مسيرتها... وسط تشجيع من حوله بالاهتمام بهذه النابغة وكان من حسن طالعها أنها ولدت في مناخ ثورة ليبرالية غيرت وجه الحياة في مصر.. هي ثورة 1919. وهي ثورة لم تأت بالبرلمان والدستور والأحزاب وحرية الصحافة فقط.. وإنما جاءت بأفكار مساواة المرأة بالرجل.. وحقها في الاختيار والتعليم أيضاً.. فقد جاءت الثورة بدستور 1923 الذي نص لأول مرة على أن التعليم الأولي إلزام للجنسين دون تفرقة.. وبعد عامين، أي في العام 1925 عرفت قريتها أول مدرسة إبتدائية.. وهو أيضاً العام الذي عرفت فيه مصر الجامعة بكل ما جاءت به من تغيرات.. كانت سميرة هي أول من دخلت المدرسة.. ولا جدال أنه لولا هذا المناخ لبقيت سميرة موسى فلاحة مصرية متواضعة.. لا هم لها سوى تربية الدواجن.. وإنجاب الأطفال.. وما كانت قد فتحت باب التعليم على مصراعيه لكل من جاء بعدها في أسرتها.. وهم يحفظون لها هذا الجميل.. ويفخرون بالانتماء إليها. وقد كانت ثورة 1919 أقرب إليها من حبل الوريد.. فهي من قرية سنبو الكبرى ـ اسم فرعوني يعني الساحة الكبيرة ـ والقرية تتبع إلى مركز

زفتى. . وزفتى دخلت التاريخ بإعلان جمهوريتها المستقلة عن مصر في أيام الثورة. . وقد تحولت إلى أسطورة بطلها يوسف الجندي. . ثم راحت الأسطورة تتسع حتى أصبحت من حق كل شخص في المركز. كان الأب موسى علي أبو سويلم مثل أي فلاح مصري. . يحلم بالولد عندما جاءته سميرة. . . لتكون رابع بناته. . لكنه تقبلها وقبلها. . وفيما بعد منحه الله الولد. . فقد كانت ذريته. . سبع بنات وولدان. . ولكن شخصية الأب هي الشخصية المفتاح في حياة سميرة. . . فهو رجل مسموع الكلمة بين أهله. . عاشق للفن والشعر، يهوى السياسة ولا يحترفها. . كان من المقربين من السياسي الشهير ـ الذي لا يزال يثير الجدل حتى الآن ـ إسماعيل صدقي الذي كان نائباً عن الدائرة في البرلمان. . بل إن الأب كان يوصف بأنه «بسمارك» وهو نفس الوصف الذي كان يوصف به إسماعيل صدقي.

وهناك رواية أصبحت أسطورة بنيت عليها حياة سميرة موسى. . هي أنه بعد وفاة سعد زغلول جاء الأب بجريدة نشرت نعيه. . وراحت سميرة تقرأ النعي الذي كان يشمل الجريدة كلها. . وفي اليوم التالي طلب مدرسها سيد البكري أن تقرأ النعي على تلاميذ الفصل. . لكنها قالت له: لماذا أقرأ الجريدة. . أستطيع أن أقول ما فيها دون الحاجة إليها، فقد حفظتها. . وذهل المدرس. . وطلب من الأب أن يأخذ ابنته إلى القاهرة ليرعى نبوغها قبل أن يدفن في طين الريف. . واستجاب الأب. . وأخذ ابنته ورحل إلى العاصمة لتبدأ سميرة مشوارها إلى القمة. ولا أشكك في هذه الواقعة. . الكثير لم يصدقوا أن الأب قرر أن يغير حياته خوفاً على عبقرية

ابنته. . لكن علينا التصديق بأن المناخ الليبرالي السائد فتح شهية الناس على التغيير إلى الأفضل. ومن ثم كان رحيل الأب من قريته الصغيرة إلى القاهرة. . وتغيير مهنته من صاحب أطيان إلى صاحب دكان هو استجابة لطموح شخصي. . حتى لو كان الحافز المباشر حافزاً نبيلاً هو رعاية عبقرية ابنته. . ولو كانت الأسطورة بكاملها حقيقية فيكون الأب هو الشخص الذي يستحق التكريم والتقدير. . إنه مثال الأب في قصة جابرييل جارسيا ماركيز الذي ماتت ابنته الطاهرة قبل أن تصبح قديسة. . فراح يلف ويدور على كل الرهبان ورجال الدين بكل مستوياتهم ورتبهم الكهنوتية حتى أقنعهم بعد سنوات من الصبر والعذاب بمنح ابنته لقب قديسة. . وقبل أن يسلمه كبير الأساقفة اللقب قال له: في الحقيقة أنت القديس. فلولا الأب ما كانت ابنته قديسة. . ولولا الأب ما كانت سميرة موسى عالمة ذرة تعرف أكثر مما يجب. . وتدفع حياتها ثمناً لذلك. . إن العبقرية أو الموهبة في حاجة لحماية ورعاية. . فلا شيء ابن الصدفة أو ابن السهولة. . لا شيء يأتي بالحظ أو باليانصيب. . أو يهبط علينا كمائدة من السماء. . فمن رحم الصبر والحلم والدأب والمعاناة والشغل تخرج الأشياء الخالدة. . ولابد من مناخ عام يدعم ذلك. . يعطي الموهوب فرصته. . لا أن يقتله لو مد بموهبته قامته. . فعندما يتحول المجتمع إلى كتيبة إعدام للموهوبين فإنه في الحقيقة يكون كمن يطلق النار على نفسه وينتحر.

انتقل الحاج موسى مع ابنته إلى القاهرة من أجل تعليمها. . واشترى ببعض أمواله فندقاً في الحسين حتى يستثمر أمواله في الحياة القاهرية. التحقت سميرة بمدرسة «قصر الشوق» الإبتدائية

ثم بمدرسة «بنات الأشراف» الثانوية الخاصة والتي قامت على تأسيسها وإدارتها نبوية موسى حصدت الطالبة سميرة الجوائز الأولى في جميع مراحل تعليمها، فقد كانت الأولى على شهادة التوجيهية عام 1935، ولم يكن فوز الفتيات بهذا المركز مألوفاً في ذلك الوقت حيث لم يكن يسمح لهن بدخول امتحانات التوجيهية إلا من المنازل حتى تغير هذا القرار عام 1925 بإنشاء مدرسة «الأميرة فايزة»، أول مدرسة ثانوية للبنات في مصر. وقد كان لتفوقها المستمر أثر كبير على مدرستها، حيث كانت الحكومة تقدم معونة مالية للمدرسة التي يخرج منها الأول، دفع ذلك ناظرة المدرسة نبوية موسى إلى شراء معمل خاص حينما سمعت يوماً أن سميرة تنوي الانتقال إلى مدرسة حكومية يتوفر فيها معمل. ويذكر عن نبوغها أنها قامت بإعادة صياغة كتاب الجبر الحكومي في السنة الأولى الثانوية، وطبعته على نفقة أبيها الخاصة، ووزعته مجاناً على زميلاتها عام 1933.

لقد ألّفت سميرة موسى كتاباً في الجبر وكان عمرها 16 سنة. . سمته «الجبر الحديث» أهدته إلى أستاذها محمد أفندي حلمي. . وطبع منه أبوها 300 نسخة على حسابه الخاص. والغريب في أمر هذه الشابة أنها طلبت من والدها بعد وقت قليل من دخولها سن المراهقة أن يطبع لها كتاباً في الرياضيات أو الفيزياء أو يطبع لها ديوان شعر أو مجموعة قصص قصيرة. . ما الذي يمكن أن يقول لها أفضل من المطالبة بأن تنتبه لدروسها. . وتترك هذا الكلام الفارغ الذي لا يأتي من ورائه إلا الصداع. والأب لم يكن وحده الذي تولى رعاية موهبة ابنته. . لقد دخلت سميرة مدرسة تديرها

المربية الشهيرة نبوية موسى. . ولكنها سرعان ما فكرت في تركها لأنها تريد معملاً والمدرسة ليس فيها معمل. . فكان أن بنت لها نبوية موسى معملاً، ووظفت أفضل مدرسي العلوم من أجلها.

ـ الحلم الكبير يتحقق:

اختارت سميرة موسى كلية العلوم لتحقيق حلمها الذي كانت تصبو إليه، رغم أن مجموع علاماتها كان يؤهلها لدخول كلية الهندسة. . حينما كانت أغلى أمنية لأي فتاة هي الالتحاق بكلية الآداب. لبست سميرة الرداء الأبيض ودخلت معامل الكلية شغوفة لتحصيل العلم، وهناك لفتت نظر أستاذها الدكتور علي مشرفة، أول مصري يتولى عمادة كلية العلوم. كان د. علي مشرفة البطل الثاني في حياة سميرة موسى حيث تأثرت به تأثراً مباشراً، ليس فقط من الناحية العلمية. . بل أيضاً بالجوانب الإجتماعية في شخصيته التي أثرت في صياغة عبقرية سميرة موسى هي الدكتور علي مصطفى مشرفة. . الذي ولد في دمياط في 11 تموز/يوليو 1898 وحصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة «توتنجهام»، ثم عاد إلى انجلترا ليحصل على الدكتوراه في العلوم. في عطلة الصيف بعد أن رفض الانجليز أن يسافر في إجازة من عمله، وعندما فتحت الجامعة أبوابها حصل على وظيفة أستاذ في كلية العلوم، وفي العام 1926 انتخب عميداً للكلية، وبعد حوالي 10 سنوات أصبحت سميرة موسى تلميذته.

حصلت سميرة على بكالوريوس العلوم وكانت الأولى على دفعتها، وعينت كأول معيدة بكلية العلوم وذلك بفضل جهود

د. علي الذي دافع عن تعيينها بشدة وتجاهل احتجاجات الأساتذة الأجانب، وعلى رأسهم الإنجليزي آيرز.

ولكن الكلية رفضت أن تعينها معيدة. . فهي سابقة لم تحدث أن تكون فتاة عضو في هيئة التدريس في الجامعة. . وهنا برز دور الأستاذ الذي يمنح الموهبة والحماية والرعاية ولا يكتفي فقط بسرد مناهج صماء لا علاقة لما يقوله فيها بما يفعله في الحياة. . لقد جن جنون الدكتور مشرفة. ووضع استقالته على مكتب مدير الجامعة إذا لم تعين سميرة موسى في المكان الذي تستحقه. لا يمكن المقارنة بين ما فعله الدكتور مشرفة مع تلميذته سميرة موسى وما فعله بعض أساتذة قسم علم النفس في آداب عين شمس الذين باعوا تلميذتهم الدكتورة آمال كمال وادعوا أنهم لم يقرأوا رسالة الدكتوراه التي منحوها عليها درجتها العلمية بمرتبة الشرف، وكان ذلك خوفاً وضعفاً من هجوم إحدى صحف الحوادث على جزء من الرسالة. . لا أحد منهم وقف بشجاعة يدافع عن قراره. وباعوا التلميذة في أول فرصة، إن التلميذ العظيم في حاجة إلى أستاذ عظيم.

وسافرت سميرة موسى إلى بريطانيا وحصلت على شهادة الماجستير في موضوع التواصل الحراري للغازات، وخلال تواجدها في بريطانيا درست الإشعاع النووي، وحصلت على الدكتوراه في الأشعة السينية وتأثيرها على المواد المختلفة. أنجزت الرسالة في سنتين وقضت السنة الثالثة في أبحاث متصلة وصلت من خلالها إلى معادلة هامة تمكن من تفتيت المعادن الرخيصة مثل النحاس. . الذرة

من أجل السلام مع الأسف الشديد.. لم تدون الكتب العلمية العربية الأبحاث التي توصلت إليها د. سميرة موسى، لقد كانت تأمل أن يكون لمصر والوطن العربي مكان وسط هذا التقدم العلمي الكبير، حيث كانت تؤمن بأن زيادة ملكية السلاح النووي يسهم في تحقيق السلام، فإن أي دولة تتبنى فكرة السلام لا بد وأن تتحدث من موقف قوة فقد عاصرت الدكتورة سميرة ويلات الحرب وتجارب القنبلة الذرية التي دكت هيروشيما وناكازاكي في العام 1945، ولفت انتباهها الاهتمام المبكر من إسرائيل بامتلاك أسلحة الدمار الشامل.. وسعيها للانفراد بالتسلح النووي في المنطقة. حيث قامت بتأسيس هيئة الطاقة الذرية بعد ثلاثة أشهر فقط من إعلان الدولة الإسرائيلية عام 1948 وحرصت على إيفاد البعثات للتخصص في علوم الذرة فكانت دعواتها المتكررة إلى أهمية التسلح النووي، ومجاراة هذا المد العلمي المتنامي.

إن الرعاية التي عرفتها جعلتها ترد الجميل لوطنها. ولأن الدكتوراه كانت في خصائص امتصاص المواد لأشعة أكس، فقد أطلق المصريون على سميرة موسى لقب «مس كوري المصرية»، وكتب أحد أساتذتها في جامعة «بدفورد» في تقريره العلمي الذي أرسله إلى الجامعة في القاهرة: «إن تجارب سميرة موسى قد تغير وجه الإنسانية لو وجدت المعونة الكافية». ولكن سميرة موسى لم تنتظر المعونة الكافية بل راحت تقدم خبرتها وعلمها لمساعدة مرضى السرطان في مستشفى قصر العيني. وكثيراً ما كان أهل المرضى يظنون أنها ممرضة.. ولم يكن ذلك يضايقها، فهي تريد أن تنفذ شعارها الذي آمنت به وهو أن يكون العلاج بالراديوم

كالعلاج بالأسبرين. ولم تتوقف سميرة موسى عند حجة نقص الإمكانيات وطلبت من الأب بأن يبني لها معملاً. وبالفعل اشترى الأب فداناً من الأرض على طريق الهرم لبناء المعمل.. لكن القدر وأنصار الظلام لم يمهلوها الوقت الكافي لدخوله.. فقد سافرت في منحة إلى الولايات المتحدة.. وهناك طلبوا منها وألحوا عليها أن تبقى.. وأن تحصل على الجنسية.. وأن تنفرد بمعمل حديث يكون لها.. لكنها رفضت أن تبيع وطنها بكل مغريات الآخرين وأصرت على العودة..

عملت د. سميرة على إنشاء هيئة الطاقة الذرية.. وتنظيم مؤتمر الذرة من أجل السلام الذي استضافته «كلية العلوم» وشارك فيه عدد كبير من علماء العالم. لقد كانت تأمل أن تسخِّر الذرة لخير الإنسان وتقتحم مجال العلاج الطبي حيث كانت تقول: «أمنيتي أن يكون علاج السرطان بالذرة مثل الأسبرين»، ونزلت متطوعة للخدمة في مستشفيات القصر العيني للمساعدة في علاج المرضى مجاناً.

إن سميرة موسى كانت عضواً في كثير من اللجان العلمية المتخصصة على رأسها «لجنة الطاقة والوقاية من القنبلة الذرية» التي شكّلتها وزارة الصحة المصرية. وكانت د. سميرة مولعة بالقراءة، وحرصت على تكوين مكتبة كبيرة متنوعة تم التبرع بها إلى «المركز القومي للبحوث»، حيث الأدب والتاريخ وخاصة كتب السير الذاتية للشخصيات القيادية المتميزة. أجادت استخدام النوتة والموسيقى وفن العزف على العود، كما نمّت موهبتها الأخرى في فن التصوير

بتخصيص جزء من بيتها للتحميض والطبع. . وكانت تحب الحياكة وتقوم بتصميم وحياكة ملابسها بنفسها. شاركت سميرة موسى في جميع الأنشطة الحيوية حينما كانت طالبة بكلية العلوم. انضمت إلى ثورة الطلاب في تشرين الثاني/نوفمبر عام 1935 والتي قامت احتجاجاً على تصريحات اللورد البريطاني صمويل، وشاركت في مشروع القرش لإقامة مصنع محلي للطرابيش. وكان د. علي مشرفة من المشرفين على هذا المشروع، وشاركت في «جمعية الطلبة للثقافة العامة» والتي هدفت إلى محو الأمية في الريف المصري، بالتعاون مع «جماعة النهضة الإجتماعية»، والتي هدفت إلى تجميع التبرعات لمساعدة الأسر الفقيرة، كما انضمت أيضاً إلى «جماعة إنقاذ الطفولة المشردة»، وإنقاذ الأسر الفقيرة. تأثرت سميرة موسى بإسهامات العرب الأوائل، متأثرة بأستاذها أيضاً د.علي مشرفة ولها مقالة عن محمد الخوارزمي ودوره في إنشاء علوم الجبر. ولها عدة مقالات أخرى من بينها مقالة مبسطة عن الطاقة الذرية، أثرها وطرق الوقاية منها شرحت فيها ماهية الذرة من حيث تاريخها وبنائها، وتحدثت عن الانشطار النووي وآثاره المدمرة. وخواص الأشعة وتأثيرها البيولوجي.

وقد أوضحت جانباً من فكرها العلمي في مقالة: «ما ينبغي علينا نحو العلم» حيث حثت الدكتورة سميرة الحكومات على أن تفرد للعلم المكان الأول في المجتمع، وأن تهتم بترقية الصناعات وزيادة الإنتاج والحرص على تيسير المواصلات. كما كانت دعوتها إلى التعاون العلمي العالي على أوسع نطاق.

سافرت سميرة موسى إلى بريطانيا ثم إلى أميركا، ولم تنبهر ببريقها أو تنخدع بمغرياتها. ففي خطاب إلى والدها قالت: «ليست هناك في أميركا عادات وتقاليد كتلك التي نعرفها في مصر، يبدأون كل شيء ارتجالياً.. فالأميركان خليط من مختلف الشعوب، كثيرون منهم جاؤوا إلى هنا لا يحملون شيئاً على الإطلاق فكانت تصرفاتهم في الغالب كتصرف زائر غريب يسافر إلى بلد يعتقد أنه ليس هناك من سوف ينتقده لأنه غريب».

استجابت الدكتورة إلى دعوة للسفر إلى أميركا في العام 1951، أتيحت لها فرصة إجراء بحوث في معامل جامعة «سان لويس» بولاية ميسوري الأميركية، تلقت عروضاً لكي تبقى في أميركا لكنها رفضت بقولها: «ينتظرني وطنٌ غالٍ يسمى مصر»، وقبل عودتها بأيام استجابت لدعوة لزيارة معامل نووية في ضواحي كاليفورنيا في 15 آب/أغسطس، لكن قراراً سرياً كان قد صدر بأن لا تعود.. وإذا عادت فلتعد جثة هامدة في تابوت. كان ذلك في آب/أغسطس 1952 في ذلك الوقت كان العالم لا يزال مرعوباً ومحروقاً بإشعاع القنبلة الذرية التي ألقيت على هيروشيما ونكازاكي.. وفي ذلك الوقت أيضاً كان الإسرائيليون يخشون السلطة الثورية الجديدة التي استولت على الحكم في مصر قبل حوالي 3 أسابيع فقط من قتل سميرة موسى.

إن كل هذه التغيرات ساهمت في سرعة التخلص من سميرة موسى، ومن كل عالم يمكن أن يؤمن لبلاده قنبلة نووية. ويمكن أن نعتبر سميرة موسى أولى الضحايا في مسلسل دموي شرس راح

ضحيته 146 عالم ذرة في دول العالم الثالث في الفترة من عام 1959 إلى عام 1985، وعلى رأسهم الهند وباكستان وجنوب أفريقيا ومصر، حسب إحصائيات «وكالة الطاقة الذرية» في فيينا . . وحسب نفس المصدر فإن 98٪ من الضحايا قتلوا خارج بلادهم ولم يعرف الجناة، و92٪ تلقوا عروضاً للعمل في دول أكثر تقدماً في البحث العلمي من بلادهم ولكنهم رفضوا، ونصفهم على الأقل مات بالرصاص، أما النصف الآخر فقد قتل بوسائل متنوعة، سم، حادث سيارة، تفجير بيته عن بعد. وفي معظم الحالات لم تطلب دول الضحايا تحقيقاً أو تعويضاً بل كانت تفضل عدم الكشف عن الجناة ولا فتح القضايا لأسباب بدت فيها السياسة الخارجية أكثر تأثيراً عليها من السياسة الداخلية.

فعلى طريق كاليفورنيا الوعر المرتفع ظهرت سيارة نقل فجأة لتصطدم بسيارة سميرة موسى بقوة وتلقي بها في وادٍ عميق، فقفز سائق السيارة واختفى إلى الأبد. دفعت سيارتها بقوة من الخلف فسقطت في الهاوية. وكان واضحاً أن السائق المدرب كان يعرف بما سيحدث . . فقد قفز من السيارة في الوقت المناسب، والظاهر أنه كان يحمل اسماً مستعاراً. كما أن إدارة المفاعل لم تبعث بأحد لاصطحابها. أين سيارة النقل التي ظهرت في طريقها؟ . . ومن كان فيها؟ أين ما توصلت إليه الشرطة الأميركية؟ ولماذا قيدت القضية ضد مجهول؟ . . أين؟ . أين؟ هل ماتت سميرة ميتة عادية أم أنه حادث اغتيال؟ أم أن مطاردة علماء الذرة المصريين والعرب خطة إسرائيلية ـ أميركية قديمة. خطة فيها الاختيار واضحاً قاطعاً . . الهجرة من بلادهم أو الموت، وقد اختارت سميرة موسى الوطن،

فكان أن عادت إليه جثة محنطة في تابوت. . وإن وضعت فيه بكامل أناقتها عاد جثمانها إلى مصر. لكن بقي علمها وعقلها هناك، في هوة سحيقة لا تعرف الرحمة.

نُشر الخبر في آخر صفحة من جريدة «المصري» في 19 آب/أغسطس عام 1952. أعلن هذا الخبر وفاة الدكتورة سميرة موسى عالمة الذرة من قرية سنبو الكبرى، مس كوري الشرق. . أول معيدة في «كلية العلوم» في «جامعة فؤاد الأول» «جامعة القاهرة» حالياً.

قال المتحدث باسم السفارة المصرية في واشنطن في ذاك اليوم: «إن الآنسة سميرة موسى علي الطالبة المصرية التي تتلقى العلم في الولايات المتحدة قُتلت في حادث سيارة بعد أن أتمت دراستها في جامعة «أوكردج» بولاية تنيسي الأميركية».

هكذا غربت شمس هذه العالمة الجليلة في 15 آب/أغسطس عام 1952. سُلمت إلى والدها مفكرة سوداء صغيرة كانت تسجل فيها خواطرها، وكانت آخر ما خطته فيها ثم غربت الشمس.

جوزيف ستالين
(1879 ـ 1953)

القائد الثاني للإتحاد السوفييتي. ففي فترة توليه السلطة، قام بقمع وتصفية خصومه السياسيين بل وشمل القمع والتصفية كل من كانت تحوم حوله الشكوك. قام بنقل الإتحاد السوفييتي من مجتمع فلاحي إلى مجتمع صناعي مما مكن الإتحاد السوفييتي من الإنتصار على دول المحور في الحرب العالمية الثانية.

ـ طفولته وبداية حياته:

وُلد ستالين عام 1879 في مدينة جوري في جمهورية جورجيا لإسكافي يدعى بيسو، وأم فلاحة تدعى إيكاترينا. وكان بيسو يضرب ستالين بقسوة في طفولته علماً أن الضرب القاسي في تلك الفترة للأولاد كان شائعاً لتعليم الأولاد. ترك بيسو عائلته ورحل وأصبحت أم ستالين بلا معيل! وعندما بلغ ستالين 11 عاماً، أرسلته أمه إلى المدرسة الروسية المسيحية الأرثوذوكسية ودرس فيها حتى بلوغه 20 سنة. عادت بداية مشاركة ستالين مع الحركة الإشتراكية إلى فترة المدرسة الأرثوذوكسية والتي قامت بطرده من على مقاعد الدراسة في العام 1899 لعدم حضوره في الوقت المحدّد لتقديم

الاختبارات. ومن ذاك الوقت، انتظم ستالين ولفترة 10 سنوات في العمل السياسي الخفي وتعرض للاعتقال، بل والإبعاد إلى مدينة سيبيريا بين الأعوام 1902 إلى 1917. اعتنق ستالين المذهب الفكري لفلاديمير لينين، وتأهّل لشغل منصب عضو في اللجنة المركزية للحزب البلشفي في العام 1912. وفي العام 1913، تسمّى بالاسم ستالين وتعني الرجل الفولاذي.

تقلّد ستالين منصب المفوّض السياسي للجيش الروسي في فترة الحرب الأهلية الروسية وفي فترة الحرب الروسية البولندية، وتقلّد أرفع المناصب في الحزب الشيوعي الحاكم والدوائر المتعددة التابعة للحزب. وفي العام 1922، تقلّد ستالين منصب الأمين العام للحزب الشيوعي وحرص ستالين أن يتمتع منصب الأمين العام بأوسع أشكال النفوذ والسيطرة. بدأ القلق يدبّ في لينين المحتضر من تنامي قوة ستالين، ويُذكر أن لينين طالب بإقصاء الوقح ستالين (كما سماه) في أحد الوثائق إلا أن الوثيقة تمّ إخفاؤها من قِبل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي.

بعد ممات لينين في كانون الثاني/يناير عام 1924، تألّفت الحكومة من الثلاثي: ستالين، وكامينيف، وزينوفيف. وفي فترة الحكومة الثلاثية، نبذ ستالين فكرة الثورة العالمية الشيوعية لصالح الإشتراكية المحلية مما ناقض بفعلته مبادئ تروتسكي المنادية بالشيوعية العالمية. تغلب ستالين على الثنائي كامينيف وزينوفيف وأصبح القائد الأوحد بعدما كانت الحكومة ثلاثية الأقطاب، وتم ذلك في عام 1928.

ـ أثر ستالين في تغيير الإتحاد السوفييتي:

بالرغم من المصاعب التي واجهها ستالين في تطبيق الخطة الخمسية للنهوض بالإتحاد السوفييتي، إلا أن الإنجازات الصناعية أخذت بالنمو بالرغم من قلة البنى التحتية الصناعية والتجارة الخارجية. فقد تفوّق معدل النمو الصناعي الروسي على كل من ألمانيا في فترة النهضة الصناعية الألمانية في القرن التاسع عشر كما فاقت غريمتها اليابانية في أوائل القرن العشرين.

تمكّن ستالين من توفير السيولة اللازمة لتمويل مشاريعه الطموحة عن طريق التضييق على المواطن السوفييتي في المواد الأساسية.

فرض ستالين على الإتحاد السوفييتي نظرية الزراعة التعاونية. وتقوم النظرية على استبدال الحقول الزراعية البدائية التي تعتمد على الناس والحيوانات في حرث وزراعة الأرض بحقول زراعية ذات تجهيزات حديثة كالجرّارات الميكانيكية وخلافه. وكانت الحقول الزراعة في الإتحاد السوفييتي في عهد ستالين من النوع الأول البدائي.

نظرياً، من المفترض أن يكون الرابح الأول من الزراعة التعاونية هو الفلاح، إذ وعدته الحكومة بمردود يساوي مقدار الجهد المبذول. أمّا بالنسبة للإقطاعيين، فكان هلاكهم على يد الزراعية التعاونية. فكان يفترض بالإقطاعيين بيع غلاتهم الزراعية إلى الحكومة بسعر تحدده الحكومة نفسها! كان من السهل جداً طرح أي نظرية من النظريات ولكن الزراعة التعاونية ناقضت نمط من أنماط التجارة كان يمارس لقرون مضت. فلاقت الزراعة التعاونية

معارضة شديدة من قبل الإقطاعيين والفلاحين ووصلت المعارضة إلى حد المواجهات العنيفة بين السلطة والفلاحين.

حاول ستالين ثني الفلاحين عن عنادهم باستخدام القوات الخاصة في إرغام الفلاحين على الدخول في برنامجه الزراعي التعاوني إلا أن الفلاحين فضّلوا نحر ماشيتهم على أن تؤخذ منهم عنوة لصالح البرنامج الزراعي التعاوني، مما سبب أزمة في عملية الإنتاج الغذائي ووفرة المواد الغذائية.

قام ستالين بتوجيه أصابع الاتهام إلى الفلاحين الذين يملكون حقول زراعية ذات الحجم المتوسط ونعتهم بالرأسماليين الطفيليين وأنهم سبب شحّ الموارد الغذائية. وأمر ستالين بإطلاق النار على كل من يرفض الانضمام إلى برنامجه الزراعي أو النفي إلى مناطق بعيدة في الإتحاد السوفييتي.

لعل المحزن في عملية الشد والجذب بين الحكومة والفلاحين فيما يتعلق بالبرنامج الزراعي التعاوني هو نتيجته، فقد أجمع الكثير من المؤرّخين أن سبب المجاعة التي ألمّت بالإتحاد السوفييتي بين الأعوام 1932 و1933 هو نحر الفلاحين لماشيتهم والتي راح ضحيتها ما يقرب من 5 ملايين روسي في وقت كان فيه الإتحاد السوفييتي يصدّر ملايين الأطنان من الحبوب لشتى أنحاء العالم!

ـ الخدمات الإجتماعية:

اهتمت حكومة ستالين بالخدمات الإجتماعية اهتماماً ملحوظاً وجنّدت الأطقم الطبية والحملات لمكافحة الأمراض السارية مثل

الكوليرا والملاريا وزادت من عدد الأطباء في المراكز الطبية ومراكز التدريب لتأهيل الأطقم الطبية، ولا ننسى الجانب التعليمي الذي بدوره ازدهر وقلّت الأمية السوفييتية وتوفرت فرص عمل كثيرة وبخاصة فرص العمل النسائية.

ـ التصفيات الجسدية:

بوصول ستالين للسلطة المطلقة في العام 1930، عمل على إبادة أعضاء اللجنة المركزية البلشفية وأعقبها بإبادة كل من يعتنق فكراً مغايراً لفكره أو من يشك ستالين بمعارضته. وتفاوتت الأحكام الصادرة لمعارضي فكره فتارة ينفي معارضيه إلى معسكرات الأعمال الشاقة، وتارة يزجّ بهم في السجون، وأخرى يتم فيها إعدامهم بعد إجراء محاكمات هزلية، بل وحتى أنه لجأ إلى الاغتيالات السياسية. تم قتل الآلاف من المواطنين السوفييت وزج آلاف آخرين في السجون لمجرد الشك في معارضتهم لستالين ومبادئه الأيديولوجية!

رتب ستالين لعقد المحاكمات الهزلية في العاصمة موسكو لتكون قدوة لباقي المحاكم السوفييتية. فكانت المحاكم الهزلية غطاءً سمجاً لتنفيذ أحكام الإبعاد أو الإعدام بحق خصوم ستالين تحت مظلّة القانون! ولم يسلم تروتسكي، رفيق درب ستالين من سلسلة الاغتيالات الستالينية إذ طالته اليد الستالينية في منفاه في المكسيك عام 1940 بعد أن عاش في المنفى منذ العام 1936 ولم يتبق من الحزب البلشفي غير ستالين ووزير خارجيته مولوتوف بعد أن أباد ستالين جميع أعضاء اللجنة الأصلية.

ـ الترحيل القسري:

بعد الحرب العالمية الثانية بقليل، قام ستالين بترحيل مليون ونصف المليون سوفييتي إلى سيبيريا وجمهوريات آسيا الوسطى. وكان السبب الرسمي هو إما تعاونهم مع القوات النازية الغازية أو معاداتهم للمبادئ السوفييتية! والمُعتقد أن سبب الترحيل الجماعي هو التطهير العرقي لكي يتسنى لستالين من إيجاد توازن إثني في الجمهوريات السوفييتية.

ـ الوفيات:

تم إعدام مليون نسمة بين الأعوام 1935 ـ 1938 والأعوام 1945 ـ 1950 وتم ترحيل الملايين ترحيلاً قسرياً! في 5 آذار/مارس 1940، قام ستالين بنفسه بالتوقيع على صكّ إعدام 25,700 من المثقفين البولنديين ومن بينهم 14,700، من أسرى الحرب، وقضى على 30,000 ـ 40,000 من المساجين فيما يعرف بمذبحة المساجين. ويتفق المؤرخون على أن ضحايا الإعدامات والإبعاد وكذلك المجاعات السوفييتية تقدّر بـ 8 إلى 20 مليون قتيل! وأحد التقديرات تقول إن ضحايا ستالين قد يصلون إلى 50 مليون ضحية. ويظل عدد الضحايا في الحقبة الستالينية ضرب من التقدير لعدم ورود أرقام رسمية سوفييتية أو روسية بعدد ضحايا تلك الحقبة.

ـ الحرب العالمية الثانية:

بعد توقيع إتفاقية تنص على عدم الاعتداء بين الإتحاد السوفييتي وألمانيا النازية بعامين، قام هتلر بغزو الإتحاد السوفييتي ولم يكن

ستالين متوقعاً للغزو الألماني. فكان ستالين تواقاً لكسب الوقت ليتسنى له بناء ترسانته العسكرية وتطويرها إلا أن هتلر لم يترك الإتحاد السوفييتي يؤهل نفسه عسكرياً. وتمكّن الألمان من جني الإنتصارات العسكرية في بداية غزوهم للإتحاد السوفييتي نتيجة ضعف خطوط الدفاع السوفييتية الناتجة عن إعدام ستالين لكثير من جنرالات الجيش الأحمر. وتكبد الإتحاد السوفييتي خسائر بشرية فادحة في الحرب العالمية الثانية، إذ كان الألمان يحرقون القرى السوفييتية عن بكرة أبيها. وتقدّر خسائر الإتحاد السوفييتي البشرية في الحرب العالمية الثانية من 21 إلى 28 مليون نسمة!

- نهايته:

في الأول من آذار/ مارس عام 1953، وخلال مأدبة عشاء بحضور وزير الداخلية السوفييتي بيريا وخوروشوف وآخرون، تدهورت حالة ستالين الصحية ومات بعدها بأربعة أيام. تجدر الإشارة إلى أن المذكرات السياسية لمولوتوف والتي نُشرت في العام 1993 تقول أن الوزير بيريا تفاخر لمولوتوف بأنّه عمد إلى دسّ السم لستالين بهدف قتله.

جمال عبد الناصر
(1918 ـ 1970)

ولد جمال عبد الناصر في 15 كانون الثاني/يناير 1918 في 18 شارع قنوات في حي باكوس الشعبي بالإسكندرية.

كان جمال عبد الناصر الابن الأكبر لعبد الناصر حسين الذي ولد في عام 1888 في قرية بني مرّ في صعيد مصر في أسرة من الفلاحين، ولكنه حصل على قدر من التعليم سمح له بأن يلتحق بوظيفة في مصلحة البريد بالإسكندرية، وكان مرتَّبه لا يكفي لسداد ضرورات الحياة.

التحق جمال عبد الناصر بروضة الأطفال بمحرم بك في الإسكندرية، ثم التحق بالمدرسة الإبتدائية في الخطاطبة عامي 1923 ـ 1924.

وفى عام 1925 دخل عبد الناصر مدرسة النحاسين الإبتدائية في حي الجمالية بالقاهرة وأقام عند عمه خليل حسين في حي شعبي لمدة ثلاث سنوات، وكان جمال يسافر لزيارة أسرته بالخطاطبة في العطلات المدرسية. وفي الإجازة الصيفية في العام 1926، علم أن والدته قد توفيت قبل ذلك بأسابيع ولم يجد أحد الشجاعة لإبلاغه

بموتها، ولكنه اكتشف ذلك بنفسه بطريقة هزت كيانه ـ كما ذكر لدافيد مورغان مندوب صحيفة «الصنداي تايمز» ـ ثم أضاف: لقد كان فقد أمي في حد ذاته أمراً محزناً للغاية، أما فقدها بهذه الطريقة فقد كان صدمة تركت فيَّ شعوراً لا يمحوه الزمن. وقد جعلتني آلامي وأحزاني الخاصة في تلك الفترة أجد مضضاً بالغاً في إنزال الآلام والأحزان بالغير في مستقبل السنين.

وبعد أن أتم جمال السنة الثالثة في مدرسة النحاسين بالقاهرة، أرسله والده في صيف 1928 إلى جده لأمه، فقضى السنة الرابعة الإبتدائية في مدرسة العطارين بالإسكندرية.

التحق جمال عبد الناصر في عام 1929 بالقسم الداخلي في مدرسة حلوان الثانوية وقضى فيها عاماً واحداً، ثم نقل في العام 1930 إلى مدرسة رأس التين الثانوية بالإسكندرية بعد أن انتقل والده إلى العمل في مصلحة البوسطة هناك (والذي يعرف اليوم بوزارة البريد).

وفي تلك المدرسة تكوَّن وجدان جمال عبد الناصر القومي، ففي عام 1930 استصدرت وزارة إسماعيل صدقي مرسوماً ملكياً بإلغاء دستور 1923 فثارت مظاهرات الطلبة تهتف بسقوط الاستعمار وبعودة الدستور.

ويحكي جمال عبد الناصر عن أول مظاهرة اشترك فيها: «كنت أعبر ميدان المنشية في الإسكندرية حين وجدت اشتباكاً بين مظاهرة لبعض التلاميذ وبين قوات من البوليس، ولم أتردد في تحديد موقفي، فلقد انضممت على الفور إلى المتظاهرين، دون أن أعرف

أي شيء عن السبب الذي كانوا يتظاهرون من أجله، ولقد شعرت أنني في غير حاجة إلى سؤال، لقد رأيت أفراداً من الجماهير في صدام مع السلطة، واتخذت موقفي دون تردد في الجانب المعادي للسلطة.

ومرت لحظات سيطرت فيها المظاهرة على الموقف، لكن سرعان ما جاءت إلى المكان الإمدادات، فرقة من رجال البوليس لتعزيز القوة، وهجمت علينا جماعتهم، وأذكر أنني - وفي محاولة يائسة - ألقيت حجراً، لكنهم أدركونا في لمح البصر، وحاولت أن أهرب، لكن حين التفت هوت على رأسي عصا من عصي البوليس، تلتها ضربة ثانية حينها سقطت على الأرض، ثم شحنت إلى الحجز والدم يسيل من رأسي مع عدد من الطلبة الذين لم يستطيعوا الإفلات.

ولما كنت في قسم البوليس، أخذوا يعالجون جراح رأسي، سألت عن سبب المظاهرة، فعرفت أنها مظاهرة نظمتها جماعة «مصر الفتاة» في ذلك الوقت للاحتجاج على سياسة الحكومة.

وقد دخلت السجن تلميذاً متحمساً، وخرجت منه مشحوناً بطاقة من الغضب»[1].

التحق جمال عبد الناصر في العام 1933 بمدرسة النهضة الثانوية بحي الظاهر بالقاهرة، واستمر في نشاطه السياسي فأصبح رئيس إتحاد مدارس النهضة الثانوية.

---

(1) حديث عبد الناصر مع دافيد مورغان مندوب صحيفة «الصنداي تايمز» في 18 حزيران/ يونيو 1962.

كذلك اهتم بالإنتاج الأدبي العربي فكان معجباً بأشعار أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، وقرأ عن سيرة النبي محمد ﷺ وعن أبطال الإسلام وكذلك عن مصطفى كامل، كما قرأ مسرحيات وروايات توفيق الحكيم خصوصاً رواية «عودة الروح» التي تتحدث عن ضرورة ظهور زعيم للمصريين يستطيع توحيد صفوفهم ودفعهم نحو النضال في سبيل الحرية والبعث الوطني.

لقد شهد عام 1935 نشاطاً كبيراً للحركة الوطنية المصرية التي لعب فيها الطلبة الدور الأساسي مطالبين بعودة الدستور والإستقلال، ويكشف خطاب من جمال عبد الناصر إلى صديقه حسن النشار في 4 أيلول/ سبتمبر 1935 مكنون نفسه في هذه الفترة، فيقول: «. . . لقد انتقلنا من نور الأمل إلى ظلمة اليأس ونفضنا بشائر الحياة واستقبلنا غبار الموت، فأين من يقلب كل ذلك رأساً على عقب، ويعيد مصر إلى سيرتها الأولى يوم أن كانت مالكة العالم. أين من يخلق خلفاً جديداً لكي يصبح المصري الخافت الصوت الضعيف الأمل الذي يطرق برأسه ساكناً صابراً على اهتضام حقه ساهياً عن التلاعب بوطنه، يقظاً عالي الصوت عظيم الرجاء رافعاً رأسه يجاهد بشجاعة وجرأة في طلب الإستقلال والحرية[1]. . . »

وبعد ذلك بشهرين وفور صدور تصريح صموئيل هور ـ وزير الخارجية البريطانية ـ في 9 تشرين الثاني/ نوفمبر 1935 معلناً رفض بريطانيا لعودة الحياة الدستورية في مصر، اندلعت مظاهرات الطلبة

(1) خطاب عبد الناصر لحسن النشار. . . 4 أيلول/ سبتمبر 1935.

والعمال في البلاد، وقاد جمال عبد الناصر في 13 تشرين الثاني/ نوفمبر مظاهرة من تلاميذ المدارس الثانوية واجهتها قوة من البوليس الإنكليزي فأصيب جمال بجرح في جبينه سببته رصاصة مزقت الجلد ولكنها لم تنفذ إلى الرأس، وأسرع به زملاؤه إلى دار جريدة «الجهاد» التي تصادف وقوع الحادث بجوارها ونشر اسمه في العدد الذي صدر صباح اليوم التالي بين أسماء الجرحى[1].

وتحت الضغط الشعبي وخاصة من جانب الطلبة والعمال صدر مرسوم ملكي في 12 كانون الأول/ ديسمبر 1935 بعودة دستور 1923.

وقد انضم جمال عبد الناصر في هذا الوقت إلى وفود الطلبة التي كانت تسعى إلى بيوت الزعماء تطلب منهم أن يتحدوا من أجل مصر، وقد تألفت بالفعل الجبهة الوطنية سنة 1936 على أثر هذه الجهود.

كان من نتيجة النشاط السياسي المكثف لجمال عبد الناصر في هذه الفترة الذي رصدته تقارير البوليس أن قررت مدرسة النهضة فصله بتهمة تحريضه الطلبة على الثورة، إلا أن زملاءه ثاروا وأعلنوا الإضراب العام وهددوا بحرق المدرسة فتراجع ناظر المدرسة عن قراره.

بدأ الوعي العربي القومي يتسلل إلى تفكير جمال عبد الناصر منذ كان طالباً في المرحلة الثانوية، فكان يخرج مع زملائه كل عام

---

(1) مجلة «الجهاد» 1935.

في الثاني من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر احتجاجاً على وعد بلفور الذي منحت به بريطانيا لليهود وطناً في فلسطين على حساب أصحابه الشرعيين.

لما أتم جمال عبد الناصر دراسته الثانوية وحصل على البكالوريا في القسم الأدبي قرر الالتحاق بالجيش. ولقد أيقن بعد التجربة التي مر بها لاحقاً في العمل السياسي واتصالاته برجال السياسة والأحزاب التي أثارت اشمئزازه منهم، أن تحرير مصر لن يتم بالخطب بل يجب أن تقابل القوة بالقوة والإحتلال العسكري بجيش وطني.

تقدم جمال عبد الناصر إلى الكلية الحربية فنجح في الكشف الطبي ولكنه سقط في كشف الهيئة، لأنه حفيد فلاح من بني مر وابن موظف بسيط لا يملك شيئاً، ولأنه اشترك في مظاهرات 1935، ولأنه لا يملك واسطة.

ولما رفضت الكلية الحربية قبول جمال، تقدم في أكتوبر 1936 إلى كلية الحقوق في جامعة القاهرة، ومكث فيها ستة أشهر إلى أن عقدت معاهدة 1936 واتجهت النية إلى زيادة عدد ضباط الجيش المصري من الشباب، بصرف النظر عن طبقتهم الإجتماعية أو ثروتهم، فقبلت الكلية الحربية دفعة في خريف 1936 وأعلنت وزارة الحربية عن حاجتها لدفعة ثانية، فتقدم جمال مرة ثانية للكلية الحربية ولكنه توصل إلى مقابلة وكيل وزارة الحربية اللواء إبراهيم خيري الذي أعجب بصراحته ووطنيته وإصراره على أن يصبح ضابطاً، فوافق على دخوله في الدورة التالية، أي في آذار/ مارس 1937.

لقد وضع جمال عبد الناصر أمامه هدفاً واضحاً في الكلية الحربية وهو أن يصبح ضابطاً ذا كفاية، وأن يكتسب المعرفة والصفات التي تسمح له بأن يصبح قائداً، وفعلاً أصبح رئيس فريق، وأسندت إليه منذ أوائل 1938 مهمة تأهيل الطلبة المستجدين الذين كان من بينهم عبد الحكيم عامر. وطوال فترة الكلية لم يوقع على جمال أي جزاء، كما رقي إلى رتبة أومباشي طالب.

تخرج جمال عبد الناصر من الكلية الحربية بعد مرور 17 شهراً، في شهر تموز/ يوليو 1938، فقد جرى استعجال تخريج دفعات الضباط في ذلك الوقت لتوفير عدد كافٍ من الضباط المصريين لسد الفراغ الذي تركه انتقال القوات البريطانية إلى منطقة قناة السويس.

التحق جمال عبد الناصر فور تخرجه بسلاح المشاة ونقل إلى منقباد في الصعيد، وقد أتاحت له إقامته هناك أن ينظر بمنظار جديد إلى أوضاع الفلاحين وبؤسهم. وقد التقى في منقباد بكل من زكريا محيي الدين وأنور السادات.

وفى عام 1939 طلب جمال عبد الناصر نقله إلى السودان، فخدم في الخرطوم وفي جبل الأولياء، وهناك قابل زكريا محيي الدين وعبد الحكيم عامر. وفي أيار/ مايو 1940 رقي إلى رتبة ملازم أول.

لقد كان الجيش المصري حتى ذلك الوقت جيشاً غير مقاتل، وكان من مصلحة البريطانيين أن يبقوه على هذا الوضع، ولكن بدأت تدخل الجيش طبقة جديدة من الضباط الذين كانوا ينظرون إلى مستقبلهم في الجيش كجزء من جهاد أكبر لتحرير شعبهم.

وقد ذهب جمال إلى منقباد تملؤه المثل العليا، ولكنه ورفاقه أصيبوا بخيبة الأمل فقد كان معظم الضباط عديمي الكفاءة وفاسدين، ومن هنا اتجه تفكيره إلى إصلاح الجيش وتطهيره من الفساد.

في نهاية عام 1941 بينما كان رومل يتقدم نحو الحدود المصرية الغربية عاد جمال عبد الناصر إلى مصر ونقل إلى كتيبة بريطانية تعسكر خلف خطوط القتال بالقرب من العلمين.

ويذكر جمال عبد الناصر: «في هذه المرحلة رسخت فكرة الثورة في ذهني رسوخاً تاماً، أما السبيل إلى تحقيقها فكانت لا تزال بحاجة إلى دراسة، وكنت يومئذ لا أزال أتحسس طريقي إلى ذلك، وكان معظم جهدي في ذلك الوقت يتجه إلى تجميع عدد كبير من الضباط الشبان الذين أشعر أنهم يؤمنون في قراراتهم بصالح الوطن، فبهذا وحده كنا نستطيع أن نتحرك حول محور واحد هو خدمة هذه القضية المشتركة».

رقي جمال عبد الناصر إلى رتبة اليوزباشي (نقيب) في 9 أيلول/ سبتمبر 1942. وفى 7 شباط/ فبراير 1943 عين مدرساً بالكلية الحربية. ومن قائمة مطالعاته في هذه الفترة يتضح أنه قرأ لكبار المؤلفين العسكريين من أمثال ليدل هارت وكلاوزفيتز، كما قرأ مؤلفات الساسة والكتاب السياسيين مثل كرومويل وتشرشل. وفي هذه الفترة كان جمال عبد الناصر يعد العدة للالتحاق بمدرسة أركان الحرب.

وفي 29 حزيران/ يونيو 1944 تزوج جمال عبد الناصر من تحية محمد كاظم ـ ابنة تاجر من أصل إيراني ـ كان قد تعرف إلى عائلتها

عن طريق عمه خليل حسين، وقد أنجب ابنتيه هدى ومنى وثلاثة أبناء هم خالد وعبد الحميد وعبد الحكيم. لعبت تحية دوراً هاماً في حياته خاصة في مرحلة الإعداد للثورة واستكمال خلايا تنظيم الضباط الأحرار، فقد تحملت أعباء أسرته الصغيرة ـ هدى ومنى ـ عندما كان في حرب فلسطين، كما ساعدته في إخفاء السلاح حين كان يدرب الفدائيين المصريين للعمل ضد القاعدة البريطانية في قناة السويس في 1951 ـ 1952.

ـ تنظيم الضباط الأحرار:

شهد عام 1945 انتهاء الحرب العالمية الثانية وبداية حركة الضباط الأحرار، ويقول جمال عبد الناصر في حديثة إلى دافيد مورغان: «لقد ركزت حتى 1948 على تأليف نواة من الناس الذين بلغ استياؤهم من مجرى الأمور في مصر مبلغ استيائي، والذين توفرت لديهم الشجاعة الكافية والتصميم الكافي للإقدام على التغيير اللازم. وكنا يومئذ جماعة صغيرة من الأصدقاء المخلصين نحاول أن نخرج مثلنا العليا العامة في هدف مشترك وفي خطة مشتركة».

وعقب صدور قرار تقسيم فلسطين في أيلول/ سبتمبر 1947 عقد الضباط الأحرار إجتماعاً واعتبروا أن اللحظة جاءت للدفاع عن حقوق العرب ضد هذا الانتهاك للكرامة الإنسانية والعدالة الدولية، واستقر رأيهم على مساعدة المقاومة في فلسطين.

وفى اليوم التالي ذهب جمال عبد الناصر إلى مفتي فلسطين الذي كان لاجئاً يقيم في مصر الجديدة فعرض عليه خدماته وخدمات جماعته الصغيرة كمدربين لفرقة المتطوعين وكمقاتلين

معها. وقد أجابه المفتي بأنه لا يستطيع أن يقبل العرض دون موافقة الحكومة المصرية، وبعد بضعة أيام رفض العرض، فتقدم عبد الناصر بطلب إجازة حتى يتمكن من الانضمام إلى المتطوعين، لكن وقبل أن يبت في طلبه أمرت الحكومة المصرية الجيش رسمياً بالإشتراك في الحرب. فسافر جمال إلى فلسطين في 16 أيار/مايو 1948، بعد أن كان قد رقي إلى رتبة صاغ (رائد) في أوائل عام 1948.

جرح جمال عبد الناصر مرتين أثناء حرب فلسطين ونقل إلى المستشفى. ونظراً للدور المتميز الذي قام به خلال المعركة فإنه منح وسام النجمة العسكرية في عام 1949.

بعد رجوعه إلى القاهرة أصبح جمال عبد الناصر واثقاً أن المعركة الحقيقية هي في مصر، فبينما كان ورفاقه يحاربون في فلسطين، كان السياسيون المصريون يكدسون الأموال من أرباح الأسلحة الفاسدة التي اشتروها رخيصة وباعوها للجيش.

بعد عودته من فلسطين عين جمال عبد الناصر مدرساً في كلية أركان الحرب التي كان قد نجح في امتحانها بتفوق في 12 أيار/مايو 1948. وبدأ من جديد نشاط الضباط الأحرار وتألفت لجنة تنفيذية بقيادة جمال عبد الناصر، وضمت كمال الدين حسين وعبد الحكيم عامر وحسين إبراهيم وصلاح سالم وعبد اللطيف البغدادي وخالد محيي الدين وأنور السادات وحسين الشافعي وزكريا محيي الدين وجمال سالم، وهي اللجنة التي أصبحت مجلس الثورة فيما بعد عام 1950 ـ 1951.

وفي 8 أيار/ مايو 1951 رقي جمال عبد الناصر إلى رتبة البكباشي (مقدم) وفي نفس العام اشترك مع رفاقه من الضباط الأحرار سراً في حرب الفدائيين ضد القوات البريطانية في منطقة القناة التي استمرت حتى بداية 1952، وذلك بتدريب المتطوعين وتوريد السلاح ـ الذي كان يتم في إطار الدعوى للكفاح المسلح من جانب الشباب ـ من كافة الاتجاهات السياسية والذي كان يتم خارج الإطار الحكومي.

بيان الثورة:

في صباح يوم 23 تموز/ يوليو وبعد إحتلال دار الإذاعة تمت إذاعة بيان الثورة التالي:

«اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش، وتسبب المرتشون والمغرضون في هزيمتنا في حرب فلسطين، وأما فترة ما بعد الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد، وتآمر الخونة على الجيش، وتولى أمره إما جاهل أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا، وتولى أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خُلقهم وفي وطنيتهم، ولا بد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب.

أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين فهؤلاء لن ينالهم ضرر، وسيطلق سراحهم في الوقت المناسب، وإني أؤكد للشعب المصري أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن في

ظل الدستور مجرداً من أية غاية. وأنتهز هذه الفرصة فأطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف، لأن هذا ليس في صالح مصر، وإن أي عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل وسيلقى فاعله جزاء الخائن في الحال، وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاوناً مع البوليس. وإني أطمئن إخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم، ويعتبر الجيش نفسه مسؤولاً عنهم. والله ولي التوفيق».

ـ جمال عبد الناصر رئيساً لمجلس قيادة الثورة:

في شباط/فبراير 1954 استقال محمد نجيب بعد أن اتسعت الخلافات بينه وبين أعضاء مجلس قيادة الثورة، وعين جمال عبد الناصر رئيساً لمجلس قيادة الثورة ورئيساً لمجلس الوزراء.

قرار التعيين تضمن ما يلي:

«**أولاً**: قبول الاستقالة المقدمة من لواء أركان الحرب محمد نجيب من جميع الوظائف التي يشغلها.

ثانياً: يستمر مجلس قيادة الثورة بقيادة البكباشي أركان الحرب جمال عبد الناصر في تولي كافة سلطاته الحالية إلى أن تحقق الثورة أهم أهدافها وهو إجلاء المستعمر عن أرض الوطن.

ثالثاً: تعيين البكباشي أركان الحرب جمال عبد الناصر رئيساً لمجلس الوزراء.

ونعود فنكرر أن تلك الثورة ستستمر حريصة على مُثلها العليا مهما أحاطت بها من عقبات وصعاب، والله كفيل برعايتها إنه نعم المولى ونعم النصير. والله ولي التوفيق».

في 24 حزيران/ يونيو 1956 انتخب جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية بالاستفتاء الشعبي وفقاً لدستور 16 كانون الثاني/ يناير 1956 أول دستور للثورة.

وفي 22 شباط/ فبراير 1958 أصبح جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية العربية المتحدة بعد إعلان الوحدة بين مصر وسورية، وذلك حتى الانفصال 28 أيلول/ سبتمبر 1961.

وظل جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية العربية المتحدة حتى رحل في 28 أيلول/ سبتمبر 1970.

ـ الأبعاد الإستراتيجية في مشروع عبد الناصر:

إذا كنا نقول بأن المشروع العربي القومي النهضوي الذي تركه جمال عبد الناصر عام 1970 لم يكن متكاملاً بعد عند رحيله، فإننا نقول أيضاً بأن عبد الناصر عندما جاء إلى الساحة المصرية ومن ثم العربية سنة 1952 فإنه لم يكن يمللك نظرية أو حتى برنامجاً للعمل الوطني. لكننا إنصافا لَلحقيقة والتاريخ وإذا نظرنا إلى ما جرى فوق الأرض العربية فيما بين تموز/ يوليو 1952 وأيلول/ سبتمبر 1970 فسوف نلاحظ حجم الانجاز الهائل على الأرض العربية كما إننا سوف نلاحظ كيف تحولت الأحلام الكبيرة إلى أهداف عظيمة جرت صياغتها في مشروع نظري وعملي في آن واحد. ومعنى ذلك أن جمال عبد الناصر ومنذ دخل إلى الساحة المصرية والعربية والدولية وفي سنوات قليلة قام بجهد خارق من أجل إرساء القواعد والركائز الأساسية للمشروع العربي القومي النهضوي نظرياً وعملياً. ولم يكن ذلك سهلاً أو هيناً.

لقد مشى عبد الناصر فوق الأشواك، وسلك الطرق الصعبة، وسار عبر المخاطر، ومضى بالتجربة بالصواب والخطأ.

بدأ مسيرته بدون نظرية ولم يكن يملك في تموز/يوليو عام 1952 من دليل للعمل غير المبادئ الستة المشهورة التي استخلصها من مطالب النضال الشعبي واحتياجاته، ولقد كان مجرد إعلانها في حد ذاته في جو المصاعب والخطر والظلام الذي أطبق على مصر في ذلك الزمان دليلاً على صلابة إرادة التغيير الثوري، لدى الطلائع الثورية التي قادت إلى التغيير الكبير الذي حدث ليلة الثالث والعشرين من تموز/يوليو سنة 1952 وكانت هذه المبادئ تمثل تحديات ومواجهات هائلة ويمكن استعراض هذه المبادئ كما يلي:

في مواجهة جيوش الإحتلال البريطاني الرابضة في منطقة قناة السويس، كان المبدأ الأول هو القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة المصريين في مواجهة تحكم الإقطاع الذي كان يستبد بالأرض ومن عليها. وكان المبدأ الثاني هو القضاء على الإقطاع في مواجهة تسخير موارد الثروة لخدمة مصالح مجموعة من الرأسماليين. وكان المبدأ الثالث هو القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم في مواجهة الاستغلال والاستبداد الذي كان نتيجة محتمة لهذا كله.

أما المبدأ الرابع فهو إقامة عدالة إجتماعية في مواجهة المؤامرات لإضعاف الجيش، واستخدام ما تبقى من قوته لتهديد الجبهة الداخلية المتحفزة للثورة. وكان المبدأ الخامس هو إقامة جيش وطني قوي وفي مواجهة التزييف السياسي الذي حاول أن

يطمس معالم الحقيقة الوطنية. وكان الهدف السادس هو إقامة حياة ديمقراطية سليمة.

لم تكن تلك المبادئ نظرية للعمل الوطني حينذاك، ومع هذا فقد استطاع عبد الناصر أن يطور هذه المبادئ والأهداف وأن يحركها بالممارسة والتجربة، بالنضال والعمل في محاولة للوصول إلى تحقيق هذه المبادئ من ناحية، وإلى صياغة برنامج عام للعمل الوطني المصري من ناحية أخرى حينذاك. ومن المبادئ الستة اندفع جمال عبد الناصر إلى آفاق رحبة وواسعة فكانت الدوائر الثلاث التي تحدث عنها عبد الناصر في كتابه «فلسفة الثورة». وهذه الدوائر هي الدائرة العربية والدائرة الأفريقية والدائرة الإسلامية. ومن خلال شرح عبد الناصر لأبعاد ومفهوم هذا الدوائر نرى أن عبد الناصر كان على وعي كامل وفي وقت مبكر بأهمية تأكيد الانتماء العربي لمصر، وضرورة التحالف والتضامن مع شعوب أفريقيا في نضالها من أجل الإستقلال والحرية على إعتبار أن مصر هي المفتاح الشمالي الشرقي الذي يصل أفريقيا بآسيا، وضرورة الالتقاء مع شعوب الدول الإسلامية وكان عبد الناصر يرى وبعين ثاقبة وبنظرة على المستقبل أنه لا تناقض بين هذه الدوائر الثلاث فهي مكملة لبعضها البعض.

لم يتوقف عبد الناصر عند الدوائر الثلاث بل أضاف إليها في ميدان السياسة الدولية ما عرف بسياسة عدم الانحياز والحياد الإيجابي بوصفها أسلم الطرق في عالم كانت تسوده الحرب الباردة بين المعسكر الغربي والمعسكر الشرقي.

وبالتجربة والممارسة، وبانتزاع حق مصر في الإستقلال والحرية وبتأميم قناة السويس وبالمواجهة المسلحة في بورسعيد وبمساندة حركات التحرير الوطنية العربية والعالمية وبمناهضة سياسة الأحلاف العسكرية ومناطق النفوذ الغربي وبالبناء الإقتصادي والإجتماعي وتشييد المصانع وبناء السد العالي واستصلاح ملايين الدونمات من الأرض وتحويلها إلى الخضرة على امتداد وادي النيل وبتمليك الشعب لوسائل الإنتاج وبإلغاء استغلال الإنسان لأخيه الإنسان وبمجانية التعليم ويقبول تحدي إقامة الوحدة بين مصر وسوريا وقيام الجمهورية العربية المتحدة ومواجهة آثار الانفصال وتبعاته. بهذا كله وبغيره من الانجازات وهو كثير حرك عبد الناصر المبادئ الستة والدوائر الثلاث وسياسة عدم الانحياز، لتتفاعل كلها معاً ولتحدد الأهداف الرئيسية للنضال العربي في هذه المرحلة وهي الحرية والإشتراكية والوحدة وذلك في برنامج تفصيلي مرحلي هو الميثاق الوطني.

إن الميثاق الوطني كان خلاصة للتجربة المصرية وكان تعبيراً أيضاً وفي أجزاء منه عن تصور لواقع وحال الوطن العربي وبصرف النظر عما جرى في حزيران/يونيو عام 1967 فإن عبد الناصر أعاد البناء ومارس النقد والنقد الذاتي، والأهم أنه صحح الكثير من الأخطاء والخطايا والتي شابت التجربة. وكان كل جهده في ذلك الوقت منصرفاً في الإعداد للحرب من أجل إزالة آثار العدوان.

كانت ملامح مشروع عبد الناصر قد ظهرت وبانت وكانت الأهداف قد تحددت ويمكن من خلال كل ما جرى من رصد

للتجربة ومتابعة لمشروع عبد الناصر الذي أخذ يصبح مشروعاً ليس لمصر وحدها ولكنه أصبح أيضاً مشروع أمة بأسرها. كان هذا المشروع يتفاعل مع مشاريع قومية أخرى لأحزاب وتنظيمات عربية ملأت الساحة العربية كلها.

نستطيع أن نقول بأن هذا المشروع له سمات ومكونات ترتكز على ثوابت وهي في مجملها تشكل الملامح الإستراتيجية للمشروع وقد تأكدت هذه الثوابت من خلال التجربة وهي كما يلي:

أولاً: إن المشروع النهضوي العربي «مشروع عبد الناصر» هو مشروع معاد ومناهض للاستعمار بكل صوره وأشكاله وكان ذلك واضحاً من خلال المبدأ الأول لثورة 23 تموز/يوليو وهو القضاء على الاستعمار. وثبت ذلك بالتجربة والممارسة في سلسلة المعارك المستمرة والمتواصلة والتي لم تتوقف يوماً ابتداء من شن حرب العصابات ضده في منطقة قناة السويس سنة 1953 إلى معركة مستميتة ضد مشاريع الأحلاف العسكرية سنة 1955 إلى مواجهة بالحرب الشاملة في معركة السويس سنة 1956 إلى تحدي الحصار الإقتصادي ومحاولة غزو سوريا سنة 1957.

يضاف إلى ذلك مساعدة معظم حركات التحرير الوطنية المعادية للاستعمار سواء على الأرض العربية كالجزائر أو على امتداد قارات العالم كما في كينيا وقبرص.

إن معركة السويس التي كانت إحدى الذرى البارزة في التجربة الثورية المصرية لم تكن لحظة اكتشف فيها الشعب المصري نفسه، أو اكتشفت فيها الأمة العربية إمكانياتها فقط، وإنما كانت هذه

اللحظة عالمية الأثر، رأت فيها كل الشعوب المغلوبة على أمرها أن في نفسها طاقات كامنة لا حدود لها، وأنها تقدر على مقاومة الاستعمار وطرده إلى حيث منبعه وأصله. وإذا كان مشروع عبد الناصر قد تصدى للاستعمار القديم فإنه أيضاً تصدى وبنفس الدرجة لمقاومة الاستعمار الجديد. من هنا الاستعمار قد غير أساليبه ووسائله وتحول من استعمار عسكري مباشر إلى استعمار إقتصادي وثقافي وهذا ما تصدى له المشروع العربي القومي، وعلينا أن نتذكر دائماً أن الاستعمار لم يغفر يوماً لعبد الناصر ما فعله به. من هنا لم تتوقف محاولات الاستعمار لضرب وتصفية عبد الناصر وضرب مشروعه القومي العربي وكان عدوان 1967 هو ذروة هذه المحاولات.

ثانياً: إن المشروع النهضوي العربي « مشروع عبد الناصر» هو مشروع للبناء الداخلي الإقتصادي والإجتماعي والثقافي والفكري للوطن يستهدف إلغاء استغلال الإنسان للإنسان وحل الصراع بين طبقات المجتمع بالطرق السلمية وذلك عن طريق تذويب الفوارق بين الطبقات. والمشروع يستهدف أيضاً إقامة مجتمع الكفاية والعدل عن طريق تنفيذ خطط التنمية الإقتصادية والإجتماعية لزيادة الإنتاج وتوزيع الثروة الوطنية وعائد الإنتاج على أبناء المجتمع بالعدل.

المشروع يسعى إلى بناء مجتمع أكثر تقدماً وأكثر تقدمية، أكثر تقدماً من ناحية انتمائه للعلم الحديث، وأخذه بأسباب العلم الحديث، وأكثر تقدمية من ناحية ملكيته لأوسع الجماهير،

ووجوده في خدمتهم وخدمة آمالهم المشروعة ومطالبهم المتزايدة عن حق، رغبة في مستوى أفضل من المعيشة. وثبت بالتجربة أن هذا المشروع قد أقام على أرض مصر أكبر المشاريع الصناعية والزراعية والعلمية وفي مقدمتها السد العالي، وأنشأ مئات المدارس والمعاهد والجامعات والمراكز الثقافية والفنية، كل ذلك من أجل الإنسان.

ثالثاً: إن المشروع النهضوي العربي «مشروع عبد الناصر» هو مشروع ديمقراطي للشعب وللأمة. وقد وضع عبد الناصر من خلال التجربة المصرية تصوراً لمفهوم الديمقراطية، فهو بداية يشير إلى أن الديمقراطية السياسية لا يمكن أن تنفصل عن الديمقراطية الإجتماعية. ويقول الميثاق أن المواطن لا تكون له حرية التصويت في الانتخابات إلا إذا توفر له:

- أن يتحرر من الاستغلال في جميع صوره.
- أن تكون له الفرصة المتكافئة في نصيب عادل من الثروة الوطنية.
- أن يتخلص من كل قلق يبدد أمن المستقبل في حياته.

بهذه الضمانات الثلاث يملك المواطن حريته السياسية، ويقدر أن يشارك بصوته في تشكيل سلطة الدولة التي يرتضي حكمها. ويشير الميثاق إلى أنه لا يمكن أن تتحقق الديمقراطية في ظل سيطرة طبقة من الطبقات. إن الديمقراطية حتى بمعناها الحرفي هي سلطة الشعب، سلطة مجموع الشعب وسيادته، والصراع الحتمي والطبيعي بين الطبقات لا يمكن تجاهله أو إنكاره، وإنما ينبغي أن

يكون حله سلمياً في إطار الوحدة الوطنية، وعن طريق تذويب الفوارق بين الطبقات.

والحقيقة أن مشروع عبد الناصر قد طرح في البداية فكرة التنظيم السياسي الواحد لمرحلة انتقالية هي مرحلة التحول الإشتراكي، ونرى أنه في هذا المجال كان يريد إشراك أكبر قاعدة شعبية في العمل السياسي من خلال تحالف قوى الشعب العامل وتنظيم الإتحاد الإشتراكي العربي. إلا أننا سوف نلاحظ بأن جمال عبد الناصر وفي سنواته الأخيرة بدأ في مناقشة فكرة الأحزاب السياسية ودورها في العمل الديمقراطي. إن موضوع الديمقراطية في مشروع عبد الناصر يستحق دراسة ومناقشات مطولة.

رابعاً: إن المشروع النهضوي العربي «مشروع عبد الناصر» هو مشروع قومي وحدوي يهدف إلى العمل لعودة الأمر الطبيعي لأمة عربية واحدة مزقها أعداؤها ضد إرادتها وضد مصالحها، والمدهش أن هذا المشروع أثبت بالتجربة العملية التزامه بالوحدة العربية قولاً وعملاً وذلك من خلال وقوفه مع ثورة الجزائر ومع كل حركات التحرر العربية والدخول في أول تجربة وحدوية في القرن العشرين وهي تجربة الجمهورية العربية المتحدة بالوحدة بين مصر وسوريا.

وقد أكد الميثاق الوطني على أهمية الوحدة وعلى حتميتها حيث ورد في الباب التاسع من الميثاق قوله: «إن الأمة العربية لم تعد في حاجة إلى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها، لقد تجاوزت الوحدة هذه المرحلة، وأصبحت حقيقة الوجود العربي ذاته، يكفي

أن الأمة العربية تملك وحدة اللغة التي تصنع وحدة الفكر والعقل، ويكفي أن الأمة العربية تملك وحدة التاريخ التي تصنع وحدة الضمير والوجدان، ويكفي أن الأمة العربية تملك وحدة الأمل التي تصنع وحدة المستقبل والمصير». ولقد كانت الوحدة وما زالت من أهم الأهداف الإستراتيجية لمشروع عبد الناصر، وأي حديث عن مشروع لا يتضمن الوحدة العربية كهدف لا يبقى ولا يكون مشروعاً لعبد الناصر فبدون هدف الوحدة يبقى المشروع مجرد مشروع وطني قطري. ولقد حقق هذا المشروع هدف الوحدة في مرحلة من مراحل التاريخ العربي المعاصر. ويتعين الآن وفي المستقبل أن يسعى أبناء المشروع إلى تبني هدف الوحدة والعمل من أجل تحقيقه.

خامساً: إن المشروع العربي النهضوي «مشروع عبد الناصر» هو مشروع مناهض للحركة الصهيونية التي سيطرت على فلسطين بالقوة المسلحة مرتين مرة سنة 1948 ومرة ثانية سنة 1967 وقد تحدث عبد الناصر عن تصوره لوجود إسرائيل فقال في رسالة بعث بها إلى الرئيس الأميركي الراحل جون كينيدي عام 1961 تحدث فيها عن تصوره وتصور الحركة العربية القومية لوعد بلفور حيث قال: «لقد أعطى من لا يملك، وعداً لمن لا يستحق، ثم استطاع الاثنان (من لا يملك) و(من لا يستحق) بالقوة وبالخديعة، أن يسلبا صاحب الحق الشرعي حقه، فيما يملكه وفيما يستحقه». تلك هي الصورة الحقيقية لوعد بلفور، الذي قطعته بريطانيا على نفسها، وأعطت فيه ـ من أرض لا تملكها، وإنما يملكها الشعب العربي الفلسطيني ـ عهداً بإقامة وطن يهودي في فلسطين. واستطرد عبد

الناصر في رسالته إلى كينيدي قائلاً: «وعلى المستوى الفردي - يا سيادة الرئيس - فضلاً عن المستوى الدولي، فإن الصورة على هذا النحو تشكل قضية نصب واضحة تستطيع أي محكمة عادية أن تحكم بالإدانة على المسؤولين عنها».

وعن محاولات إسرائيل المبكرة لإقامة علاقات ما مع مصر بعد ثورة تموز/يوليو قال عبد الناصر في إحدى خطبه: «لقد تنبهت إسرائيل منذ وقت مبكر إلى خطورة الثورة المصرية عليها، خصوصاً إذا ما نجحت مصر في التحول من التخلف إلى التقدم. وقد كانت إسرائيل تدرك أن التقدم العربي هو القاعدة الثابتة والصلبة التي يمكن للأمة العربية منها أن تخوض المعركة ضدها من مركز القوة». وأضاف يقول: «أنه في سنة 1952، 1953 حاولت إسرائيل أن تتلمس سبيلاً إلى الثورة المصرية بمختلف الوسائل، تظنها انقلاباً عسكرياً، وتظن بالفهم السطحي لتجربة مصر العربية سنة 1948 أن مصر من هذه التجربة قد تحول أنظارها عن مكانها القومي، وتركز اهتمامها على أرضها الوطنية وحدها. وما كانت الثورة المصرية لتترك أثرها في التاريخ، لو نسيت للحظة واحدة أن وجودها الوطني لا قيمة له إلا أنه جزء من وجود قومي أكبر».

ويستطرد عبد الناصر في هذا المجال قائلاً: «وحين أدركت إسرائيل أن فهمها مناقض للحقيقة بدأت تتصرف بطريقة أخرى فشنت الغارات المسلحة على الحدود، كانت تريد التخويف، ولقد فشلت فيه ولكن سياستها لفتت نظر مصر في 28 شباط/فبراير سنة 1955 إلى أهمية القوة العسكرية كدرع للعمل الوطني والقومي.

واتجهت إسرائيل إلى التآمر مع الاستعمار والتواطؤ، وقامت بدور التابع في العدوان الثلاثي المشهور، فكشفت بذلك قيمتها السياسية والعسكرية على حقيقتها»، ويشرح عبد الناصر وجهة نظره بشأن إسرائيل فيقول: «إن مشكلة إسرائيل ليست هي مشكلة فلسطين، وإنما هي ـ بعد فلسطين ـ أبعد أثراً وخطراً. إن إسرائيل خطر توسعي حقيقي يخطط لدولة أكبر من حدود الدولة الحالية، يعمل ليوم تتحول فيه الشعوب العربية بين الفرات والنيل إلى فلول من لاجئين. من هنا فإن المحارب المصري أو العراقي أو السوري لا يحمل سلاحه دفاعاً عن أسرة فلسطينية لاجئة وإنما هو ـ إلى جانب ذلك ـ يحمل السلاح دفاعاً عن أسرته المصرية أو السورية أو العراقية، أمة عربية واحدة تواجه نفس المعركة لأنها تواجه نفس الخطر، ويهددها نفس المصير، إذا لانت يوماً في تصميمها، أو هانت وهان عليها التاريخ والمستقبل، وضاعت من يدها فرصة الحاضر استعداداً وتأهباً».

وكانت حرب حزيران/ يونيو 1967 هي الحرب الاستباقية التي قامت بها إسرائيل لضرب المشروع النهضوي العربي ولتصفية وإنهاء نظام جمال عبد الناصر الذي بدأ يهدد مصالحها ويقف ضد محاولاتها للتوسع. وبعد هزيمة حزيران/ يونيو وإحتلال سيناء والمرتفعات السورية والضفة الغربية والقدس وقطاع غزة خرجت جماهير الشعب المصري والأمة العربية يومي 9 و10 حزيران/ يونيو 1967 لترفض الهزيمة. وقد قال عبد الناصر في خطابه يوم 23 تموز/ يوليو 1967: «إنني لم أعتبر لدقيقة واحدة أن خروج جماهير شعبنا برغم الظلام، وبرغم غارات العدو مساء يوم 9 حزيران/ يونيو

تكريماً لشخصي، وإنما اعتبرت أن ذلك الموقف كان تصميماً على نضال».

إن الشعب بهذا الموقف أجاب على أهم سؤال كانت الحوادث تطرحه، وكانت النكسة نفسها تلقيه أمامه، وهو: ما العمل؟ أجاب الشعب بالتصميم.. بالمقاومة.. بالاستعداد لكل التضحيات.. بالصمود.. ولكن ذلك ليس نهاية وإنما هو بداية. واستطرد عبد الناصر يقول في ذلك اليوم وبعد أقل من شهرين على نكسة حزيران/ يونيو «إن المحافظة على حقوق شعب فلسطين، هي أساس القضية ونحن لا يمكن ـ رغم النكسة ورغم إحتلال سينا ـ أن نتخلى عن حقوق شعب فلسطين، لا يمكن أن نيأس ولا يمكن أن نكفر بأهدافنا ولا يمكن أن نفقد ثقتنا بأنفسنا أو بأمتنا العربية أو بشعبنا العربي. ولن نتخلى عن حقوق شعب فلسطين، حينما يتكلمون عن السلام فأنا أقول لا يمكن لأي قوة أن تفرض السلام، القبول بفرض السلام معناه القبول بالاستسلام، وهم عايزينا نستسلم تحت اسم السلام، الطريق الوحيد أمامنا ـ رغم النكسة ورغم كل شيء ـ هو المحافظة على حقوق شعب فلسطين».

لقد رفض عبد الناصر الاستسلام وأكد أن قطعة من الأرض قد تسقط تحت الإحتلال لكن أي رقعة من إرادة الشعب والأمة ليست قابلة للسقوط تحت أي إحتلال، وإرادة الشعب ـ وليست أي رقعة من الأرض ـ هي القول الفصل، وهي الفارق بين القبول بالهزيمة والاستسلام لها وبين التصميم على المقاومة والإصرار عليها، حتى يمكن استعادة رقعة الأرض المحتلة، واستعادة النصر الضائع. وأن

تقع رقعة من أرض الوطن أسيرة في يد عدو زود بإمكانيات تفوق طاقته فهذه ليست الهزيمة الحقيقية، ولا هي النصر الحقيقي للعدو، وأن تقع إرادة الشعب أسيرة في يد هذا العدو فهذه هي الهزيمة الحقيقية وهذا هو النصر الحقيقي للعدو.

وأعلن عبد الناصر: إننا ننشد السلام لكن السلام الذي نريده ليس هو المفروض بالأمر الواقع مهما كان. إن سلام الأمر الواقع هو الاستسلام ودعوى السلام في قبول الأمر الواقع دعوى باطلة قيلت في كل زمان ومكان لتبرير كل عدوان وهي دعوى باطلة يرفضها كل المؤمنين بالحرية بل كل المؤمنين بالسلام الحقيقي. ورفض عبد الناصر منطق التسويات المنفردة والجزئية بما فيها عروض أميركية وإسرائيلية لإعادة سيناء شرط أن تتخلى مصر عن بقية الأراضي المحتلة. وقال في خطاب له أمام مجلس الأمة المصري في 6 كانون الثاني/يناير 1969 إنه لا يمكن أن يكون هناك مخرج من الأزمة يقوم على تسوية تتعلق بالأراضي المصرية وحدها وإنما لا بد من تحرير كل الأراضي العربية التي احتلتها إسرائيل وأولها القدس العربية والضفة الغربية وقطاع غزة والمرتفعات السورية.

وحين قبل عبد الناصر قرار مجلس الأمن رقم 242 قال للفلسطينيين إن هذا القرار لا يعالج القضية الفلسطينية ولكنه يعالج الآثار الناجمة عن حرب حزيران/يونيو 1967 وإن من حق الفلسطينيين إن يرفضوا القرار. وقال عبد الناصر: «إن المقاومة الفلسطينية تعتبر من أهم الظواهر الصحية في نضالنا العربي، وهي

التجسيد العملي للتحول الكبير الذي طرأ على الشعب الفلسطيني تحت ضغوط القهر، وحوله من شعب لاجئين إلى شعب مقاتلين».

وأدار عبد الناصر الصراع سلماً وحرباً في تلك الفترة بمسؤولية واقتدار فقد أعاد البناء السياسي العسكري والإقتصادي وشن حرب الاستنزاف خلال عامي 1969 و1970 على ضفاف قناة السويس وفي العمق وقام بأعظم أدواره وأكثرها عذاباً وآلاماً. وكما قال الأستاذ محمد حسنين هيكل كان عبد الناصر يرى مصر عام 1967 ملقاة على الأرض مثخنة بجراحها، وفي عام 1968 كان يراها تهم على ركبتيها، وكان يأمل مع عامي 1969 و1970 أن يراها وقد نهضت على قدميها وحين كانت مصر تقف على قدميها كان هو يجود بأنفاسه الأخيرة.

وفي خطبة الوداع آخر خطبة لعبد الناصر قال في 26 تموز/ يوليو 1970 «نحن نريد السلام ولكن السلام بعيد، ونحن لا نريد الحرب، ولكن الحرب من حولنا، وسوف نخوض المخاطر مهما كانت دفاعاً عن الحق والعدل. حق وعدل لا سبيل لتحقيقهما غير طرد قوى العدوان عن كل شبر من الأرض العربية المحتلة سنة 1967، من القدس، من الجولان، من الضفة الغربية، من غزة، من سينا، وحق وعدل لا سبيل لتحقيقهما غير استعادة الشعب الفلسطيني لحقوقه الشرعية، وخروجه من خيام اللاجئين ليدخل مدنه وقراه ومزارعه وبيوته، ويعود مرة أخرى إلى قلب الحياة بعد أن أرغمته الظروف أن يبقى من عشرين سنة على هامش الحياة.

ذلك ـ أيها الإخوة ـ هو الهدف والطريق. . إنتصار السلام وسلام الإنتصار».

من هذا كله فإن المشروع العربي القومي النهضوي «مشروع عبد الناصر» قد اعتبر قضية فلسطين وقضية الأراضي التي جرى إحتلالها عام 1967 القضية المركزية له واعتبرها قضية الأمة العربية كلها وليست قضية شعب فلسطين وحده.

سادساً: إن المشروع النهضوي العربي «مشروع عبد الناصر» هو مشروع إنساني وعالمي. ومن هنا ووسط الصراع بين القوى الكبرى ووسط المشاكل الدولية أخذ المشروع بسياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز، وهي سياسة تعني المشاركة في حل المشاكل الدولية وليس الابتعاد عنها، باعتبار أن هذا هو الطريق الصحيح لسياسة دولية تعبر عن الضمير الوطني لشعوب العالم الثالث. ولقد حدد الميثاق الوطني الخطوط الثلاثة العميقة في السياسة الخارجية لتكون تعبيراً عن الضمير الوطني والقومي لشعوب الأمة العربية هي:

- الحرب ضد الاستعمار والسيطرة، بكل الطاقات والوسائل، وكشفه في جميع أقنعته، ومحاربته في كل أوكاره. من هنا فقد خاض عبد الناصر حروبه ومعاركه ضد الاستعمار القديم والجديد ووقف دائماً مع كل حركات التحرير في العالم وكان شعاره على الدوام نحن مع الحرية في كل مكان وضد الاستعمار في أي زمان.
- العمل من أجل السلام، لأن جو السلام واحتمالاته هي

الفرصة الوحيدة الصالحة لرعاية التقدم الوطني. من هنا كان لعبد الناصر الدور الكبير في إرساء مبادئ مؤتمر باندونغ سنة 1955 وهي التي أصبحت الأهداف الرئيسية لشعوب أسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية وهي القواعد التي قامت عليها فيما بعد سياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز والتي تعززت بوحدة وتضامن شعوب العالم الثالث. وعلينا أن نتذكر على الدوام أن تجمع مؤتمر عدم الانحياز الذي يمثل شعوب العالم الثالث والذي ما زال مستمراً حتى الآن رغم تغير الظروف الدولية هو واحد من أبرز التجمعات الإقليمية الدولية التي عمل الفرسان الثلاثة فرسان عدم الانحياز جمال عبد الناصر وجوزيب بروز تيتو وجواهر لال نهرو على إقامته وتعزيز دوره في السياسة الدولية.

لقد ظل عبد الناصر طوال عمره يعمل من أجل السلام العادل سواء على المستوى الدولي على اتساع العالم كله أو على المستوى الإقليمي في منطقة الشرق الأوسط.

- العمل في مجال التعاون الدولي من أجل الرخاء، فإن الرخاء المشترك لجميع الشعوب لم يعد قابلاً للتجزئة، كما أنه أصبح في حاجة إلى التعاون الجماعي لتوفيره ولقد سعى عبد الناصر لمد جسور التعاون مع مختلف دول وشعوب العالم، وكان شعاره دوماً نعادي من يعادينا ونصادق من يصادقنا.

إن مشروع عبد الناصر أكد أنه إذا كان يؤمن بوحدة عربية، فهو يؤمن بجامعة إفريقية ويؤمن بتضامن آسيوي ـ أفريقي، ويؤمن بتجمع

من أجل السلام يضم جهود الذين ترتبط مصالحهم به في إطار مجموعة عدم الانحياز، ويؤمن برباط روحي وثيق يشده إلى العالم الإسلامي، ويؤمن بانتمائه إلى الأمم المتحدة وبولائه لميثاقها، الذي استخلصته آلام الشعوب في محنة حربين عالميتين. إن الإيمان وهذا كله لا يتعارض مع بعضه ولا يتصادم، وإنما حلقات سلسلة واحدة. إننا أمة عربية واحدة وأمتنا تعيش على أرض الشمال الأفريقي وعلى أرض الغرب الأسيوي وهي.لا تستطيع أن تعيش في عزلة عن تطور أفريقيا وآسيا السياسي والإجتماعي والإقتصادي. إن أمتنا تنتمي إلى القارتين اللتين دارت فيهما أعظم معارك التحرير الوطني، وهو أبرز سمات القرن العشرين. وترتبط أمتنا في جزء من أرضها بمنظمة الوحدة الأفريقية. بينما ترتبط أمتنا في جزء آخر من أراضيها بقارة آسيا وأرض الأمة العربية كلها ترتبط بتجمع بلدان أفريقيا وآسيا. وترتبط أمتنا بعالم أوسع في إطار مجموعة عدم الانحياز. وهذا ليتعارض مع عالم إسلامي يرتبط مع أمتنا بأواصر الدين والحضارة والثقافة.

سابعاً: إن المشروع النهضوي العربي «مشروع عبد الناصر» في إطاره النظري كان على الدوام في حركة متطورة إلى الأمام لم تقيد نفسها بشيء، حتى أن جمال عبد الناصر حذر من أن يصبح الميثاق قيداً على المسيرة، فقد قال في خطاب له أمام مجلس الأمة المصري عام 1964 «إنني أريد أن أرفع صوتي بالتنبيه أن الميثاق في يدنا طريق إلى التقدم الإجتماعي، وليس ينبغي تحويله إلى حاجز أمامه. إن الميثاق ليس نصاً جامداً، لكنه أسلوب للحركة الشاملة، إن الميثاق يجب أن يكون أداة في يد تحالف قوى الشعب العاملة،

ولا ينبغي أن يتحول إلى قيد عليها». وأضاف عبد الناصر في خطاب آخر أنه سيتم بعد عشر سنوات على إعلان الميثاق إجراء مراجعة شاملة لإعادة صياغة ميثاق متجدد. وبخصوص تجارب الشعوب الأخرى والاستفادة منها تحدث الميثاق قائلاً إن التجارب الإجتماعية لا تعيش في عزلة عن بعضها البعض وإنما تعيش بالانتقال الخصب وبالتفاعل الخلاق أنها قابلة للانتقال لكنها ليست قابلة لمجرد النقل قابلة للدراسة المفيدة لكنها ليست قابلة لمجرد الحفظ عن طريق التكرار. من هنا نلاحظ أن الإطار النظري لمشروع عبد الناصر لم يكن جامداً وإنما كان متحركاً وإن كانت الثوابت الأساسية راسخة.

لعل السؤال الذي يواجهنا ونحن نتحدث عن مشروع عبد الناصر هذا المشروع النهضوي العربي أين يمكن أن نجد مصادر هذا المشروع نظرياً وتطبيقياً؟

وأقول إننا نستطيع أن نجد ذلك ضمن أربع مجموعات.

أولها: موجود في ثلاث وثائق هامة هي كراس فلسفة الثورة لعام 1954 وميثاق العمل الوطني الصادر في العام 1962 وبيان وبرنامج 30 آذار/مارس الصادر عام 1968.

ثانيها: موجود في مجموعات الخطب والأحاديث والتصريحات التي ألقاها جمال عبد الناصر في المناسبات العامة والإجتماعات المفتوحة وهذه كلها متوفرة حالياً وبالكامل تقريباً في صفحة جمال عبد الناصر على الإنترنت والتي أشرفت عليها الدكتورة هدى عبد الناصر.

ثالثها: موجود في محاضر الإجتماعات والجلسات الرسمية ومعظم هذه المحاضر ما تزال سرية حتى الآن ولا ينتظر نشرها بالكامل قبل مرور سنوات طويلة، وإن كان قد نشر جزء منها.

رابعها: موجود في وثائق الدولة المصرية سواء في أرشيف منشية البكري حيث كان مكتب الرئيس الراحل أو أرشيف وزارة الحربية أو أرشيف وزارة الخارجية وغيرها، كما أنه موجود في أرشيفات الدول الأجنبية مثل الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي سابقاً وبريطانيا وفرنسا والدول العربية وربما في الأرشيفات الإسرائيلية.

ضمن هذه المجموعات توجد غالبية مصادر مشروع عبد الناصر سواء في المجال النظري أو التطبيقي، سواء في مواقفه الداخلية أو الخارجية وأظن أن تجميع هذه المجموعات عمل مطلوب وضروري ولا غنى عنه لدراسة هذا المشروع من كل جوانبه.

ونقول في الختام أن أعلام هذا المشروع وراياته، أعلام الحرية والإشتراكية والديمقراطية والوحدة، وسياسات مقاومة الاستعمار بجميع صوره وأشكاله القديم والحديث ومنطلقات سياسة عدم الانحياز والتحالف مع شعوب العالم الثالث وسياسة الوحدة مع القارة الأفريقية وسياسة استنهاض العالم الإسلامي وتعزيز دور منظمة المؤتمر الإسلامي. هذه الأعلام والرايات لم تسقط أبداً مهما حاولت القوى المعادية للأمة العربية إن تفعله ومهما بدا على السطح وفي الظاهر، ذلك أن هذه الأعلام هي في الأصل والأساس تعبر عن طموحات وأحلام شعوب أمتنا العربية.

صحيح أن هذه الأعلام نزلت من فوق سارياتها لبعض الوقت وغابت عن الساحة لمرحلة أو أكثر، لكن الصحيح أيضاً أن هذه الأعلام قد استقرت في مبادئ تعيش في قلوب وعقول ملايين العرب ولسوف تعود هذه الأعلام لترتفع من جديد فوق سارياتها ولتخفق فوق كل أرض عربية، بل إنها سوف تكون إستراتيجية الحركة العربية المعاصرة في القرن الواحد والعشرين.

ونسأل أنفسنا أليست هذه المبادئ هي المطالب والأهداف التي يسعى إليها كل شعب عربي؟ ماذا نريد غير حرية الوطن وحرية المواطن؟ ماذا نريد غير الإستقلال السياسي والإقتصادي الكاملين؟ ماذا نريد غير بناء مجتمع الكفاية والعدل مجتمع تكافؤ الفرص مجتمع الإنتاج والخدمات؟.

ماذا نريد غير إقامة وحدة عربية شاملة تضم أجزاء الوطن العربي الممزق، ماذا نريد غير ذلك؟ ماذا نريد غير إقامة تحالف واسع وكبير مع شعوب العالم الإسلامي ومع شعوب القارة الأفريقية ومع شعوب العالم الثالث؟ ماذا نريد غير ذلك؟

أليست هذه مكونات وسمات إستراتيجية الحركة العربية المعاصرة التي حملها عبد الناصر ومضى بها إلى التطبيق العملي في مرحلة من أهم المراحل التي عاشتها الأمة العربية مرحلة الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين؟ وأخيراً أليست هذه مطالب الجماهير العربية في كل أرض عربية.

من هنا، فإننا نقول أن السنوات الخمس والثلاثين الماضية منذ رحيل عبد الناصر أكدت وهي تؤكد الآن صحة وسلامة مشروعه

فهذا المشروع ما زال حتى الآن قادراً على تقديم الحلول والأجوبة لمعظم المشاكل التي تواجهها الأمة العربية. لقد حاولوا تغييب مشروع عبد الناصر لسنوات لكننا نظن أن هذا المشروع عاد من جديد ليفرض نفسه على كل الذين راهنوا على الإقليمية والقطرية، عاد ليدق أبواب كل بلد عربي محذراً ومنبهاً بأن المستقبل القادم هو للكيانات الكبرى في هذا العالم، وبأن التقدم والتنمية على الأرض العربية لا يمكن أن تقوما على التجزئة وإن القوة العربية لا يمكن أن تبنى على الإرادات المختلفة والمتباينة.

إن المشروع العربي النهضوي «مشروع عبد الناصر» هو نداء المستقبل سيبقى مع الأمة العربية وفي يد طلائعها الجديدة والمتجددة، تتعلم منه، تعمل على تطويره وفق متغيرات العصر تثريه وتعطيه الحياة فهو مشروع ما زال قابلاً للحياة لأنه قبل أي شيء وبعد أي شيء يرتبط بالإنسان العربي صانع الحضارة وصانع التقدم.

ونقول أخيراً أن قدرنا أن نمسك بهذا المشروع بكل مكوناته وسماته وثوابته ندقق في كل المتغيرات التي جرت على الأرض العربية وما حولها. ندرسها ونحللها، نستوعبها لكي نضيف ونثري ونطور هذا المشروع. لقد جرت مياه كثيرة تحت جسور النيل وبردى ودجلة والأردن والليطاني منذ رحل جمال عبد الناصر سنة 1970، وقدرنا أيضاً أن نمضي بهذا المشروع ومعه إلى آفاق رحبة وواسعة من أجل أمة عظيمة آن لها أن تعود لتأخذ موقعها تحت الشمس.

ـ محاولة اغتيال جمال عبد الناصر وحادثة المنشية:

تعرض جمال عبد الناصر في 26 تشرين الأول/أكتوبر عام 1954 إلى محاولة اغتيال فاشلة وقعت في ميدان المنشية بالإسكندرية، وهذا الخبر الذي دخل التاريخ. . ولن يخرج منه أبداً! خبر. . محاولة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر!

كانت مانشيتات عناوين الصفحة الأولى كلها باللون الأحمر. وكانت تقول:

«محاولة اغتيال جمال عبد الناصر».

«إطلاق 8 رصاصات عليه وهو يخطب في الإسكندرية».

«نجاة الرئيس والقبض على الجناة».

«جمال عبد الناصر يخطب مرتين عقب الحادث»!

أما القصة الرئيسية على نفس الصفحة الأولى وكان عنوانها: «الشعب يقبض على الجناة» فكانت تقول:

«حاول شاب من الإخوان اغتيال جمال عبد الناصر. أطلق عليه ثماني رصاصات وهو يخطب مساء أمس في ميدان المنشية بالإسكندرية. لم يصبه الرصاص. استمر يخطب. قبض الشعب على الجاني وفي يده المسدس. وقبض الشعب على الجناة الذين كانوا معه. الجاني اسمه محمود عبد اللطيف. سمكري من إمبابة في الإخوان».

تولت النيابة التحقيق مع المتهم في السجن الحربي بمعسكر مصطفى كامل. الجاني كان عضواً في الإخوان منذ 16 سنة.

لم يترك جمال عبد الناصر المنصة. صاح في الجماهير: «فليبق كل منكم في مكانه، أيها الرجال فليبق كل منكم في مكانه. دمي فداءً لكم، حياتي لكم، ودمي منكم ولكم. دمي فداءً لكم. أنا لست جباناً، أنا أقبل الموت من أجل حريتكم، من أجل كرامتكم، من أجل عزتكم».

ومضت جريدة «الأخبار» تكمل قصة الحدث المثير فقالت:

«حاول زملاء جمال أن يمنعوه من الاستمرار في الكلام، لكنه أصر على أن يتكلم. كان صوته رهيباً مليئاً بالشجاعة والتأثر. واستمر واقفاً أمام الميكروفون والرصاص يتناثر حوله وهو يقول: «أنا جمال عبد الناصر.. لا أخشى الموت»!

مَن إذن أصيب في محاولة اغتيال جمال عبد الناصر؟ ومَن هو الجاني.. والذين كانوا معه؟

نشرت «الأخبار»: «جُرح في الحادث الأستاذ مير غني حمزة الوزير السوداني والأستاذ أحمد بدر سكرتير هيئة التحرير في الإسكندرية، نتيجة تطاير شظايا زجاج مصباح كهربائي».

أما المتهمون فهم محمود عبد اللطيف محمد ويبلغ من العمر 35 عاماً. ويعمل سباكاً بإمبابة بالقاهرة. وقد ضبط متلبساً بإطلاق الرصاص. فقد هجم عليه العسكري حسن الحالاتي وهو من بوليس باب شرقي. وكان يبعد عن المتهم بأربعة أمتار!

وقال المتهم في التحقيق أنه وصل الإسكندرية أمس الأول لحضور الاحتفال. واعترف بإطلاق الرصاص. وقال في أول الأمر

أنه أطلق الرصاص على سبيل الابتهاج. باعتبار أنه محارب قديم في فلسطين. وقال إنه نزل في لوكاندة السعادة بمحطة مصر. لكنه أنكر صلته بالمتهمين الآخرين.

وقد دلت التحريات أنهم كانوا يجلسون جميعاً في مقهى قبل الانتقال مباشرة إلى مكان الاحتفال. وعثر في جيبه على رصاص من نفس النوع المستعمل، كما تبين أن المسدس الذي استعمله من طراز براوننج، والمتهم ينتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين من العام 1938.

أما المتهم الثاني محمد عامر حماد رئيس قسم بإحدى شركات الغزل «الشركة المتحدة للغزل في الإسكندرية» ووجد في قدمه آثار طلق ناري قديم. وأنكر صلته بالمتهمين الآخرين من الإخوان.

والمتهم الثالث محمد إبراهيم درديو، عامل في الميناء، ووجدت معه سبع طلقات. والمتهم الرابع الحسيني السيد عرام، عامل بمخزن المنطقة التعليمية بدمنهور.

وقد ارتكبت الجريمة على بعد 20 متراً من المنصة التي كان يقف فيها جمال عبد الناصر، وأطلق محمود عبد اللطيف الرصاص، في اللحظة التي انتهز فيها هتاف الجماهير عند بدء خطاب الرئيس. وكان السيد الميرغني حمزة يجلس على يسار الرئيس. وكان المتهم في الصف الثاني ويضع على كتفه الأيسر علم التحرير!

وقد تم القبض على 8 آخرين غير المتهمين وأحيلوا إلى قسم لمنشية للتحقيق معهم.

عدنان المالكي
(1919 - 1955)

هو عدنان محمد شمس الدين المالكي، ولد في دمشق في حي المهاجرين عام 1919. والده كان يعمل بالزراعة، عرف بالصدق والاستقامة وكان مرجعاً لفض النزاعات بين الأهالي إذ كانوا يسعون إليه لمساعدتهم في حل مشاكلهم، حتى أن المحاكم كانت تعتمد عليه للاستفادة من خبرته في ما كان يتعذر عليها حله من القضايا الزراعية المعروضة عليها، وقد انتخب رئيساً للغرفة الزراعية خلال عدة دورات انتخابية. وإبان الثورة السورية كان يمد الثوار السوريين بالمال والسلاح والمؤن.

درس عدنان المالكي المرحلة الإبتدائية والثانوية في مدارس دمشق، واشتهر بتفوقه الدائم وجرأته الأدبية وكان منذ صغره ميالاً للجندية وشديد الشغف بمطالعة سيرة أبطال التاريخ العسكري وبدراسة تاريخ المعارك الحربية الكبرى. وما كاد يتم دراسته الثانوية عام 1937 حتى التحق بالكلية العسكرية في حمص وتخرج منها عام 1939 برتبة مرشح ضابط، ورفع عام 1940 إلى رتبة ملازم ثان، وخدم في الجيش في قطاعات مختلفة حيث كانت تسند إليه مهام

تدريب الجنود والرقباء، كما عين مدرباً في الكلية العسكرية[1].

ولم يكن يفتأ خلال خدمته في الجيش تحت إمرة القيادة الفرنسية من نشر الروح الوطنية بين مرؤوسيه من ضباط ونقباء وجنود مذكراً إياهم دوماً أن الجيش للوطن، وكان نشاطه الوطني يقلق القادة الفرنسيين وكانت له مواقف مشهورة معهم، فوضع تحت الرقابة الشديدة إلى أن تفاقمت الحوادث بين السوريين والقوات الفرنسية فالتحق بالقوات السورية ومن ثم عين عضواً في لجان تسليم قوات ومعدات الجيش الخاص من قبل الفرنسيين إلى الحكومة السورية[2].

عام 1948 حين نشبت حرب فلسطين كان المالكي آمراً لدورة في الكلية العسكرية فاختصرها والتحق مع عناصر الكلية بالجبهة العسكرية حيث تسلم قيادة سرية مشاة مؤلفة من عناصر احتياطية، فخاض غمار الحرب بشجاعة، وقام خلال معركة «مشمار هايردين» بإمكانيات محدودة بإحتلال التل المشرف على تلك المستعمرة اليهودية والذي سمي بعد السيطرة عليه بـ «التل المالكي»، وقد أصيب بجرح بليغ في رأسه لم يكد يبرأ منه حتى أسندت له قيادة الفوج الثامن الذي قام هو بتشكيله وتدريبه وساهم بفك الحصار عن جيش الإنقاذ في الجبهة اللبنانية. وعاد إلى قيادته ليلقى ثناءها وتشجيعها.

---

(1) **«الموسوعة التاريخية الجغرافية»**، مسعود الخوند، لبنان، طبعة أولى 1997، الجزء العاشر، ص 225 ـ 227.

(2) **«تاريخ سورية 1918 ـ 1958»**، وليد المعلم، دمشق، طبعة أولى 1985، ص 188 ـ 189.

اجتاز عدنان المالكي بتفوق دورة المدرسة الحربية العليا في فرنسا والتي أهّلته شهادتها لحمل لقب ضابط ركن مجاز. وبعد الجلاء ساهم مساهمة فعالة في تأسيس الجيش السوري، حيث أسس مدرسة صف الضباط، وخرّج أولى دوراتها وكان مديراً لدورات عدة في الكلية العسكرية. ساهم المالكي من موقعه العسكري والحزبي في تسييس الجيش السوري، وحرّفه عن مهمته الحقيقية في الدفاع عن الوطن، فاشترك في تنفيذ انقلاب حسني الزعيم في 30 آذار/مارس عام 1949. كما حاول في عهد أديب الشيشكلي أن يقود حركة تمرد، حيث قدم للشيشكلي قائمة من المطالب فأمر باعتقاله مع رفاقه ومسانديه، وقضى في السجن ما يزيد على سبعة أشهر[1].

وبعد عودة الحكم الوطني للبلاد برئاسة هاشم الأتاسي، عاد عدنان المالكي إلى الجيش وتسلم منصب معاون رئيس الأركان العامة، وكان يعمل على توظيف الجيش لمصلحة حزب البعث الذي كان يتحالف معه بقوة.

فترت حماسة المالكي للحزب منذ هزيمة أخيه رياض أحد القياديين الحزبيين في انتخابات عام 1954، إذ اعتبر أن الحزب لم يمنح أخاه رياض الدعم الكامل، فبدأ بمحاولة تعيين ضباط في هيئة الأركان مناهضين للبعث، إغراقاً في عملية تسخير الجيش للمآرب الشخصية[2].

---

(1) **«دولة البعث وإسلام عفلق»**، مطبع النونو، الطبعة الأولى 1994، ص 108 ـ 109.

(2) **«ذكريات على درب الكفاح والهزيمة»**، رياض المالكي، مطبعة الثبات، دمشق، 1972، ص 104 ـ 105، 170 ـ 171.

تم اغتيال العقيد المالكي في الملعب البلدي بدمشق يوم 22 نيسان/ أبريل عام 1955 خلال مباراة لكرة القدم، كان يرعاها بين منتخب سورية ومصر. وارتكب جريمة القتل رقيب في الجيش السوري يدعى يونس عبد الرحيم كان مكلفاً بحراسة المنصة الرئيسية، وقد تم إطلاق الرصاص على القاتل فوراً من قبل أحد مساعدي الشرطة العسكرية فأرداه قتيلاً لئلا يتم اكتشاف ملابسات الجريمة. ثم حمّل «الحزب القومي السوري» مسؤولية الاغتيال فتمت ملاحقة أعضائه وتصفيتهم.

مباشرة إثر الاغتيال اعتقلت سلطات الدولة أعضاء «الحزب السوري القومي الإجتماعي»، الذي وجهت إليه تهمة اغتيال العقيد. كما أن السياسة الخارجية السورية رسخت اتجاهها بحزم في تأييد السياسة المصرية، وفي التقارب مع الإتحاد السوفياتي ودول المعسكر الإشتراكي.

وأتى اغتيال العقيد المالكي تتويجاً لنشاط سياسي مكثف شهدته دمشق منذ مطلع العام1955. ففي 18/ 1/ 1955 وصل إلى دمشق سفيراً لمصر لدى سورية، السيد محمود رياض الذي كان له دوره المؤثر في السياسة السورية حتى قيام الوحدة. وبعد وصوله بأقل من ثلاثة أسابيع سقطت آخر وزارة شكلها الرئيس فارس الخوري، وكان سقوطها مدوياً إذ تمت نتيجة ضغط سياسي من الشارع نظراً لما شاع وقتها من تلكؤها في اتخاذ موقف مناهض لمحاولات عراقية هادفة إلى جر سورية للتحالف مع الغرب، ذلك التحالف لذي تجسد لاحقاً في حلف بغداد. ثم في 13/ 2/ 1955 شكل

الرئيس صبري العسلي وزارته التي خلفت وزارة الرئيس الخوري، وشارك فيها ـ ولأول مرة منذ 1949 ـ حزب البعث العربي الإشتراكي، مشاركة رمزية بشخص الوزير الدكتور وهيب الغانم، الذي سمي وزيراً للدولة ولكنه تولى ـ وهو الطبيب ـ، وكالة وزارة الصحة. ولا ريب أن تسمية الغانم وزيراً للدولة إنما كانت ذات دلالة: إنه يعاين مدى انسجام سياسة الوزارة مع سياسة حزبه، ولا سيما في منعرجات السياسة العربية السورية. ثم إنه، في شباط/ فبراير 1955 أيضاً، تم تعيين العقيد عبد الحميد السراج رئيساً للمكتب الثاني (الاستخبارات) في الجيش، وهو المعروف بصداقته مع مصر وقربه من سفيرها محمود رياض.

وباغتيال المالكي قضي على «الحزب السوري القومي الإجتماعي» في الجيش، وكان لهذا الحزب مجموعة من الضباط ذوي النفوذ، ومعهم عدد كبير من ضباط الصف.

كذلك باغتيال المالكي، انتهى النقاش الفكري الذي عرفته الساحة السورية منذ أوائل الثلاثينات واشتد طيلة الأربعينات وفي النصف الأول من الخمسينات بين القائلين بأمة سورية والقائلين بأمة عربية واحدة.

أحمد زبانة
(1926 ـ 1956)

ـ المولد والنشأة:

ولد أحمد زهانة المدعو خلال الثورة أحمد زبانة في العام 1926 في القصد ـ زهانة حالياً ـ، ومنها انتقل مع عائلته إلى مدينة وهران في حي الحمري. نشأ وسط عائلة متكونة من ثمانية أطفال هو الرابع بين إخوته. دخل المدرسة الإبتدائية، إلا أن حصل الشهادة الإبتدائية باللغة الفرنسية. ولما كان تجاوز هذا المستوى الدراسي غير مسموح به للجزائريين فقد طرد من المدرسة. بعد طرده التحق بمركز التكوين المهني حيث تخرج منه بحرفة لحام.

ـ نشاطه السياسي قبل الثورة:

كان لانضمام أحمد زبانة للكشافة الإسلامية دور في نمو الروح الوطنية الصادقة في نفسه، زيادة على شعوره بما كان يعانيه أبناء وطنه من قهر وظلم واحتقار. هذه العوامل كانت وراء انضمامه لصفوف الحركة الوطنية عام 1941. وتطوع زبانة لنشر مبادئ الحركة وتعميق أفكارها في الوسط الشبابي وفضح جرائم الاستعمار

الفرنسي. وبعد أن أثبت بحق أهليته في الميدان العملي وبرهن على مدى شجاعته وصلابته اختارته المنظمة السرية (الجناح العسكري) ليكون عضواً من أعضائها. وبفضل خبرته تمكن من تكوين خلايا للمنظمة في جميع النواحي التي كان يشرف عليها. وقد شارك في عملية البريد بوهران عام 1950.

ازداد نشاط زبانة السياسي وتحركاته مما أثار انتباه السلطات الاستعمارية التي لم تتوان في إلقاء القبض عليه وتقديمه للمحاكمة وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات وبالنفي من المدينة لمدة ثلاث سنوات أخرى قضاها ما بين معسكر ومستغانم والقصر.

- دوره في التحضير للثورة:

بعد حل اللجنة الثورية للوحدة والعمل في 5/ 7/ 1954، عين أحمد زبانة من قبل الشهيد العربي بن مهيدي مسؤولاً على ناحية زهانة وكلفه بالإعداد للثورة بما يلزمها من ذخيرة ورجال. وتجسيداً للأوامر التي أعطيت له كان إجتماع زهانة الذي جمعه بعبد المالك رمضان، وقد حددت مهام زبانة بعد هذا الإجتماع هيكلة الأفواج وتدريبها واختيار العناصر المناسبة وتحميلها مسؤولية قيادة الرجال وزيارة المواقع الإستراتيجية لاختيار الأماكن التي يمكن جعلها مراكز للثورة.

لقد نجح زبانة في تكوين أفواج كل من زهانة، وهران، تموشنت، حمام بوحجر، حاسي الغلة، شعبة اللحم، السيق. وكلف هذه الأفواج بجمع الإشتراكات لشراء الذخيرة والأسلحة. وأشرف بمساعدة عبد المالك رمضان على عمليات التدريب العسكري وكيفية نصب الكمائن وشن الهجومات وصناعة القنابل.

في الإجتماع الذي ترأسه العربي بن مهيدي بتاريخ 30 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1954 تم تحديد تاريخ اندلاع الثورة بالضبط وتحديد الأهداف التي يجب مهاجمتها ليلة أول تشرين الثاني/ نوفمبر. وفي 31 تشرين الأول/ أكتوبر 1954، عقد زبانة إجتماعاً مع أفواجه تم خلاله توزيع المهام وتحديد الأهداف وتحديد نقطة اللقاء في جبل القعدة.

- دوره في الثورة:

بعد تنفيذ العمليات الهجومية على الأهداف الفرنسية المتفق عليها، اجتمع مع قادة وأعضاء الأفواج المكلفة بتنفيذ العمليات لتقييمها والتخطيط فيما يجب القيام به في المراحل المقبلة. ومن العمليات الناجحة التي قادها أحمد زبانة عملية لاماردو في 4/ 11/ 1954، ومعركة غار بوجليدة في 8/ 11/ 1954 التي وقع فيها أحمد زبانة أسيراً بعد أن أصيب برصاصتين.

- اغتياله:

نقل زبانة إلى المستشفى العسكري في وهران ومنه إلى السجن، وفي 21 نيسان/ أبريل عام 1955 قدم للمحكمة العسكرية بوهران فحكمت عليه بالإعدام. وفي 3 أيار/ مايو عام 1955 نقل إلى سجن برباروس في الجزائر وقدم للمرة الثانية للمحكمة لتثبيت الحكم السابق الصادر عن محكمة وهران. ومن سجن برباروس نقل إلى سجن سركاجي. وفي يوم 19 حزيران/ يونيو 1956 في حدود الساعة الرابعة صباحاً أخذ زبانة من زنزانته وسيق نحو المقصلة وهو يردد بصوت عال: «إنني مسرور جداً أن أكون أول جزائري يصعد

المقصلة، بوجودنا أو بغيرنا تعيش الجزائر حرة مستقلة»، ثم كلف محاميه بتبليغ رسالته إلى أمه. وكان لهذه العملية صداها الواسع على المستويين الداخلي والخارجي، فعلى المستوى الخارجي أبرزت الصحف، صفحاتها الأولى صورة الشهيد وتعاليق وافية حول حياته. أما داخلياً فقد قام في اليوم التالي أي 20/ 6/ 1956 جماعة من المجاهدين من جهة الغرب بعمليات فدائية جريئة كان من نتائجها قتل سبعة وأربعين عميلاً وإعدام سجينين فرنسيين.

- رسالة أحمد زبانة:

أقاربي الأعزاء، أمي العزيزة:

أكتب إليكم ولست أدري أتكون هذه الرسالة هي الأخيرة، والله وحده أعلم. فإن أصابتني مصيبة كيفما كانت فلا تيأسوا من رحمة الله. إنما الموت في سبيل الله حياة لا نهاية لها، وما الموت في سبيل الوطن إلا واجب، وقد أديتم واجبكم حيث ضحيتم بأعز مخلوق لكم، فلا تبكوني بل افتخروا بي.

وفي الختام تقبلوا تحية ابن وأخ كان دائماً يحبكم وكنتم دائماً تحبونه، ولعلها آخر تحية مني إليكم، وأني أقدمها إليك يا أمي وإليك يا أبي وإلى نورة والهواري وحليمة والحبيب وفاطمة وخيرة وصالح ودينية وإليك يا أخي العزيز عبد القادر وإلى جميع من يشارككم في أحزانكم.

الله أكبر وهو القائم بالقسط وحده.

إبنكم وأخوكم الذي يعانقكم بكل فؤاده

حميدة

الفهرس



مركز الشرق الأوسط الثقافي